

رواية

”حانة البقر“

بقلم

الروائي خيرى حداد

الناشر
المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : رواية حانة البقر
اسم المؤلف: خيرى حداد
تصميم الغلاف: محمد خيرى حداد

جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للناشر

الناشر

المكتب العربي للمعارف

٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون/ فاكس: ٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣-٢٦٤٢٣١١٠
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٩٩٦١

الترقيم الدولي :- 6-695-276-977-978-I.S.B.N.

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل
أو الترجمة أو الاقتباس من هذا الكتاب في أي شكل
كان جزئيا كان أو كليا بدون إذن خطي من الناشر،
وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العريضة .
وقد اتخذت كافة إجراءات التسجيل والحماية في العالم
العربي بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية
والأدبية .

إهداء

لقد مات من مات .. وسيظل أخي محمد حداد حيًا في
داخلي ما حييت..

" شعرت بالعجز مرتين "

=====

.. وبدأت أخاف في وقت يجب ألا أخاف فيه، وبينى وبينى نفسى كيف أخاف من امرأة .. لكن إذا كانت هناك امرأة مثل منى مهما كانت أيام سعادتي معها تفكر في موت زوجها فمن يقتله ومن يستفيد من قتله وهل أكون سبباً في قتل مسكين مثله .. إذا على أن أرحل أو أقول لها لا داعى للتخلص منه وسوف أكون معك أبداً ولن أجعل أى شيء في داخلى يصحو ويؤنبنى على علاقتي معك .. هذا حرام أو حلال .. ومن أنا حتى أقررّ الحلال والحرام .. إننى لا أفهم في دينى غير الصلاة ولم أحفظ من كتاب الله إلا القليل أقرؤه وأنا أصلى .. عرفنى أبى الحياة والتاريخ قبل العلم ..

.. نشأت في قرية تمتلئ بالفوضى والبوهيمية والغوغاء وتمرّنت على أولاد شارع أبو سمك وضربت اللص فتحى سنيته مشاغب العزبة البحرية .. تعوّدت على صفارة مكنة الطحين وبائع بلح الأمهات وطبول المراكب وجلبة الصيادين .. لم أقتنع بالعملية التعليمية في مدارس قرיתי من مدرسين وتلاميذ ومناهج أحفظ فيها أرنب نط وشرشر خط وجلال يأكل الفول .. وتاريخ ليس فيه غير تحيا عبدالرؤوف الزلبانى وهتافات وصوت عال .. عملية كلها زيف في زيف تملّصت منها وأنا أخرج من قرיתי ألقيت بها في ترعة بلدى حتى قبعث تحت القنطرة ودفنت أسفلها، وكان البلمسم

الوحيد الذى ساعدنى على تجاوز وجع الدماغ والألم والفوضى
والبوهيمية فى تلك المرحلة من عمرى هو جمال علاقتى ببنت
الكفر سميرة .. لما أخذتتى فى حجرها أثناء رحلة العودة من
أشمون بعدها حيكث الثياب للعروس وهى عارية كى تحسن حياكة
ملابسها الداخلية كالتى ترتديها.. بنت الكفر هذه كانت الطموح الذى
بات فى داخلى أملاً أصبو إليه، ولما التقت بى وأنا طفل شعرت
برجولتى وآمالها وطموحها نحو المرأة، وأننى كنت بالنسبة لها
الطفل الجميل لكننى العاجز فكان عليها أن تذهب إلى الإسكندرية
هى وأما لتجدا هناك الخلاص والحل ..

.. ولما تركت لى كرتونة الكتب كنت أيضاً عاجزاً على قراءتها
وفهمها وللمرة الثانية أشعر بالعجز الكبير .. كنت أشم الكتب
وأحتضنها وأرصّها فى شباك المندرة وكنت التهم النساء المانيكان
اللاثى يعرضن أزياءهن فى مجلات الأزياء التى تركتها لى فى
الكتب ..

.. خرجت من قرىتي وأنا أبحث عن سميرة ... عن مثلها ..
وتركت خلفى قرية بكل أعمالها حتى أبى وأمى تركتهما خلفى رغم
أنهما فى قلبى، ولكن قلبى وجسدى اللذين بدءا يبرزغان فى نضج
قوى أبحث عن امرأة أحبها أعشقها بعيداً عن تلك القرية التى
أخذت منى أربعة عشر عاماً من عمرى ..

.. ولو لم يكن تمرّدى هذا وطموحى في بحثى عن الجمال وجسد العروس الجميل مع جسد سميرة جعلنى أروح وأجىء في منوف أبحث في شوارعها وأسواقها عن امرأة تملك هذا الجسد ..

.. فهل كانت منى بديلاً عن سميرة .. وهل كانت منى كل النساء في داخلى وبها نسيت سميرة وتوقفت عن البحث عن مثلهما باحتضان منى لي .. بل ودخولى إلى عالمها .. عالم كل النساء الجميلات، ولما دخلت إلى عالمها تمرّدت على كل النساء غير الجميلات .. فالمرأة غير الجميلة ليس لها عالم .. ولا يشغلنى غير عالم المرأة الجميلة ودونها لا شأن لي بها .. فهل في ذلك جنون وتجنّى على بعض النساء .. معذرة على عالم غير جميل فعالم النساء الجميلات هو ما يخصنى وهو طريقى ..

.. في وقت قليل انتهت منى من عمل إجراءات الخروج من المستشفى .. نزلنا الدرج وهى تمسكنى من ذراعى بيد وبالأخرى تحمل حقيبة بها حاجياتنا، وكانت المستشفى تضرب ثقلب بالزوار والمرضى الداخلين والخارجين، ولما تركنا مبنى المستشفى خلف ظهرنا وقفنا في الشارع المؤدى إلى مخرج منوف البحرى الذى يوصلنا إلى قريتي تتأ وغمرين وفى يوم السبت يزدهم هذا المدخل بالفلاحين والفلاحات الذين يأتون من هاتين القريتين ومن قرى أخرى مجاورة يحملون الخضار والحبوب والطيور في مشنات فوق رءوسهن أو عربات الكارو التى تحمل مجموعات من النساء والرجال الذين يقصدون سوق البلدة وشوارعها .. وكان من أكبر علامات سوق المدينة أن مئات من الجاموس والبقر والعجول

والحمير والماعر تخترق شوارع البلدة لتصل إلى سوق البهائم الذي يقع على يسار الطريق المؤدى إلى سرس الليان .. وكان نعيم ونهيق ومهممة ومأمة تلك الحيوانات كفيل بأن تصحى منوف مبكرًا لاستقبال هذا الجمع الكبير في شوارعها حتى تصل إلى داخل أسوار السوق، خير وشراء وبيع وفلوس تبيع وتشتري وتضارب وتتقل تلك الحيوانات من قرية إلى قرية بواسطة أكبر تجار وزراع المديرية لأنه كما كانت منوف منذ القدم أكبر مدينة تجارية ففيها أيضًا أكبر سوق للحيوانات ..

.. ولما وقفت مع منى في مدخل المدينة من بحرى لنستقل مواصلة توصلنا إلى بيتنا شدنى الناس والبهائم بأنواعها التي تدخل البلدة وتسمرت قدمائى في أرض الشارع لأرغب هذا الركب من الفلاحين والفلاحات بطيورهم وحيواناتهم؛ لأننى من هؤلاء الناس عشت مع مثلهم ونشأت وسط الجاموس والبقر والحمير والجمال .. وكانت رائحة الحيوانات تملأ أنفى كلما رأيت واحدة منها وتذكرت ليل أن كان أبى يأتى بى من عند الساقية عندما أنام ليفرش لي فوق فرن الزريبة لأكمل نومي حتى الصباح مع البهائم .. وأنام على زئير تلك الحيوانات التي يبدو أنها كانت تسعد بنومي معها .. ولم أنم في حياتى نومًا عميقًا جميلًا مثل نومي مع تلك البهائم؛ لأننى كنت أنام في دفء ورائحة البهائم وروثها تملأ أنفى وتدفعنى بل وتسكرنى فأنام ذلك النوم العميق لأصحو في الصباح كلى قوة وشدة لأبدأ يومًا جديدًا يأخذنى فيه أبى إلى بيت البلدة الذى فيه أجد الفراش النظيف الوثير في غرفتى مع أمى .. وكنت أبكى وأبى يعود بى في

الصباح من زريبة البهائم إلى البلدة لرغبتي الشديدة في أننى لم أكن أحب مغادرة فرن زريبة البهائم والاستمتاع بنومه الذى عمر في دماغى ..

.. تشدنى من ذراعى لنمشى فلا حراك أنظر مشدوهاً إلى أرتال الفلاحين والفلاحات الذين يأتون من تتا وغمرين وأغرورقت عيناي وتُتت بين الزريبة والفرن وهذا الحشد من أهلى الذى يهرول الخطى إلى سوق البلدة، ويبدو أننى رُحت في خبر كان فزعقت في:

- ياللا إيه مالك عاجبك أوى النسوان المنىكه اللى جايه من تتا ..

- يامنى أنا بانقرج على كله ..

- ياللا بقى خلى عندك شوية ..

- شوف البهايم شوف المعيز ..

- لأ أنا شايفه نسوان وبنات متكحله ..

- بالذمة مش حلوين ..

- بالله أصوت وألم عليك الشارع ياللا نمشى من هنا ..

- إينى فرصة أفكر الخميس في بلدى ..

- همّ دول جايين السوق برضه يبيعوا أو يشتروا ..

- أمال إيه ..

- شوفهم متزبرئين ومتكحلين إزاي الواحدة منهم عايزة تتنص في نظرها .. ويندق فيها رصاصه ..
- طيب هدى يامنى ..
- أهو حنطور جاى أهه ياللا نركب .. ألك بدل ماتروح منى خلى عندك شوية دم حرام عليك ..
- .. وراحت تبكى في الحنطور .. وتعجبت أمن الفلاحات تغير ..
ياخبر إسود بتغير على من الهوا دا باين عليها اتجننت .. أحسن تقتلنى بدل ما تقتل جوزها ..
- .. أعادنى الحنطور إلى حالتى الطبيعية .. شغل شغلوله دندش دندوشة .. شيه ياللا يافارس ويلفحه صاحبه على مؤخرته بالكرباج كلما أبطأ عند كل ناصية .. يمهمه الفرس ويقزح في خطاه وبننت السرو أغرقت منديلها بالدموع ولا تدرى إن كنا نركب أو نمشى فأمسكت بكف يدها وقبلته وقبضت عليه في حجرى راجيا:
- مش كفاية .. فيه إيه حصل عشان دا كله ..
- لأ مافيش أحسن حاجة ليك أحبسك ماتطلعش بره تانى ..
- عايز أجيب رقم الجلوس ..
- مش هاتجيبه ..
- كل العيال جابته ..

- أنا هاروح المدرسة أجيبه .. إنت مقبوض عليك من
النهارده..

- لأ مش هاتروحي المدرسة .. المدرسين هايكسوك ..

- بتغير علىّ ياحسن ..

- مش بغير بس بخاف عليك وبموت فيك ..

- والله ياحسن بتحبني ..

- أمّال أحب مين ..

ارتمت برأسها على صدرى خلف ظهر الحوزى الذى ينشغل
بفرسه فاحتضنتها بذراعى وقبّلت كف يدها ثانية فأفاقت وقالت:

- بصحيح .. صحيح بتحبني ..

.. توقف الحنطور عند باب البيت وانتظر الحوزى أن ننزل فلم
ندر بشيء فقال بصوت عال :

- وصلنا ياست ..

" البلد كلها حشيش "

=====

.. ومرّت أيام فيها يذاكر حسن دروسه فوق سرير منى، كانت تخدمه وتعتنى به كما لم تعتن به أمه، فإذا راق مزاجه وقال لها ناخذ راحة شوية ارتدت له أرق وأجمل الملابس الداخلية وراحت تعرضها وتبرز مفاتن جسدها له حتى يعلو مزاجه وينعدل فيقوم إليها منحنيًا لتأثير جسدها عليه، وفي ليلة كان طوجنى يغط في نومه فدخلت عليه منى توقظه لأسئلة في رأسها كثيرة، وتركته حسن يعد أن قفلت عليه الغرفة حتى لا يسمع شيئًا بينها وبين زوجها، ولما استيقظ راح في نوبة سعال فقالت له بعد أن هدأت كُحْتَه :

- إنت سايبنى خالص ولا حتى بتقولى عاملة إيه ..
- أبدًا أنا شايفك مبسوطه مع أخوك يبقى هادخل إيه بينكم أعكّر صفوكم ..
- ماجتش زرتة في المستشفى إيه ..
- أنا مش قادر أدّير .. كمان شوية آجى أسلم عليه ..
- وفين الحشيش وفلوسه قلّت إيه ..
- شح اليومين دول مش زى الأول ..
- عايزة تشربى ولأ عايزة فلوس ..

- الاتنين ..
- في الرف الأولانى بتاع هدومى فيه علبة فيها الحشيش
اللى إنت عايزاه..
- طب والفلوس ..
- تحت ليانة الكنبه محفظتى القديمة فيها اللى تعوزيه ..
- طب وانت مالك اليومين نول ..
- أصلى زعلان شوية يمكن أنتقل لنقطة في بلد ثانية ..
- يالهوى تعمل إيه والحشيش والفلوس ..
- البلد دى كلها حشيش ماتخافيش ..
- أنا زعلانة علشان حاجة واحدة .. وسكتت ..
- إيه هى الحاجة دى ..
- نفسك بالدنيا في البيت .. لما تمشى نفسك هايروح في
حطة ثانية..
- نفسى .. ماليش نفس من زمان ماتضحكيش على يامنى ..
- شوف هاتطلّعنّى كدابة ياطوجنى ..
- ماقصدش يعنى لما كنا لوحدينّا كان نفسى بيعمل إيه ..
- الراجل اللى ليه نفس بيسعد مراته ..

- إنت غصب عنك مالکش يد في الحاجة دى ..
- وعلشان كده اعترفت بالحقیقة وجبت لك اللی يسعدك ..
- طیب یاطوجنی تفكر إحنا ماشیین صح ..
- هوّ فيه حد ماشی صح .. ماحنا ماشیین غلط من زمان
- تفت منی في صدرها وحلفت قاتلة :
- والله ما عرفت حد قبلك ولا بعدك ..
- أمّال حسن ییعمل إیه ..
- حسن بس .. مش حسن زى أخویا یاطوجنی ..
- هوّ ولد صغیر أد أخوك بس هوّ راجل ..
- ماتكسفیش یاطوجنی بلاش تدخل في الغمیق ..
- مش هیّ دى الحقیقة ..
- یعنی مش حرام أتکشف على ولد غریب ..
- لأ یاشیخة تقی من بّك اوعی تتكسفی تانى ..
- تعرف یاطوجنی دا مهما راح ولأ جه هوّ عیل ..
- اللی مریحنی أنه أصغر منك بخمستاشر سنة .. وهی
- ماشیة..

- على فكرة ساعات لما مابتقاش هنا ويبيجى بيوضة
علشان يدّيك فلوس الحشيش .. الواد العبيط ده بيبقى
عايز يدخل ..

- ما انت كنت بتدخله قبل كده ..

- كان بيصعب عليه لأنه وسخ أوى ..

- وكنت بتحميه وكان .. وهز رأسه ..

- لأ لأ .. دا واد أهبل معقولة هاوصل للدرجة دى ..

- يعنى الأهبل ده ماقربش منك خالص ..

- لأ لأ ياطوجنى ..

- إنت عارفة الهبل دول بيبقوا فظاع أوى ..

- ماجربتش علشان أقولك فظاع ولأ منيلين ..

- بالنمة فيه واحد زيّ في البلد ..

- في إيه ..

- سايبك براحتك .. شوفى أنا بحبك أد إيه ..

- بصراحة جمياك فيّه مايتسش مافيش راجل زيّك

- ياطوجنى ..

- فعلاً مافيش راجل في البركله زيّ ..

- حكاية النقل دى صحيح ..

- أيوه هامسك نقطة من أولها لآخرها ..
- والحشيش .. هايبقى فيه حشيش ..
- البلد دى مليانة حشيش ..
- اسمها إيه ..
- كافور الجبل ..
- ودى تبع منوف ..
- أيوه .. دى كلها جبل ..
- علشان كده مافيش غير الحشيش ..
- كل البلاد اللى فيها جبال كده ..
- أمال الناس هاتاكل منين ..
- الكيف بيأكل ناس كتير ..
- لولا المدعوق ده كانت نص البلد تجوع ..
- إنت عارفة ضباط المباحث دول بيدعوا للحشيش لولا هو
- ماكانش يبقى لهم بيوت ..
- واحنا لولاه كنا هانعيش إزاي ..
- تفتكرى إيه .. كل البلد بتشرب ..
- طيب ليه الحكومة ماتمنعوش ..
- إذا كان نص الداخلية مزأططه منه ..

- تبقى مكافحة الحشيش والمخدرات كلام وخلص ..
- كل ده حركات علشان ورا الشعارات دى الناس بتعيش ..
- هو إحنا بنكذب على بعض ..
- الدنيا اتبنت على الكذب ..
- وعلى إيه كمان ..
- الدنيا زى الغربال المخروق ..
- هاتروح كافور إمتى ..
- يمكن الأسبوع الجاى ..
- المهم كتر من الحشيش ..
- على فكرة الحشيش اللي هامسكه هايبقى بتاعى كله ..
- بس فتح مخك مع الناس اللي حواليك ..
- أكيد لازم أشبع اللي حواليه حتى الغفير هاعمل حسابه ..
- على فكرة النقطة في أى بلد بتبقى كلها غفر ..
- أساس الأمن في القرى الغفر ..
- الغفر في البلاد عارفين كل حاجة عن البلد ..
- لأنهم من أهل البلد ..

طَبْ خَلاص اَرْض الغَفَر .. إَحْنا مَش عَازِزِين نَشْرِب
بَس ..

- عَازِزِين إِيه تَانِي يَامْنِي ..

- نَبْنِي بَيْت وَلِيه مَانْتَا جَرَش فِيه إِذَا كَان هَايَبْقِي كَثِير ..

- عَلَى الْعُمُوم سَيِّبِينِي أَفْكَر مَش عَارِفِين الدُّنْيَا فِيهَا إِيه لَمَّا
نَرُوح ..

- كَدِه الْعَمَلِيَّة هَاتْبَقِي فَل يَاطُوجْنِي ..

- هُوَ حَسَن مَش هَايِرُوح يَذَاكِر فِي الْبَلَد ..

- لِأ هَايَذَاكِر هُنَا أَحْسَن ..

- طَيِّب كُويَس عَلَى الْأَقْل أَبْقَى مَطْمَنٌ عَلَيْكَ ..

- مَش كَدِه بَرَضِه .. رَبَّنَا يَخْلِيكَ يَا جَمْلِي ..

.. رَاح طُوجْنِي يَضْحَك بِصَوْت عَال وَيَقُول .. وَاللَّهِ مَا حَدَّ عَارَف
هِيَ مَاشِيَّة إِزْأَي ..

" عمدة كافور الجبل وزوجته "

=====

قرية كافور الجبل تقع على بحر صغير يتفرع من الرياح المنوفى الذى تجرى مجراه الرئيسية في مدينة القناطر الخيرية، في كافور سجن مشهور فيه أكبر المجرمين الذين يرتكبون جرائم يلقون بهم خلف هذه الأسوار، تقع منازلها على حرف بحرها وخلف برها الذى يتخذ شكل شريط رفيع تحفه جروف ملتوية تصب جميعها عند أطراف هذه المياه التي يطلقون عليها الاسم الذكورى "بحر الهويس" .. كُتِل من البوص والحلقة وأشجار السنط وجذور قديمة من شعر البنت كانوا يطلقون عليه في القريب (شعر أم الشعور) ويقولون في أزمان مضت كان هذا البحر يمثل بالعفرات التي تجلس دائماً فوق جذور شجر شعر البنت فأطلقوا عليها بعد ذلك شجر أم الشعور، وكلما نزل فلاح في أى نزلة من نزلات البحر ليسقى بهيمته بعد المغرب أو في أى وقت في ساعات الليل وجد امرأة عجوزاً ترتدى ثوباً أسوداً قديماً منكوشة الشعر زرقاء العينين تتكفى على طفل صغير أسود وجهه مثل وجه كلب أو ذئب يملأ الشعر وجهه، تتحنى المرأة فوق طفلها وتقلبه (يعنى تبحث في رأسه عن القمل بأظفارها الوسخة) وكلما وجدت قملة التهمتها بين أسنانها وقرشتها في شراسة .. فإذا سيطر الفلاح على فزعه وخوفه من رؤية أم الشعور زعق قائلاً .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. طبشت أم الشعور في البحر هى وطفلها واختفت .. وإذا هلع الفلاح وأصابته قشعريرة وارتجف رمى بحبل

بهيمته وانقلب وهو يجأر إلى حيث أتى .. كانت حكايات الليل عند السواقي وفي دكاكين القرية وبيوتاتها عن أم الشعور عفريت البحر الذى دائماً يسكن فوق جذور شجر البنت القديمة ..

.. مراكب للصيد قليلة يمتلكها رجال يرتدون جلابيب ممزقة في الشتاء وفي الصيف يرتدون لباساً طويلاً وفوقه صدارى عار الأكمام، كيف يتكور في قطعة من الصفيح تصهد دائماً بنار مصطيلة تم تكسيها قطعاً صغيرة من فروع الجميز والتوت .. امرأة الصياد مثله في لباسها وجلدها وصبرها في الليل والنهار ترافقه على سطح قاربه أينما ذهب في بطن البحر، وغالبا ما يسوق المركب ابن الصياد أو زوجته .. القارب هو بيت الصياد فيه البتاو (خبز الدرة) وبعض الجبن وكوز مملوء بالشطة الحمراء وعدة شاي (براد وكوبايات وبرطمان سكر وشاي)، وفي أوقات كسوف السمك تجذب امرأة الصياد بقاربها نحو الشاطئ فيقوم زوجها بربطه في وتد بالجرف بعدها يأخذ الصياد زوجته في أحضانه فوق سطح المركب حتى يأتي وقت هوجة السمك فيقوم الصياد وامرأته لينثرا شباكهما بعد أن يقوما بالتخييط (الطبل) حتى ينط السمك هلعاً في الشباك ..

.. شريط من البيوت القديمة الرقيقة السقف والجدران يأهلها ساكنيها في الهزيع الأخير من الليل بعد سهرة أول الليل التي تمتد من بعد العشاء وحتى بعد منتصف الليل بكثير يكون وقتها العيال قد ناموا ..

.. في قرية الكافور فلاح وصياد وأشقياء خلف القرية يسكنون العشب والجحور وجميعهم يتناولون ويتناولون ويتاجرون في الحشيش الذي يأتيهم خلف كثبان رملية في طرق معبّدة من بلاد تقع خلف رعوس الجبال المترامية مع كفور ونجوع بلاد مجاورة نشأت من قديم الزمان، في هذه القرية كافور الجبل استأجرت الداخلية بيتاً قديماً به غرفتان .. غرفة للسلاح .. السلاحليك .. وأخرى للكونستبل (الصول أو الشاويش الذي يرأس نقطة الشرطة).

.. ذهب طوجنى إلى تلك القرية قاصداً بيت العمدة (تامر البربرى) عمدة يملك من الأرض الزراعية فداناً واحداً يزرعه قمح ودرّة وفي زريبة البهايم جاموسة واحدة و بعض الغنم وزوجة محجوبة بصفتها حرم العمدة .. له من الأبناء بنت في العشرين من عمرها وولد حاصل على دبلوم التجارة ويعمل مدير الجمعية الزراعية في القرية الصغيرة .. القرية يأمن على أمنها وحراستها عشرة من الخفراء جميعهم من أهل القرية .. عند مدخل القرية غفيران وفي مخرجها آخران .. يشعلان النار طيلة الليل لكن واحداً منهما يذهب إلى داره أو لقضاء حاله عند منتصف الليل فواحد منهما فقط يبقى بقية الليل حتى الصباح .. ويتوزع بقية الغفراء واحد عند البوستان وآخر في الجمعية الزراعية .. وأعلى صوت له صدى في أى وقت من الليل يصدح فوق أمواج هذا البحر الصغير. هو صوت الغفير أياً كان موقعه (مين هناك .. كثبان سلاح .. كله تمام يابطران .. وبطران هذا كان اسم رئيس النقطة قبل طوجنى فغيّره الغفراء بتمام

يا طاجن .. وسعد طوجنى بهذا الاسم وكان يقول بينه وبين نفسه
(هو حد يطول طاجن .. طاجن بصل وصلحه يا اوله) ..

.. كانت كل القرية تسلق أرزاقها من زمجرة الرعد وهيجان موج
البحر وانتشار الأمن بين خفراء من أغلب الناس فيها .. فهذا
عويس وخطاب وظنين وزهيرى وعوضين وفهيم وصابر .. كل
واحد منهم قفاه يقمر مشنة بتاو .. ولم يكن طوجنى يعلم أن بطران
نقل لأنه عمل بتاع أمن بصحيح وأراد أن يمسك بحق وحقيق تجار
الحشيش في القرية فتحالف الجميع على ضرب الذنب فيه
والشكاوى للمركز لأنه فاكّر نفسه بصحيح ها يحوش الحشيش
والعمدة أول واحد منتفع بيه .. أكبر راس لأصغر رأس تصله
رائحة مرقة ورغيف وحبّة فاكهة وحتة لحمة من الحشيش، يعنى
البلد كلّها عايشة من خير الحشيش حتّى أمانة صاحبة الدكان
الصغير بالبلد تبّيع الكثير من معسل الدفراوى والعنتبلى علشان
تولع جوزة الحشيش .. فلا قمح يكفى ولا قطن والمساحة الزراعية
تقلّ يوماً بعد يوم لأنّ الناس كمان بتبنى بيوت ورمل الجبل بيلف
البلد وما حدّش عنده إمكانيات لإصلاح الجبل وتزويد شبر واحد
ينزرع حتّى بوص ولا هويس جديد يتعمل في جرف البحر يمكن
بيه يزيد السمك البربس والقراميط، كله مزنوق في حتته حتّى
الغفير ما عندوش شبر أرض ولا نزلة بحر ممكن فيها يزيد من
معاشه وهو أصلاً دخل الغفر علشان كحيت غلبان عريان الغفر
ياولد أحسن من ما فيش .. يعنى إحنا بنعمل إيه غير نحمل البلد من
حد يمنع ريحة الحشيش ..

هوَّ لولا تفتيح مخ المعلمين معانا كنت هاروح السوق أتسوق وأجيب حنة كرشه منين، هكذا يقول كل غفير .. وهى ماشية كده من سنين لازم الكونسبيل يعرف كده وإلا هایشغل شغل الملاحيس..

.. غرفة السلاحليك في النقطة بها عشر بنادق سليمة وخمسة فشك، ظل الطوجنى يتأمل حال الفقراء والعينة الغفراء اللى كل واحد منهم لابس بياذة في رجله بيخبط بيها في الأرض، وفي البلد كلها معروف مجية الغفير وراه أو أدامه من تخبيط البياذة في الأرض، قبل كده الغفر ماكانش واحد من الغفر بيلبس جزمه ولما زاد الغفر واتوظفوا ميري وصى كل منهم ابنه وأخوه اللى في الجيش وجاب له بياذة من المعسكر، وكان العسكر في هذا الوقت يسرقون من بعضهم البيادات (الجزم) ويسرقون البطاطين التي يبيعونها في شارع الكلوت بك .. الشيء الوحيد الذى توزعه الداخلية على الغفراء هو لبدة الرأس الطويلة. اللى عاملة زى القرطاس ومرسوم فيها علم البلد .. وكان الغفير إذا مشى بالليل والنهار فهو يتحنح أو يسعل أو يهزّ مع أى واحد ماشى علشان يقول أنا هنا موظف الأمن اللى أد الدنيا وكان في ذلك الوقت الناس تقول في الدكاكين دا غفير ياجدع بيروح المركز وبيشوف المأمور واوعى تيجى ناحيته وكثير من الغفراء كانوا يترالون على أصحاب الدكاكين وعلى البائعين في الأسواق .. بمعنى أن الغفير في كل قرية وخاصة في الكافور كانت أهم صفاته أن يكون رزل ولكع علشان يقدر يلقط رزقه وكان مرتبه في الشهر ثلاثة جنيه

بيصفي على اتنين ونص، مافيش بندقية فيها رصاصة واحدة ولا يوجد في السلاحليك بندقية تتفع ينضرب منها رصاصة، الغفير والكونستبل والنقطة هي كلها عملية ماشية (مين هناك .. والله كله تمام .. ولبدة الغفير وبيادته وكرش الكونستبل الذي يترازل دائماً على تجار الجبنة والزبدة والجزار ليأخذ منه ما يستطيع ليفطر أو يتعشى، الناس كلها في قرية كافور مرمية على نفسها، يعنى زى ما تقول كده كله ببشحت من كله، والناس كلها واقعة .. وفيه أكثر من غفير مشهورين بالتسنت على البيوت في ليلة السويقة..

.. الشيء الوحيد اللي فيه شوية نفس يأتى إلى القرية من تجار الحشيش الذين ينتشرون في القرية ويقودهم جميعاً البربرى عمدة البلد والتاجر اللي مايدفعش كل شهر المعلوم للعمدة يقبض عليه بواسطة الغفر ويؤديه المركز للمأمور المتفاهم مع العمدة في كل التفاصيل، وإذا زار المأمور القرية ذهب إلى بيت العمدة ليأكل الأكلة التمام ويشرب مع العمدة سيجارة الحشيش وهو ماشى قفص طيور من الفراخ والوز والحمام يوضع في عربة البوكس ويعود المأمور إلى المركز وهو لم يذهب إلى النقطة التي يجب أن يذهب لزيارتها .. كل شيء مع العمدة .. الكونستبل مجرد كرش مع نفسه ومع الغفر وأودة سلاحليك أحلى حاجة فيها اسمها، وفي يوم لما الطوجنى وجد البلد فاضية من حواليه قال يكلم نفسه وهو نائم في غرفة مكتبه فوق مرتبة قطن قديمة كان العمدة اتبرع بيها من سنين:

- يانهار إسود كانت منوف أحسن ألف مرة ..

وفى يوم أمسك بالغفير صابر والذى كان درجه عند النقطة معظم
الليال وقال له:

- يا صابر إنت بينوبك حاجة من الحشيش ..
- عمرى مالفيت سيجارة ولا شربت كرسى جوزة معمر ..
- إيه السبب يا صابر مش تاخذ حقك ..
- العمده واكل كل حاجة وما فيش حد من الغفريه يقدر يفتح
في الوضع ده، إحنا طلعلنا لقينا الدنيا ماشية كده وفيين
وفيين لما الواحد مننا يغنى على تاجر حشيش ويأخذ منه
أد حبة الترمس ..
- طيب مانت في إمكانك تشربها وتتبسط ..
- أبداً أنا باجرب وأبيعها لشريب الحشيش علشان أساعد
نفسى في المعيشة ..
- طيب إنتو بتطلعوا كام كبسة حشيش على التجار أو
الجلابين ..
- طلعة إيه ما فيش طلعات ولا اصول ولا شاويش جه
النقطة على حياة عينيه من يوم ماتولدا يقدر يكلم حد له
صلة بالحشيش، العمده كل حاجة ليه كل النفوذ في
الموضوع ده وكان أبو العمده كده برضه .. فيه اصول
ماشية في البلد ياعم طوجنى من زمان ..

- يعنى إيه من نفسى لو عملت كبسات على حد العمدة
هايعمل إيه..
- على فكرة اللى كان ماسك النقطة قبل كده حب يعمل
ضكر ويعمل حاجة زى دى .. الناس كلها كرهته ومشتته
من البلد قبل العمدة .. العمدة سلطهم عليه ..
- طيب تفكر أنا شغلتي إيه في البلد دى ..
- بكفاية عليك ياعم طوجنى تشغيل الغفرا .. هي دى شوية
- غفرا من غير يبقى سلاحليك من غير .. تبقى نقطة من
غير يبقى صول من غير ..
- إنت عايز إيه ياعم طوجنى هي دى البلد ودا حالها ..
مش بتأخذ مرتبك..
- والأمن يمشى كده فاضى في فاضى .. مش المفروض
نمسك بتوع الكيف ونمنع الحشيش ..
- البلد كلها هاتهوج عليك ومش هاتقدر على بلد كلها
عايشة على حدة حشيش ..
- كل البلد عايشة على كده ..
- بلدنا فقيرة لا فيها زراعة ولا بهائم شوف الجبل حاضنها
من كل ناحية..
- بس فيها سمك فيها بحر ..

- بحر إيه .. بحر برضه فاضى شحيح السمك روح شوف
أى صياد هاتلاقيه قالع هالع يقعد طول النهار في البحر
هوَّ وعياله ويدوبك يجيب أكله ..
- طب أنا عايز أقابل العمدة ..
- أوى في أى يوم يعجبك تعال معايا وأنا أودِّيك ..
- بكره يا صابر ..

" في بيت العمدة "

=====

.. دخل صابر بيت العمدة ومعه الكونستبل، وكانت هذه أول مرة يدخل فيها مسئول الأمن بيت الحاكم .. كان الوقت بعد العشاء حيث تترخر غرفة استقبال العمدة بالعديد من الناس أهل القرية والقرى المجاورة .. رحّب العمدة بالطوجنى بعد أن جلس في مقابلته قائلاً :

- إيه يا حضرة الصول إنت تفلان علينا أوى ..

انعدل طوجنى في جلسته وابتسم ملء فيه وقال :

- أبدأ يا حضرة العمدة كنت بشوف الدنيا في النقطة وبعدين

قلت ماينفعش أشوف الدنيا كلها من غير ماشوف العمدة

..

- أهلا بيك نورّت كافور الجبل ..

- أوى والله يا حضرة العمدة البلد ما فيهاش غير الجبل ..

- زى ما انت شايف ناشفة ناس كلها غلبة ..

- البلد مليانة حشيش يا عمدة ..

- شفته فين الحشيش ..

- كل الدكاكين والعشش والبيوت ريحتها كلها كيف ..

- إنت عارف اللّى بتشمه دا ريحة ناس بتشرب كرسى ولا

بتلف سيجارة بس ما فيش أكثر من كده ..

- بس فيه تجار بتدخل البلد ..

- إيدى على إيدك نمسكهم ..

- البركة فيك يا عمدة ما قدرش أعمل حاجة من غيرك ..

- إنت جيت في بلد جعانة .. روح شوف البلد اللّی قصادنا
- في البر التانى .. شعبانين لابسين من كتر الأكل بيناموا
- بدرى ..
- إحنا لینا دعوى ببلدنا ..
- إنت عارف العمدة هناك عنده كام فدان ..
- كام ..
- خمسين فدان .. إنت عارف أنا عندى كام ..
- ماعرفشى والله ..
- فدان واحد وجاموسة واحدة ونعجة واحدة ..
- ياه ياعمدة ..
- شوفت بقى إتنى عمدة كوارع ..
- أبداً إنت عمدة الدنيا أهم حاجة الشخصية ..
- على فكرة كل رؤساء النقطة اللّی جم قبلك ماکملوش
- معانا علشان دخلوا جامد في حكاية الحشيش دى ..
- بس انت مش شایف إن البلد كلها حشيش ..
- الناس دى لازم تعيش ها تلهم حاجة غيره .. أمال الناس
- دى تعيش بایه..
- يعنى هانقعد نتقرّج عليهم ..
- إنت عارف إتنى لو منعت حاجة زى دى .. الناس في
- البلد هانقتلنى ..
- ياه أد كده خايف ياعمدة ..

- أراهنك روح امسك الناس دى واحد ورا واحد .. شوف
- هايجرى لك إيه..
- بتخوفنى ياعمدة ..
- أبداً شوف بنفسك واعمل اللّى أنت عايزه أهى البلد أدامك
- طيب ساعدنى ..
- غفر البلد كلها معاك ..
- دا الغفر دول غلبة أوى ..
- أهى الناس الثانية أغلب منهم .. الأمن كله معاك ياصول
- وانت ياعمدة مش تحمينى ..
- أحملك إزّاي وانت الأمن كله ..
- ياخويا معاك عشر غفرا كل واحد فيهم لابس لبدّه زى
- راس الجمل..
- اللبدّه دى مش هاتمسك حد ..
- شوف البيادة ..
- برضه ياعمدة مش عارف أمسكك ..
- هاتمسك فيّه إيه .. فدان وجاموسة ..
- بس إنت مسيطر على كل البلد ..
- أهو دا رزق يعنى عايزنى من غير حاجة خالص ..
- يعنى إنت عايزنى أسيب الدنيا زى ما هى ماشية ..
- أحلى حاجة البلد دى ماشية كده من زمان .. وكلّه
- راضى وعائش ..
- والأمن بيعمل إيه بقى ..

- خليك مع العمدة وانت تكسب ..
- إزأى ياعمدة ..
- إنت عارف صابر الغفير اللى جايك هنا .. هو هاعرفك كل حاجة ..
- أنا عايز أعرف منك أنا وظيفتى إيه هنا ياعمدة ..
- وظيفتك تسلم السلاح للغفر قبل المغرب وتسلم منهم السلاح بعد الشمس عايز إيه أكثر من كده سلاح البلد كلها تحت أمرك ..
- عايزك تتعاون معايا ياعمدة ..
- إنت عارف لو لفيت الجيرة كلها مش هاتلاقى عمدة زى
- إنت اللى بتقول كده ..
- لأ روح اسأل الناس .. وأنصحك إسمع كلامى ..
- يعنى إنت بتهددنى ياعمدة ..
- عيب تف من بقاءك دا إنت هنا في بلدنا ولغاية دلوقتى
- ماقدمناش واجب ..
- ياريتنى ما جيت من منوف ..
- هو حد يبقى في منوف وييجى كافور ..
- يامه أعمل حاجة أو أرجع منوف ..
- اعمل حاجة الأول اوعى ترجع منوف دلوقتى ...
- أفهم من كده هاتساعدنى ..
- لأ ساعد نفسك والبلد أدامك ومعاك السلاح والغفر ..
- غفر إيه ياعمدة دول أغلب من الغلب ..

- البلد كلها أغلب من الغفر .. وأنصحك خليك مع الناس
- يعنى أبقي مع الناس والناس مش معايا ..
- الأمن هو اللي يمد إيدته الأول ..
- طب لو أنا عملت كبسه على بتوع الحشيش في الجبل
- هاتبقى معايا ..
- إنت عندك عيال أد إيه ..
- لأ ما عنديش ..
- طب خاف على نفسك ..
- والله يا عمدة الحياة عندي مابقاش ليها قيمة ..
- من إمتى الكلام ده .. طيب روح الجبل بس مافيش حد
- ها يسمي عليك ..
- هو ده من الآخر يا عمدة ..
- أنا قلبي عليك وخايف والله من إنك تعمل أبو عرّام
- هاتروح فطيس في شوربة ميّه ..
- على فكرة أنا عنيد يا عمدة .. الجبل بس في دماغى
- خلاص ..
- أنا نفسى تعمل حاجة للبلد .. أنا عايزك تبقى عنيد للآخر
- طيب سلام يا عمدة ..
- شرقت يا حضرة الكونستبل ..

"مرات العمدة وتاجر الحشيش"

=====

.. طلع من عند العمدة وعامل نفسه زعلان، ولم يكن طوجنى
زعلان على موقف العمدة من رجالة الحشيش ولكن زعلان علشان
بيدور على مخرج ياخذ منه حشيش ويعيش، وبعد أن دخل غرفة
السلحليك لينام قال لصابر :

- أقعد معايا شوية ..

.. قعد صابر وقال :

- تحت أمرك ..

- ماتجيب عدة الشاى وتعمل لنا كوباية ..

- حاضر بس مافيش شاى ولا سكر ..

- هات من أى بقال ..

- والفلوس ..

- فلوس إيه يا عجر .. هو أنا ماليش كرامة في بلدكم

خالص ..

- خلاص يا حضرة الصول هاروح دكان الغندور أكبر

دكان في البلد ..

- أيوه اتصرف .. قوله الصول عايز يشرب شاى ..

- لا دى بسيطة وأجيب حلاوة كمان ..
- هات اللى تقدر عليه ..
- .. كان صابر هلعًا من بالغ السعادة التي بها أصبح أقرب غفير
للصول، وهرول ناحية دكان الغندور ووشوش الحاج محمد صاحب
الدكان بطلبه فهز الحاج رأسه وقال ؟ :
- وهوّ دا الليلة بس ..
- ماتخافش ياعم محمد كل ليلة هاروح لدكان وبعدين
أجيك لما أخلص دكاكين البلد كلّها ..
- طيب لك على ماييجى دورى يكون إنتص في نظره ..
- ياريت ..
- خد بالسم الهارى .. خد كف حلاوة لك ..
- وهوّ قال لي على الحلاوة ..
- خد واحد له ربّنا ياخدهم بتوع النقطة دول ..
- بس أنا لأ ياعم محمد ..
- إنت غلبان مش لاقى تاكل ..
- آى والله أنا عبد المأمور ..
- معاك كبريت ..
- لأ ..

- خد عودين في العلبة دى ..
- وهمس الحاج محمد في أذنه بعد أن لف له المئونة في ورقة كرّاس
رسم :
- هوّ إيه نظامه في الموضوع ..
- كَلَّم العمدة في الموضوع .. لسه جايين من عنده ..
- أمسكه الحاج من كم جلبابه وشدّه داخل الدكان وقال له وهو يناوله
كف حلاوة حمصية :
- خد ده كمان .. قول عمل إيه مع العمدة ..
- باختصار العمدة قال له ابعد عن الناس وخوّفه من
الجبيل.
- ورد قاله إيه ..
- شوية ماسكه في دماغه حكاية مسك بتوع الحشيش ..
- أنا واحد من الناس هايفضرتنى ..
- إزّاى ياعم محمد هوّ إنت منهم ..
- ياللا ياوسخ قوم روّح ..
- حاضر ياعم محمد ..
- بص أى أخبار تعال قوللى وعوضى على الله في
الحلاوة.

- شوف كل كلمة هاسمها من الصول أو العمدة هاجى
أقول لك..

- خد كمان كف سسمية ..

- يالهى دا إيه الرزق ده ربنا يخليك ياعم الحاج ..

- إلزق للكونستبل هو كرشه كبير كده ليه ..

- دا خس أوى عما كان جاي ..

- ياللا روح النقطة علشان نسمه بالشاى ..

- ربنا يخليك ..

.. وجرى صابر نحو النقطة وهو يدك الأرض ببيادته القديمة التي
فتحت بقها وانقطعت ومش معاه يخيّطها عند حسيبة بتاع الجزم ..
وافتكر صابر يوم أن دسها من مخزن المهمات في ملابسه وهو
خارج من الجيش .. وقال يكلم نفسه : .. طب هاعمل إيه لما
الجزمة دى تدوب كتر خيرها لها ست سنين ودخل من باب النقطة
الرئيسى والذى كان قد تركه موارد وراح يتتنحج احتراماً للرئيس
النقطة ولما وقف أمام باب غرفة السلاحليك قال بصوت عال :

- ياساتر ..

- خش .. اتأخرت ليه ..

- خد الأول كف حلاوة ..

ابتسم الطوجنى والتهم الكف على مرتين ثم قال :

- مافيش معاك تانى ..

- لأ ياريتتى ما كنت كفى ..

- طب اقعد اعمل شاي ثقيل ..

وراح الطوجنى يتفحص وجه صابر ليستطلع أى معنى فى عينيه
وأى دلالة على شيء بعد أن بدأ معه الحديث قائلاً فى حنان :

- شوف يا صابر إنت باين عليك طيب وعلشان كده اخترتك
إنت تبقى قريب منى..

- دا شرف ليه يا حضرة الصول ..

- قولى إيه حكاية العمدة ..

- العمدة قال لك الكلام الصحيح ..

- مش فاهم ..

- البلد كلها بتسترزق من الكيف .. وعلى فكرة تجار البتاع
ده فى الجبل أصلهم من البلد وخرجوا منها علشان فقرها
ويعرفوا يشتغلوا ..

- سيبك إن مافيش أرض زراعية بس فيه بحر ..

- بحر فقير بالسماك .. شوف فيه يجى خمسين صياد
وأجدع صياد يصيد أثنين كيلو فى اليوم بالكثير ..

- اسمع يا صابر هاقولك حاجة بس أحلف لى إن كلامى
معاك ما حد تالت يعرفه ..

- أحلف لك بالسلاح .. مش السلاح أشرف حاجة عندنا
ياغفر ..
- بيقولوا كده ..
- مش كل يوم الصبح بيقولوا سلام سلاح وقبل المغرب
بنقول إيه.. كتفان سلاح مش اللي يضيّع سلاحه يضيّع
شرفه .. بشرف السلاح ياحضرة الصول قول أنا أخوك
الصغير ودراعك اليمين ..
- صدق ياصابر .. بس سيبك من شرف السلاح ده
ماتاخدينش في دوكة بكش ..
- أمال أحلف بإيه ..
- احلف بمراتك ..
- وحية مراتي وابني ..
- مراتك بتشتغل ياصابر ..
- أيوه بتشتغل في بيت العمدة كل ما يعوزوا حاجة بيعتوا
لها ..
- أهى بتجيب لك لقمة زيادة ..
- هي لما بتروح هناك بتاكل بس ..
- يانهار إسود دا عمدة تعبان أوى ..
- عنده حشيش وبس ..

- طيّب مرأتك مابتجيش ليك سنة ..
- شوف كل ما تروح هناك تجيب لي حتة حشيش من ورا
مرات العمدة ..
- وهى مرات العمدة مالها ومال الحشيش ..
- هى اللى بتقسم الحشيش على البياعين ..
- وبتجيب لك حشيش إزاي ..
- أصل مرات العمدة بتتق فيها أوى .. سرها معاها ..
- وهى مرات العمدة عندها سر غير سر الحشيش ..
- آه يا حضرة الصول آه .. البيوت وحيطانها مدارية
بلاوى ..
- مش فاهم ..
- مرأتى مرة ريحة بيت العمدة الصبح وكان العمدة في
المركز لقت .. وسكت ..
- سكت ليه يا صابر .. قول ..
- الكلام ده قصاده رقبتى ..
- هو أنا مالى ومال البلد كلها .. هو أنا من البلد ولا البلد
بلدى مكسور رقبة الكبير على الصغير فيها .. قول
يا صابر ..

- هاقول يا حاضرة الصول .. هاقول :

- مرأتى لقت مرات العمدة مع راجل غريب عايش في
الجبلى ..

- وهو الراجل ده بيدخل البيت إزأى ..

- دا أكبر راجل حشيش في الجبلى أهو من يوم للتانى
بيجيب نصيب للعمدة ..

- ومرات العمدة مالها وماله مش المفروض يدّيه للعمدة ..

- العمدة منبّه عليه ما يتعاملش معاه خالص ويدخل البيت
من الباب اللّى ورا ..

- آه وعشان كده بقى شُغله مع مرات العمدة ..

- أهو كده .. شوية شوية خدوا على بعض ومشيت الدنيا
معاهم ..

- وبعد ما مراتك شافت مرات العمدة مع التاجر ده عملت
إيه ..

- من يومها وآهى كل شوية تديّها حتة وتقول لها إنت
غلبانة وجوزك غلبان خدى حاجة علشان تعرفوا تعيشوا.

- وبتعمل إيه بالحتة يا صابر ..

- اشتريت جاموسة فيها شوية لبن ..

- يعنى الدنيا لعبت معاك ..

- ربّنا يخلّى مرات العمدة ..
- ياريت تشوفها كل يوم علشان المحصول يزيد ..
- مش فاهم .. يعنى إيه المحصول ..
- الحنّه تزيد تبقى حتتين ..
- مراتك حلوة يا صابر ..
- حلوة أوى ..
- وعامل معاها إيه ..
- باشر ب حشيش لما بربشت معانا ولا بيعمل حاجة ..
- ما هو الحشيش يعمل لو كنت .. لكن الحشيش على أكل شحيح ما يعملش حاجة ..
- طب وأنا هاجيب وز وبط منين ..
- مش بتقول مراتك حلوة يمكن التاجر يطمع فيها ..
- على فكرة مرات العمدة مرّة عرضت عليه سعديّة مراتى.
- قالها إيه ..
- اتكسف التاجر وقال هوّ أنا ما عنديش نظر أسيب مرات العمدة وأروح لمرات الغفير ..
- قالت إيه مرات العمدة ..

- أنا ماعنديش مانع ساعات باقى تعبانة ؟ واهى ليها رزق
برضه..
- وبعد كده حصل إيه ..
- مراتى عصيت وقالت مارقدش غير لجوزى ياست ..
- ومرات العمدة اتخرجت منها ..
- قالت لها خلاص خليكى غاوية فقر ..
- والله مراتك دى برافو عليها ..
- هى أصلاً خافت من أبوها مش منى ..
- يعنى إنت مابتخوفهاش ..
- هو أنا شايف حاجة .. هى قالت لي كده ..
- الموضوع عندك مايفرقش ..
- يعنى هو أنا أحسن من العمدة ..
- وانت قلت إيه لمراتك لما حكيت لك الحكاية دى ..
- قللتها بكيفك ياسعدية إنت وضميرك ..
- قالت لك إيه ..
- ماقدرشى أعمل كده أدام مرات العمدة ..

- عرفت بعد كده إنَّها لو عملت كده أَدَّام مرات العمدة بيبقى
هى اتساوت معاها يعنى من الآخر ممكن تيجى فى يوم
مانديهاش ترمسة حشيش ..

- فعلاً .. مراتك فكَّرت صح عشان مانتكسرش عينها أَدَّام
مرات العمدة ..

وشربا ثلاثة أدوار من الشاى وكان طوجنى يستمع ويفكّر وبعد أن
غلب تفكيره قال لصابر :

- بص ياصابر أنا عايز أقابل جعل ..

- طب قولّى هاتعمل إيه ..

- هاتفاهم معاه ..

- إنت كده هاتضرني ..

- أبداً ما هو أنا لازم آخذ حشيش ..

- يانهار إسود ياحضرة الصول .. إنت عايز حشيش ..

- وعشان كده علشان أخلّى البلد ماشية زى ما هى ماشية
يبقى أتقاسم مع العمدة ..

- جعل مش هايرضى وهاتعمل مشكلة ..

- أنا عارف هاتصّرّف إزّاى ..

- أنا خايف أوى ياحضرة الصول ..

- خايف من إيه ..
- علشان قلت لك كلام يقطع رقبتى ..
- ماتخافش يا صابر .. إنت بس عرّفتى السكة علشان أروح له ..
- هو قاعد في دخنيس الجبل ..
- يعنى إيه دخنيس ..
- حتة ضلمه في الجبل بعيدة عن البلد وهناك حرس وغفر وناس ماليها أول من آخر بتحرس بيت جعل ..
- يعنى دا معناه إنه عنده كثير منه ..
- جعل ده معيش البلاد اللي حواليه وخيره على عشرين بلد حوالين الجبل ..
- طيب يعنى أعيش في كافور كرديه مطرطاً ودانى .. أنا مش عايز حاجة أنا عايز حشيش زى العمدة ..
- مش لازم تبقى أد العمدة ..
- عايز نصيبى وخلاص يا صابر ..
- هاتروح إمتى لجعل ..
- اسمع يوم اتنين بالكثير ..
- بس لازم أروح له الأول أعرفه إن الكونستبل عايزك ..

- صح من بكره روح قولُه علشان تعرف نوصله بسلام ..
- خلاص يا حضرة الصول من بكره هاشوف شغلي بس
ماتسنيش ..
- نصيبك محفوظ يا صابر ..

=====

.. بأمر من الكونستبل ترك صابر درجته بعد العشاء وذهب إلى دخنيس الجبل راكباً عربة كارو تقصد قرية بعد دخنيس، نزل عند ممر الجبل العال الموصّل إلى شريط طويل في داخل الرمال والصخور وكان الطريق تمّ اختراقه بواسطة كراكات ضخمة منذ سنين طويلة، ومنذ وقت طويل وجعل معلّم الكيف يُؤجر أكثر من عشرة حُرّاس يقفون تباعاً واحداً بعد الآخر وعلى مسافات بعيدة ويحتفظون في سيّالات جلابيبهم مسدّساً محشواً بالرصاص لضرب أى معتد أو غريب كابس على خن جعل للإضرار به .. وكان صابر معروفاً كغفير لدى الحُرّاس جميعاً .. مرّ بسهولة له حتى وصل إلى الباب الصغير الموصّل إلى دهليز آخر طويل بعده يقعد لينتظر الدخول إلى المعلّم، وكان صابر طول الطريق يصفرّ بلسانه من بين أسنانه من قبيل التسلية وإزاحة أى خوف في قلبه ممّا هو قادم عليه ..

.. كان جعل يضطجع فوق فرشته في غرفة بها ضياء خافت ويرافقه اثنان من الحرس واحد عند راسه وآخر عند قدمه ورجل ثالث هو الذى يقطع الحشيش بسكينه حادة خلف ستارة حتى لا يراه حتى الحارسان الواقفان داخل الغرفة .. وكان جعل يعرف كل غفراء القرية وخاصة صابر لأن زوجة العمدة عندما قدّمت سعدية

قالت له .. دى مرات صابر الغفير .. ابتسم جعل في وجه صابر
بعد أن جلس على حجر في مقابلته :

- فكرتني باسمك ..

- صابر طنش الغفير ..

- بس بس سمعت اسمك قبل كده ..

- فين ياتاج راسى ..

- ولا تاج راسى ولا حاجة أنا كنت غفير زيك ..

- يالهُوى معقوله وسبتها ليه يامعلم ..

- كل الغفرا في عشرين بلد حوالينا أغلب من الغلب ممكن

تلمهم كلهم في شوال قطن وترميهم في جسر أى ترعة
والله ولا سريخ ابن يومه يسأل عنهم ..

- أد كده الغفير غلبان ..

- غلبان والغلب الكبير في الغلبان بيحافظ على الأمن في

بلدنا .. أى واحد فيهم تديهم قرش تعمل فيه اللى إنت
عايزه .. يعنى بقرش ياخده يجرى ويسيب الدرج بتاعه.

- وعشان كده سبت الغفر ..

- شوف الغفير زى مدرس الابتدائى وموظف الجمعية

وتومرجى المستشفى وموظف المجلس القروى .. كل

دول عملتهم البلد الرأق التحتانى للخدمة وكل واحد فيهم

تفتح مخك معاه بقرش أو كوز دره .. سمعت عن
المدرس اللّی بيقول للتلاميذ .. هات قوالح وانتي هات
بتاو وانتي قول لأمك عمى عويس يسلم عليك وعائز
فطيرة و .. و ..

- آه ياعم جعل دانت عارف حاجات كثير ..

- وإيه فائدة أعرف وأسكت ..

- وانتي عارف ولأ ساكت ..

- لّما عرفت كل حاجة في الأمن وتأكدت إن كل واحد
بيضحك على التاني .. عملية الأمن كلّها بكش وضحك
على الدقون .. لو ما اشتغلنش غير عمرى ماكنت
هاشتغل تاجر حشيش ..

- يالهوى ..

- إنت واد غلبان كل ماقولك حاجة تقول يالهوى .. ياواد
خليك راجل ماتعملش زى النسوان على الترعة .. يا
صابر انصح نوبة.. مش أبوك اللّی كان بيلف حوالين
الجزارين في السوق علشان يقشّ حنة عضمة أو حنة
شغنة ..

- أى والله دا أبويا كتر خيريه الله يرحمه ربّانا من مواسير
العضم والشغنة ..

- أيوه فاهم .. فاهم .. اللّی زى أبوك كثير ..

- وأنا واحد منهم ما هو اللي بيشتيل بندقية فاضية وكله اللي
عنده .. كله تمام وهي أصلاً خربانة يبقى كذاب
ومسكين .. وراح المعلم جعل يتأمل صابر اللي من ساعة
ماقعد قصاده مش على بعضه، وأخيراً بعد أن تكلم قال
له جعل :

- وانت عايز إيه يا صابر ..

- عايز رضاك عنى ..

- إزاي ..

- إنت عارف إن جه كونسبل جديد في النقطة ..

- أيوه عارف .. جه منين ..

- من منوف ..

- باين عليه مزقوق على البلد ..

- لأ هو جاب لي من الآخر ..

- إزاي ..

- الراجل ده عايز حشيش منك .. عايز يعيش ..

- هو كل الناس عايزه تعيش مش بياخد مرتب ..

- على فكرة هو عرف حكاية العمدة معاك ..

- عرف من مين ..

- الناس رغبة مابتسبش حد في حاله ..
- اسمع إذا كان يقدر يعمل زى العمدة يجيب مراته .. هي مراته حلوة ..
- مراته ماجتتش معاه ..
- شوف الدنيا معايا ماليش مَره وما فيش مَره تقدر تقعد معايا هنا .. أهو تغيير يبقى عندي اتنين مرات العمدة ومرات الصول .. ما انت عارف كل حاجة ياوس ..
- أقولُه الكلام ده يامعلّم ..
- أبدا أنا بأتريق .. قولُه عايز حشيش بصفتك إيه ..
- هو مفكر إنه بتاع الأمن وعلشان يسبيك في حالك حاجة زى إتاوله كده ..
- دا اللي فهمته ..
- طيب ماتخلصوا منه زى اللي فات ..
- اللي فات ماكانش عايز حشيش كان عايز يعمل أمن بصحيح وعشان كده الناس كلها مشته بالشكاوى والخبص والذنب في المركز ..
- اسمع ياصابر هاته بكره .. المثل بيقول الجمل والجمال .. هاته بكره ياصابر ..
- أجيبه بكره ..

- بس تبقي إديّه خبر ..

- حاضر .. عايز حتّـة يامعلّم ..

هَزّـ جعل رأسه وقال :

- مرانك غلبانة وحلوة خليها تجيلي تعيش معايا ..

- تعيش معاك على طول دى صعبة أوى يامعلّم والناس
هاتشوفها وأنفضح..

- اسمع خليها تجيلي كل أسبوع وأنا هانغنحك ..

- مش هاتعرف تيجي ..

- هاتها لغاية ماتعرف تيجي لوحدها ..

- الموضوع اعتبره منتهى يامعلّم .. صحيح هاتروّقنى ..

- ياواد عيب كلمة شرف ..

- طيب هات حتّه .. علشان حتى أقولها المعلّم بيمسّى
عليك ..

- خد .. جتك الغم يلعن أبو فقرك ..

" وديعة في ساق كل امرأة "

=====

.. حول الخُن الذى يسكنه معلّم الكيف جماعات قريبة وبعيدة تسكن الخيام وأخرى تسكن غرّفاً بنيت من الطين ومن أقراص جِلّة البهائم، يعمل أهلها بصهر الحديد لسكان القرى المتاخمة وبحولوه إلى فتوس ومناقر وشراشر وسكاكين وأوعية (يسمونهم الحّدّادون)، وغيرهم تعمل نساؤهم في ضرب الودع وكشف البخت، أمّا رجالهم فيعملون بالتجارة في البنات والنساء من أهل تلك القرى المحيطة، بتزويجهم أو تسريحهم للقادرين من الناس، وهذه التّباب والأودية من الجبل لا ترى إن كان الليل به قمر أو تضيئه نجومه، إنهم لا ينظرون إلى السماء أبداً وإذا نظروا إليها فكأنهم ينظرون نحو الأرض، ولم يكن في فروع الجبل هنا وهناك من يرتق من حلال غير الحّدّادين الذين يشقون ويعرقون حول النار المنصوبة طول النهار والليل من أجل تدوير وصهر وعمل أدوات تلك القرى، وكان هناك حّدّاد مشهور هو شيخ الحّدّادين معروف بعبارته المعروفة عند القوم جميعاً حين يشخط في زوجته قائلاً :

- انفضى يا عواطف .. أنفضى ..

.. فتخاف المرأة من زعيق رجلها وتضغط على قربة الهواء بكائنا يديها حتى تبوح القربة بكثير من الهواء لتشتعل النار بقوة ولما يفور اللهب عن حاجته يزعق ثانية:

- هدى يخرّب مطنك .. هدى هاترقى الخيمة ..

.. فتسعد لأنها استطاعت عمل ما يريده زوجها غريب أبو زنة ..
وكان أبوه من كبار الغجر في تلك الناحية وكانت نساء الغجر من
أجدادهم تعمل في دق الوشم لأهل القرى الذين يتباركون في الشفاء
من آلام عظامهم، وكان في تلك القرى امرأة غجربة في السن
تدعى جروانة تدق رسماً مغرباً في أعلى (ورك) ساق النساء يغرى
أزواجهن، بل ويجعل رجالهن يرغبون في معاشرتهن طول الليل
والنهار، وكان هذا الوشم يُسمى (الوديعة) أو (الولعة) ولما ماتت
جروانة ورث ابنها جعل هذه الصنعة فكرهه رجال القرى وطاردوه
في الجبل خوفاً على نسائهم، واتفقوا جميعاً على قتله بعد أن علموا
من نسائهم أن جعل ابن جروانة هو الذى يعمل الولعة ورسمها
رسماً شديدة الإغراء قرب فروجهن وليست جروانة هى التي
رسمت ..

.. لزم جعل الجبل ولم يعد إلى القرى ثانية خوفاً على حياته، ونجح
يوماً بعد يوم في بناء خن الدخنيس ليصبح أكبر معلّم للكيف في
المنطقة (الجبل) الذى تحيطه ما يزيد على عشرين قرية، وجعل
معلّم كبير لا يتعامل إلا مع عمدة البلدة، وعمدة كافور الجبل هو
الوحيد من بين العمد الذى سعى أن يتعامل جعل مع زوجته حرصاً
على إبعاد الشبهات عنه، وثمة زمن طويل انقضى على حكايات
الغجر وشيختهم جروانة التي جعلت في زمانها الرجال يعبدون
النساء بذلك الوشم، وكأن كل شيء ينتهى .. لا شيء يظل لكنه
يذهب إلى النسيان، لم يسع جعل إلى الكيف أو حتى أن يتخذ عملاً
له .. وكان الجميع وكل من يعرفه يعاملونه على أنه هارب، ومّرت

الأيام إلى أن أرسل إليه مأمور مركز المدينة القريبة من الجبل،
وظنَّ جعل أنه مقبوض عليه، ولما أدخله العسكرى غرفة المأمور
رفع قبعته وابتسم ابتسامة عريضة وقال له :

- أقعد .. فقعد ..

وكان جعل يتململ في جلسته وينظر مشدوهاً إلى المأمور الذى
فاجأه :

- تشرب إيه ..

- أنا شربت كثير يابيه ..

- لازم تشرب ..

- أنا خايف يابيه .. لا مؤاخذه حضرتك عايزنى في إيه ..
هانتقبض علىّ .. راح المأمور يقهقه بصوت عال وقال
له بعد أن سيطر على طول قهقهته :

- تصدّق بالله . تصدّق بالله .. وسكت ..

فهزّ جعل رأسه ثم قال في توجُّس :

- قول يابيه .. عايز تقبض علىّ .. والله ما عملت حاجة
..

واستطاع المأمور السيطرة على نوبة ضحكته وقال وهو يهمس :

- هاكملك .. إنت وأماك عملتوا أحسن عمل للبلاد دى ..

- إزّأى يابيه .. صحيح ..

- إنت وأمك جروانة خليتوا الناس تعرف تحب .. وتعرف
يعنى إيه تعشق..

- أمى مانت وزى ماكانت بتعمل عملت .. وبعدين جريوا
ورايا وكأنى قتلّت قتيل .. ومن ساعتها وأنا في الجبل
مش لاقى أكل.. طريد من كل الناس وخايف أطلع من
الجحر اللّى أنا فيه .

- اسمع .. قوم اقفل الباب ..

وجلس قبالة المأمور ثانية وقال وهو مندهش :

- يعنى أنا عملت أعمال كويسة .. عملت حاجة للبلاد ..

- هى الفكرة إن الرّجالة خافت على حريمها .. إنت يا جعل
اتكشفت على النسوان في البلد وجيت على أهم حتّه في
الست ورقدت لك واتعّرت علشان تقعد بالساعات ترسم
على وركها الوشم وبعد كده كنت تتابع تجديد وتزويق
الوشم ..

- كانت شغلانة مافيش بعد كده .. أد كده النسوان اتجنّنت
.. وأنا بصراحة كنت هايص يابيه ..

- بصراحة الرّجالة كان ليها حق لما عرفوا أنك عملت كده
وليهم حق يقتلوك ..

- طب كانوا يقتلوا مراتهم ..

- ما هو بعد الوشم الرجالة اتجننت بنسوانها يبقى إزاي يقتلوهم ..
- أنا عملت مشكلة كبيرة وعلشان كده هربت ..
- سيبك من اللي فات .. ليك عندي شغلانة مافيش بعد كده. أيوه يابيه .. ياريت عايز أعيش ..
- خليّك زى ما أنت في الجبل .. وكل مده هابت لك عسكرى بحاجة ..
- إيه الحاجة يابيه ..
- إنت عارف الحشيش ..
- ياما شربته يابيه ..
- الحشيش ده عندنا كتير أوى هابت لك جزء منه مع العسكرى ..
- والحساب يابيه ..
- الحساب لما تبيع .. بعد شهر من وصولك المحصول نتحاسب، والعسكرى هايعرفك عليك بكام .. وتوزّع واعمل الحراسات اللي إنت عايزها وأنا هاحميك من بعيد ..
- يانهار إسود يابيه .. إنت بتكلم جد ..
- تحب تتضرب علشان تصدّق ..

- خلاص يابيه أنا تحت أمرك .. دا إنت بترفعنى أوى ..
هاتخلينى ملك ..

- هاتبقى ملك الجبل من غير تاج وخليك في الخن اللى
إنت عايش فيه ..

- ومن إمتى يابيه الكلام ده ..

- من النهارده بعد أول الليل هاوصلك العسكرى
بالمحصل ..

- أنا في حلم ولا في علم ..

- خلاص ياجعل مش عايز كلام كثير .. خد بالك أى
حركة خيانة منك هاتكون زى شوربة الميّه .. فاهم ..

- فاهم يابيه ..

" صحن طبيخ وحشيش أحسن من فدان "



.. بعد ذلك لم يكن هناك بين الجبل والمدينة إلا الوفاق، وتم إقامة جسر من الأمان والمعاملات بين الجبل واستقرار الأمن، ولم يبق شيء حتى يحاول الناس زراعة فدان واحد من الصحراء طول ما الحشيش موجود والناس عايشة وهايصة، والأمان في كل دار وعشة وخص في البلد، هو إحنا عايزين يافلاحين غير آخر النهار الواحد مننا يلاقى صحن طبيخ وحتة جبنة في مش حنتيل وكل واحد مننا يقول لمراته وهو قاعد جنب الراكية قمرى البتاو يابت .. هي دي العنجرة والعز اللي على الفاضى .. اللي صنعه من زمان الفقر وكسل الناس وشرب الكيف للصبح .. هو الفقر بييجى منين .. طول ما فيه كوباية شاي ثقيل وكرسى حشيش وصحن طبيخ خلاص هي الدنيا كده وفيه أحلى من كده .. ومشيت الدنيا كوبرى الكل بيعدى عليه بين مأمور المركز والناس في الجبل وناس تانية ساكنين العمار في أكثر من عشرين بلد في المركز ..

الكل يجرى ويركن في نقطة واحدة فالأمور على ما يرام طالما وجدت النساء فهن دائرة ارتكاز .. في شأن يشغل المرأة أكثر من الطعام وطهيه وإعداده للرجل، والنوم كثيرًا من وقت النهار، وآه لو اجتمعت مجموعة من النساء فخد سوقًا من الثرثرة والتفاهات، يتخاصمن، ويتصالحن من أجل رجل ويسهرن طول الليل في

انتظاره فإذا جاء إليها هَلَّتْ وزغربت دون إفصاح، العتاب والنقار
عندها مزاج وهذا اعتقادهن للحفاظ على الرجل ..

.. ومَرَّت أيام والقرية كلها تجتمع على رجل واحد وامرأة واحدة
كأى قرية، عند الساقية وعند شاطئ بحر الصيادين وفي قعر كل
دكان وفي سوق البلاد وكفورها وكلها حكايات في دهاليز وأودية
بين الجبال تُرعى الأغنام وتحمل الحمير وهى عائدة أى عيدان
خضراء لتأكل الأرناب، وبين كل هذا وذاك يصفّر الكيف في أذن
كل إنس بل وكل جن يسكن في مجاهل البلاد، وعيون جائعة إذا
مارّست حبة الترمس فوق الحجر وسحبت من فوهة بوص الجوزة
شبعَت ونامت ورقدت حتى صباح آخر يجوعُ مرّة أخرى ..

.. والذي لا يعلمه طوجنى رئيس النقطة أن جعل قد أرسل أحد
حُرّاسه في أول مجيئه إلى النقطة ليلتقط معلومات عن الوصول
الجديد، فظل جعبرى يومين في البلدة يتجول في دكاكينها وقعداتِها
وأسواقها ليسأل الناس عنه، وفي كل صباح يتلصّص على الغفر
وهم يدخلون السلاحليك ليسلموا سلاحهم للوصول طوجنى، وقبل
المغرب كان يقف جعبرى عند سور النقطة ليرى رئيس النقطة
وهو يرصّهم في طابور ويوصيهم باليقظة والحفاظ على أمن البلد
ويزعق فيهم قائلاً بين لحظة وأخرى :

- كنفان سلاح ..

- ازعق وقول .. مين هناك ..

- وكل واحد منكم يَدَى التمام بصوت عال .. كُلُّهُ تمام
ياطاجن .. حتى أسمع زعيقكم بالتمام وأنا قاعد هنا في
النقطة ..

- وأنت ياواد يافوزى .. اتعدل كده ولم رجلك .. إنت
مفسوك كده ليه ياواد إنت .. جتك لهو .. شد أعصابك..
وعندما ذهب جعبرى للمعلم جعل في الجبل يخبره عن
رئيس النقطة قال :

- يامعلم هو راجل بكرش وباين عليه هليهلى ..

- هو حد يقول على نفسه طاجن .. يمكن عشان اسمه
طوجنى ..

- الناس بتقول عليه مكشّر وباين عليه غلبان في حاله ..

.. جعبرى لم يأت بجديد هو كُلُّهُ كلام عبيط .. المعلم جعل عايز
يعرف حاجة واحدة هو زى الصول اللّى فات عايز يعرف سر
الجبل وعايز يتفاهم ولا عايز إيه بالضبط .. إلى أن جاء يوم وهو
يفكر في تطويق هذا الصول وعلشان المثل بيقول اعرف ديتة إيه
.. جاءه صابر همزة الوصل الغفير اللّى عايز يتفاهم وعايز يعيش
ويبرش حياته حتى ولو عملت مراته زى مرات العمدة ..

جاءه صابر هالعا في أول الليل ليخبره :

- الصول داوشنى عايز يجيك يتعرف بيك يامعلم ..

- وماله هاته ..

- ميته أجيبه ..
- روح هاته دلوقتي لو تقدر ..
- أقدر أوى ..
- .. أمر جعل طبّاخ الخن بتجهيز عشاء ثقيل لثلاثة .. مزاج الطّبّاخ أنسى الجحش يجهّز على النار هذا العشاء وأبو المشاريب شاي وجوزة قورنى شلاطة يجهّز عدة الشاي ويغسل الجوزة ويغيّر ماءها وسأل معلّمه بعد أن انتهى من توضيب أدواته قُرب جلسة المعلّم :
- غموس ..
- طبعًا لازم نسطله بعد الأكل ..
- مش تعمل حساب يامعلم .. دا برضه رئيس النقطة ..
بلاش عيني عينك كده ..
- لأن ماتخافش أنا هاجيب معاه للآخر وبعدين إذا عمل أى بنط نص كم هاوصّى المأمور عليه ..
- بس المأمور دا بتاع مركز ثانى ..
- ماتخافش ياجحش ..
- .. دخل صابر مهرولاً إلى خن المعلّم متهدّج الأنفاس وينبّه :
- الصول بّره .. بّره يامعلم ..
- اهدى ياواد شوية .. روح هاته .. هاته ياصابر ..

.. كان الصول يريد أن يقدّم ويظهر بروح راجل عادى عايز
 يصاحب ويتفاهم .. دخل طوجنى يفرد ذراعيه ليحتضن المعلم الذى
 فرد له ذراعيه .. وهات ياحضن وبوس وكان طوجنى يبوس وكأنه
 يلمع بوسات الجمل عندما يقبل الناقة .. اندهش المعلم وجاراه فى
 حرارته فتهدجت أنفاسهما من المقابلة الملتهبة الشديدة .. جلس
 طوجنى والمعلم يقول له حتى بعد أن جلس :

- انتفضل .. انتفضل .. يامرحبه .. إحنا زارتنا بلد كلها
 طيبين وحلوين النهارده ..
- ربنا يخليك .. ربنا يخليك .. دا كثير على .. إنت علم
 يامعلم جعل ..
- وإزاي عرفت كده وأنت لسه يدوبك ..
- سيرتك قبل ما جى هنا أد الدنيا في المراكز دى كلها ..
- ياسيدى دا من فضلك .. أهلا بيك ..
- إنت منين ..
- من هنا ..
- وانت منين ..
- من السرو ..
- السرو ..
- أيوه السرو هيل ..

- دی فین دی ..
- فی الخط الّلی بین تلوانه وسرس ..
- دول ناس طیبین .. بس أنا عرفت أنّک جای من منوف.
- آی والله کانت آیام ..
- وفیه حد یسیب منوف ویجی المجاهل دی ..
- أنا کنت فی المباحث والله کنت هایص یامعلّم ..
- وهنا عامل إیه ..
- تصدّق أنا حتی ماشریت کرسی زی الناس من یوم
ماجیت ..
- یانهار مشوم إزّای دا عیب علینا یاحضرة الصول ..
- أبداً والله دا إنت باین علیک أد الدنیا ..
- تحت أمّرك یاعم طوجنی .. إنت کنت عامل إیه فی
المباحث ..
- کنت ملک ..
- ودلوقتی ..
- جربوع .. ما انت عارف المرتب عشرة جنیه ..
- إنت کده اتظلمت .. طیب یاحضرة الصول قول لی عایز
إیه.. ناقصک إیه ..

- أبداً أنا عايز أعيش .. الدنيا تمشى معايا زى ماكانت في منوف..
- شوف إنت عاجبنى لأنك جاى تتفاهم وجبت من الآخر ..
يعنى كان دخلك إيه بعد المرتب ..
- مش أقل من ثلاثين جنيه في الشهر ..
- دى بسيطة .. إنت عايز فلوس ولا حتة ..
- إدينى حتة اتصرف فيها علشان مراتى كمان بتحب تروق الأنارى ..
- مراتك معاك ..
- لأ في منوف ..
- ماتجيبها هنا تتور كافور ..
- أصل معاها أخوها في المدرسة وماتقدرش تسيبه ..
- فيه هنا مدارس ..
- هو في مدرسة ثانوى ومافيش هنا ثانوى ..
- الغدا جاهز ..
- ليه تاعب نفسك يامعلم ..
- دى حاجة من فضلة خيرك ..

.. وتتاولا العشاء .. بط وفراخ وفته وملوخية .. أكل طوجنى
وغذى كرشه الناشف من يوم ماجه البلاد دى .. وبعد أن انتهى من
طعامه وغسل يديه انحنى فوق المعلم وقبله .. وجلس مبسوطاً
يدعك كفاً بالآخر، تركه المعلم ودخل ولما أقبل ثانية قال له :

- فيه شأى وفيه كرسى كده حلو على أد مقامك ..
- هوّ فيه كرم أكثر من كده .. ماخذ حقّى ناشف وامشى ..
وراح يقهقه .. قهقهه معه جعل وقال ..
- تحت أمرك ناشف ومغمّس ..

.. كان المعلم جعل جدع طول عمره، يحب يبسط الناس وكله ياكل
ويعيش مايحبش ياكل لوحده، وطول مالخير كثير وواصل بيقى ليه
ماكله يتبسط .. وبعد أن انتهى واجب الضيافة ومّر وقت طويل قال
طوجنى :

- طب أستاذن بقى يامعلم وقول لي إنت عايز إيه من
الأمّن.
- على فكرة ورايا المركز ومأمور المركز معايا من زمان
والراجل من سنين طويلة وبينى وبينه كل العسل ..
- دى حاجة تشرّفنا إن إنت في أمان وتبات ولكن إحنا
برضه في الخدمة وتحت أمر المجدعه ..
- والله أبداً كله عندى تمام .. المهم دلوقتى إنت عايز إيه
وأنا أريحك ..

- أبداً خَلِيَّهَا كل شهر رَوْقُ الأنارى معايا بس علشان الدنيا
تمشى..

- خلاص يابيه .. صابر هايكون الوصله معاك .. كل
شهر هابعت لك المعلوم ..

- إنت كده هاتخلينى بيه كبير ..

- ودا أقل مقام ليك ..

.. وعبطه الصول طويلاً وهات يابوس وانتهى اللقاء الحميم وتقدم
صابر الغفير الصول ليكشف له الطريق للخروج من خن دخنيس
حتى وش الجبل ..

" الحشيش ينقذ الناس من فقرهم "

=====

.. كان كل الناس الذين يعملون في مجال الكيف يحيطون بعضهم بعضًا بكثير من التفاهم والود، وكانت فوائد الحشيش تغرق جميع من في هذه القرية، وهى العباءة الكبيرة التي تدفأ ليف كبير من الناس تحتها، جعل طريد القرية أصبح معلّم الكيف والمأمور يحافظ على نشاطه وبقائه فمن قلب عمله استطاع رئيس نقطة المركز أن يستصلح قطعة كبيرة من الرمال أول طريق بلده وأن يزرعها فاكهة ومنها يعيش ويصرف على أبنائه وأهله، ومن الكيف يتمتع عمدة كافور هو وزوجته، أوجد لزوجته عملاً مع المعلم وتوسعت حياته بالعلاقات مع المأمور وضباط الأمن حوله وأصبح لحياته كيان طالما أن جيوبه تمتلئ بالسيولة، وغفر النقطة كثير منهم وجد لحياته سبيلاً والباقي منهم يبحث عن أى صلة بالكيف لينعش شيئاً من حياته المعيشية، ولا يوجد صياد يعيش عند شاطئ البحر مع زوجته وعياله ويهنأ بها بدون تعميرة حشيش وإذا كانت الجوزة حاف لعن كرسى المعسل الذى يشربه ولا م جميع من حوله .. وتجار المعيز والحمير وهم أفقر تجار السوق إذا لم يجرش الواحد منهم سنة الحشيش بين أسنانه ويرص كرسى قبل أن يعمر السوق بالبيع والشراء لما استطاع أن يعمل بمزاج ولا أن يربح، حتى النساء في كل بيوت القرية تقاس شطارتها ويكون لها سطوة بين النساء إذا حصلت في يوم على سنة كيف وجمعت بعض النساء حولها وشربن كرسى مغمس في داخل الدار بعيداً عن العيون،

الحشيش يجمع ويفرّق وكم تمنى كل رجال الدين والصالحون في القرية أن يجمعهم شيء آخر، لكنهم كانوا يضربون كفاً بالأخرى لأنه لا شيء يجمع الناس إلا لقمة أو سبوبة يحصل منها على بتاوة أو رغيف عيش فلم يجد الناس إلا الكيف فمне يحصلون على المال ومنه أيضاً يحصلون على المزاج وبالتالي تسعد نساؤهم وتفرح بيوتهم حتى أن كيزان الألمنيوم تضرب في طشوت الاستحمام مهلّة فرحة لأن المرأة تحمّي زوجها وقد شبت مزاجاً وروقت أناريها، كل هذا البشر يبحث عن اللقمة والحنة والغموس ونفس رايق وكوباية شاي تحبس طبق الملوخية أو حتى حنة الجبنة ..

كان كثير من أهل القرية أيضاً يبحثون عن مخرج لإسعاد الناس بشيء آخر وكانوا يقولون في مجالسهم التي تنتشر في قرية الكافور:

- لازم من ضرب الجبل .. لكن إزاي .. دا عايز كراكات وآلات وحرّات ..

- عايزين فلوس كثير يمكن تكون بعدد حصا الجبل علشان نفجّر الجبل ..

الرمل والصخر والتراب الأصفر بنى بيّه عماير وبيوت ونعمل سكك جديدة ..

- مش كده وبس ونغيّر البلاد ونعمل بلد جديدة ..

- والله نعمل بلاد جديدة ماليا عدد ..

- لكن نجيب فلوس منين علشان نهد الجبل ..

- بإيد الرجال والنساء بالسكاكين والفئوس والشراشر بكل أنواع الحديد ندخل على الجبل دخلة رجل واحد .. بس دا هياخد وقت طويل، جيل وراء جيل يموت وفين وفين لَمَّا يبقى الجبل أرض زى أرض البلد ..

- طول ما الجبل واقف طول ما الفقر شغال .. هوّ فيه في بلادنا إيه .. مافيش حد بينتج حاجة جديدة، مدارس ومدرسين ومركز وعساكر ونقطة وغفر أغبي من الدابة وموظفين في المجلس المحلى وتومرجية في المستشفى لابسين أبيض ومستشفى مافيهاش سرير واحد لعيان والدوا كله إسبرين وزرنيخ حديد..

- طول ما الوضع كده ومافيش غير بتوع الحشيش الفقر مش هاسيب البلد..

- الفقر هوّ اللّى جاب الحشيش والحشيش هوّ اللّى بيقتضى علينا، الحمد لله البلد كلها عيانة وبتكح والخبص واللّى والعجن والنصب والسرقة شغالة للصبح، من أول الليل لغاية الصبح كله شغال في النيلة ولا فيش كوز دره واحد بيزيد في البلد ..

- ناس قاعده نايمة طول النهار والليل بتحكى وناس على
المعاش كل اللّى بيعمله في حياته بيروح يقبض المعاش
ويديّه لمراته ويقولها على كل حاجة .. حاسبى ..
حاسبى على الجبنة وعلى بيض الفراخ .. حتّى القوالح
ماتولعيش كل يوم قوالح القوالح غالية في السوق روى
بيعيها وجيبى كيلو طماطم، فتقول له زوجة صاحب
المعاش .. إنت عقّدتى بقى كل حاجة حاسبى ياراجل
شوف شغلانة تانية حسنّ المعاش علينا الدنيا كل مدى
بتضيق .. وكثير من أصحاب المعاش والمدرسين اللّى
بتشحت من التلاميذ والتومرجية اللّى بتدّى حقن في
البيوت وبتتكشف على النسوان، دا غير موظفين المجلس
المحلى اللّى بيروحوا يقعدوا كومة على مكتب واحد
وقاعدين اللّى يقولوه يعيدوه ولا شغلة ولا مشغلة غير
الخبص والنميمة ونف البرابير، وعساكر النقطة اللّى
بيسلبطوا في السوق مرّة على بتاعة الفجل ومرّة على
بتاعة البريس .. إيه ده هوّ دا مجتمع كله بيتسكج على
بعضه واللّى يطول حاجة ياخذها، ياحسرتى دا كله عيب
.. الحال كده لا يسر حبيب ولا يكيد عدو ..

- أقسم بالله إحنا أعداء أنفسنا، إحنا جعّارين وكلمنجية وكل
حاجة فينا عالية وجعجعة على الفاضى ياريت بنضحك
على المليون .. كل شئ في البلد فاضى وضايع وإحنا
كلّنا اللّى عملنا كده .. طول مافيه طرنبيدة ونشيد وتحيا

عبدالرؤوف الزلبانى وكنتفان سلاح وسلام سلاح والبندقية
فاضية ومصديّة والغفير والعسكرى يبطلع من بيته
ومراته بتقول عايزين دقيق وسمنة وحتة لحمة البيت
مكنوس مافيهش حاجة نعملها، وطول ما العسكرى جعان
وراح يقف في درجه بيمد يده لغيره أو إذا إيده طالّت
أى حاجة تاخدها .. نقولى الراجل الجعان ده اللّى بيته
فاضى هايعمل أمن.. إذا كان هوّ مش عايش في أى
أمان حتّى ولو ساعة واحدة بكرة، هيّ الناس بتغنى على
بعض ولا بتضحك على بعض .. ولاّ الناس بتعمل إيّه
بالضبط .. إذا كان العسكرى والغفير بالحال ده وهمّ أفقر
ناس في البلد بيبقى مافيش أمن ولا أمان، الغفير
والعسكرى بيحط إيده في إيد الحرامى علشان ياخذ منه
سنة عيش ياكلها ويدارى على بتاع الحشيش علشان ياخذ
منه قرش أو سنة حشيش ..

- والعمل إيّه إذا كان المدرس بيشحت من التلميذ شوية
قوالح أو كبشة دقيق..

- بقول إيّه ياناس .. هوّ دا الفقر .. الفقر بياكل بعضه
ونازلين على تحت..

- العسكرى اللّى مسك بلدنا خلّا الفقير في البلد ثلاث
راقات .. الناس اللّى تحت وناس تحتهم وناس مبربشه
معاهم شوية يقولوا عليهم الناس اللّى فوق اللّى تحت ..

- كله تحت على تحت وعلشان كده لازم تتفجر على الفقر
ولا يمكن نقدر عليه إلا إذا إحنا فجّرنا الجبل .. الجبل ده
هو الفقر ..

.. سعد الطوجنى بعد لقاء المعلم جعل وكان يريد أن يسافر إلى
منوف ليرى زوجته، ولكن الذى جعله يؤجل السفر إن جيبه
مافيهش فلوس، لازم ينتظر القبض ويأخذ لمراته حتة حشيش ..
يومين وييجى القبض لكن لازم حتة حشيش، مضى أربعة أيام ولم
يجد طوجنى مخرجًا غير أن يرسل صابر إلى المعلم ليأتى له
بغبارة من الحشيش حتى يسعد زوجته، ذهب صابر وأعطاه المعلم
حته مش بطاله أد أسنيكة التلاميذ وقال له :

- قول للصول عيينا ..

.. وفى صباح يوم السفر أعلن الصول للغفر وهم يسلمون السلاح
له فى غرفة السلاحليك أنه مسافر ليومين وأنه قدعّين صابر رئيسًا
لهم حتى يعود، وبعد عصر يوم السفر حمل طوجنى حقيبته ومعه
صابر الذى حلف بأن يحملها هو حتى وصلا إلى بر البحر والذى
منه تحمله المركب الكبيرة إلى البر التانى ..

.. لم تكن هناك قوارب صغيرة تعدّى الناس، ولكن فى هذا البحر
الصغير توجد مركبة كبيرة تسمى المعديّة تحمل الناس والحيوانات
وعربات النقل والملاكى والكارو من بر كافور إلى برطاليانا وهى
قرية تتبع مركز آخر من مراكز الدلتا .. هذا البحر من يوم ما خلق
الله البرين وهو لا يجار أبدًا فهو بحر يتنفس فقط، هو بحر بلا موج

مثل حال أى ترعة كبيرة، وكان الناس والعربات والحيوانات تنتظر أكثر من نصف ساعة حتى تعود المعدية من البر الآخر، وكان الأهلى فى القريتين يتساعلون لماذا لا يكون هناك كوبرى ويردئون على بعضهم فى نهاية جدالهم أن المجعل الخاص بالكوبرى يتم لهفه من المسئولين فى بنود أخرى من الصرف نثرىات، ومصروفات غير منتظره ..

" الصول طوجني يغرق في البحر "

=====

.. أصّر صابر رئيس الغفر على توصيل رئيسه حتى الشاطئ الآخر، وكان صابر هذا يقولون عنه في البلد (النخاعة ولد) كان فلاح جدع وشجاع إذا تشاجر أحد من أهله مع شخص آخر أسهل شيء عنده أن يدخل الدار ويحمل شمروخه ليأتي إلى الخناقة ويهوّش به محاولاً تخويف الجانب الآخر وفي مرة دق كتف واحد في خناقة بشمروخه فأطلقوا عليه النخاعة ولد .. يعني شجاع أمّا النخاعة فهي دلالة على رقبته الطويلة والتي تحمل رأساً كبيرة تحتها وجه نحيل وأنف مبرطش لا يتناسب مع نحالة وجهه ولكن الذي يثير الضحك تلك الأذنان المطرطأتان كأنها سماعات راديو وضعت في مقدمة أذنيه .. طلعت عليه النخاعة ولد بعدها التحق بسلك الغفر وكان مقداماً في هذا السلك الأمني فهو خدوم وفَعّال وكلمنجي قبل أن يكون رجل أمن ..

.. وقف الصول وبجانبه صابر في مقدمة المعديّة .. وقف الصول مع الحيوانات بجوار أول صف ناس وشده صابر ليكون وسط الناس لكنه أصّر أن يقف في أول صف مع البغال والحمير وكان يقف خلفه فرس عجوز يركبه ولد صغير أهبل هو ابن أشهر عربجي في كافور، حتى أن فم الفرس كانت تقترب من كاسكة الصول التي يرتديها فوق رأسه، ولما تحرّكت المعديّة وعادت في وسط البحر كان كل من في المعديّة يعلى بصوته .. حمير تنهّق

وكلاب تعوى وجاموس ينعر ومعيز تماماً والفرس العجوز يمهمه
وكأنه ينفر فيعلو صوت كلاكسات عربات النقل والملاكي وكأنها
جميعاً تستعجل سائق المعدية أن يصل إلى الشاطئ الآخر بأقصى
سرعة .. ولأن الولد أهبل كان يتعجل صاحب المعدية بأن يسرع
فكان يضرب بطن الفرس برجليه وكأنه يتعجل بهيمه بأن يصل إلى
البر الثاني قبل المعدية، ولم يدر وانهمك في ضرب الفرس في
بطنه فهزّ الفرس رأسه وقزح في عرض البحر بالأهبل وأخذ معه
الصول، كان الصول وكأنه الشيء الوحيد الجاف الذي تمسك به
قدمي الفرس وبطنه وتمسك الفرس بجسد الصول وتكور فوقه،
وعلا صوت الناس وصوت النساء وصرخت وجار الرجال
وزارت الحيوانات وصفرت المركبات .. هوجة وصراخ وصوات
وأصوات رجال .. : دقيقة واحدة كان الفرس فوق سطح الماء ومن
تحته الصول يدفعه عنه بعد لحظات من الدقيقة لم يكن للفرس ولا
للرجل الذي تحته أثر فوق الماء وغطس الاثنان، وصابر يجار
بأعلى صوته "الصول" الصول فين ياجدعان، ورغم أن ابن
العرجي الذي كان يمتطي ظهر فرسه كثير العبط والهبل إلا أنه
أنقذ نفسه وقزح بعيداً فوق سطح الماء وراح يعوم نحو الشاطئ
الآخر .. وقزح بعض الرجال من الشباب يغطسون قرب اللذان
ابتلعهما البحر .. كانوا يغطسون ثم يظهرون فوق سطح الماء
محاولين إنقاذ الرجل من تحت بطن الفرس ولكن يبدو أن أحداً منهم
لم يعثر على شيء وسبح الجميع نحو الشاطئ الآخر أو تعلق في
خشب المعدية، وراح ينطلق صوات النساء على البرين والجميع

حزاني ييكون على غرق الصول تحت أقدام الفرس، وبدأ أولاد
المعدية في إعداد محاولة لجر الصول من عمق البحر فربطوا
جنزيراً طويلاً في وتد كبير بالشاطئ وفي طرف الجنزير خطاف
من الجنزير، وغطس واحد منهم ومعه طرف الجنزير يبحث تحت
الماء عن الرجل، يغطس في ناحية ثم يظهر في ناحية أخرى فوق
الماء حتى وجد الرجل يعوم وسط الماء جثة هامة فأحكم شبك
الخطاف في حزام وسطه العريض وظهر هناك عند الشاطئ وهو
يعلو بصوته :

- لقيته .. لقيته .. شد الجنزير .. شد الجنزير .. بالراحة
.. علشان مايفلش ..

وراح رجلان في معلمة يجرون الجنزير الثقيل والذي يحمل في
نهايته جثة الرجل، وصابر يلطم وجهه ويضع حقيبة الصول أمامه
والناس يواسونه في ألم شديد :

- معلش يا صابر .. كان راجل طيب مش كده ..
- أطيب راجل جه البلد .. دا لسه نازل أول أجازة ..
- هو فين .. متجوز .. له ولاد ..
- من منوف .. متجوز .. مالوش ولاد ..
- أحسن يعنى الولاد عملت إيه لأهلها ..
- ياناس حرام عليكم بكفاية كلام .. سيبونى في غمى ..

- ياشوم مراته عليه ..

- الأمر لله .. عُمره .. جه هنا عشان يموت في بحرنا ..

حملوه إلى ظهر عربة كارو بعد أن غطوه بشرشف واتجهوا به نحو أقرب جامع في قرية طاليانا ووضعوه في خشبة الغسل .. تجمع الناس من أهل القرى ودخلوا المسجد وراح المغسل يغسل الصول في غرفة صغيرة قرب دورة المياه، وكان صابر قد فتح حقيبته فوجد فيها محفظه بها ثلاثة عشر جنيهاً وحمد صابر الله على أن الصول احتفظ بالفلوس في حقيبته وليس في جيبه، صلى كل من في الجامع صلاة المغرب بعدها صلوا صلاة الجنازة على طوجنى شروة حسن الجخر، إلا أن المصلين لم يسمعوا صابر حين قال لهم قبل الصلاة عليه .. إنه لن يدفن الآن .. إنه من بلد أخرى .. إلا أنهم صلوا عليه بعدها حمله صابر مع الناس إلى عربة نصف نقل وغطوه بملاءة أخرى، وراحت العربة تخرق الطرق إلى مدينة منوف ولما وصلت المركبة إلى مشارف المدينة كان صابر قد قلب في كل أوراق المحفظة بما فيها البطاقة حتى يقصد عنوان بيت الطوجنى في شارع المحكمة القديمة ..

.. راحت تبكى بكاءً حاراً لما فوجئت بالصاعقة تنزل فوق رأسها بموت زوجها الذى غابرها منذ شهر إلى عمله الجديد، وكان قد تجمع كثير من أهل الشارع وسكان البيت حولها وحول العربة وراحوا يعزونها ويأخذون بخاطرهما في البيت بعد أن أصرت أن

يحملوا زوجها إلى البيت لبعض الوقت حتى يخرج من بيته ويودّعه، واستطاع أحد الجيران أن يؤجر عربة لنقل الموتى، وكان صابر قد أعطاهما حقيبة زوجها ونقدها باقى النقديّة التي وجدها في حافظته بعد أن دفع أجره الكفن والعربة، بعدها صافحها صابر وقدم لها العزاء وانصرف عائداً إلى بلدته، وكان على منى أن تبلغ أهله بالقرية فتطوّع أحد الجيران وأخذ رقم هاتف عمدة القرية وذهب إلى سنترال منوف ليبلغ بيت العمدة بوفاة طوجنى شروة حسن الجخر ..

قفلت بيتها بعد أن ارتدت ملابس سوداء وكان يرافقها امرأة طيبة ساعدتها في إحكام قفل نوافذ شقتها وباب بيتها وحملت لها حقيبة ملابسها وأصرّت أن تكون معها حتى تصل بزوجها إلى قريتهما .. وكان كثير من أهل طوجنى ينتظرون عند أول مسجد في القرية قرب المقابر، صلوا عليه ثانية صلاة الجنازة ثم حملوه في نعشه ومشوا به نحو المدافن، وكان يسير خلف الرجال جمع من نساء أهل طوجنى موشحات بالسواد وكانت إحدى قريباته تصرخ .. يا حبيبى يا خويا .. ماشفتكش من زمان يا حبيبى، وتزعق زوجته اة، يا جملى .. أروح فين من بعدك سبتتى بدرى .. يهون عليك تسبينى وحدى .. فترد عليها امرأة ثالثة وتصوت صارخة فيعلو النساء بالبكاء والعويل .. وتم دفنه واكتفى أهله بتشييع الجنازة، وعادت منى وأختها وأقاربه من النساء إلى بيت طوجنى الذى تم فتحه وتنظيفه لاستقبال المعزّين فور وصول الخبر ..

مكثت منى ثلاثة أيام حتى انتهى العزاء كعادة أهل القرية، عادت بعدها وحدها إلى بيتها في منوف وحيدة حزينة مكلومة على موت زوجها والذي خطفه الموت منها بغتة، وكان حسن تلميذ المدرسة الثانوية قد انتهى من امتحانه بالصف الأول وأصر أن يذهب إلى أمه وأبيه في قريته ثم يعود إليها بعد أن يقضى أسبوعاً هناك.. وكان قد بقى على عودة حسن يوم واحد حتى يترك بلدته ويعود إليها كما اتفق معها .. لكنَّ حسن لم يعد في اليوم المتفق عليه، ومَرَّ يومان آخران ولم يأتها فخافت أن يتركها وحيدة بعد أن رحل زوجها أبداً، لم يكن هناك هاتف في بيت حسن حتى تهاتفه إلا أنها راحت تبكى بصوت عال وتقول .. يا خراب بيتك يا منى.. يا خراب بيتي ..، لم يعد لها في الدنيا إلا حسن، واندلشت في نوم ثقيل على الكنبه بالصالة وكأن حمى تحط في رأسها، نامت كثيراً حتى قُرب المغرب. .. وسمعت طرَقاً بالباب وكأنها في حلم والنوم يغلبها، كانت تشعر قبل أن تنام أن حيطان البيت مستغرقة في تفكيرها الحزين تشاركها وحدتها الأليمة، ولَمَّا طرق الباب بقوة تنبهت أنه يقظة وليس حلمًا، فطفقت وروحها تتعلق بالقادم ..
يا الهى يارب يكون حسن :

- مين .. مين ..

- حسن .. حسن ..

" العشق بيطلع الحزن من حياتي "

=====

- يا حبيبى ياروح قلبى، وانفجرت تبكى وهرولت إلى بابها
وقبل أن تصله وقعت قربته ثم نهضت واندفعت إلى
الشراعة وفتحتها إنها مشتاقة لأن ترى وجهه البديع قبل
أن تفتح الباب على مصراعيه، ولما أقبل وجهه وبلغته
بأم عينها شددت الباب بقوة وشدته إلى وجهها وجسدها
تحتضنه وتدخل به وهى تكاد تحمله وكان يمسك بكتفيها
راجيا أن تتركه حتى يستطيع أن يقف ولكن المسكينة
كانت منهرة لا تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول .. كانت
تتعلم كلماتها بين شفثيها فزرق بعد أن أمسكها بكتفا
يديه:

- فيه إيه .. لابسه إسود .. لابسه إسود ليه .. قولى ..

- طوجنى .. طوجنى .. طوجنى مات ..

- يانهار إسود .. يانهار إسود .. إزاي .. إزاي مات ..
من ميتة مات ..

- أقعد يا حسن .. أقعد يا حسن وخدنى في حضنك .. خدنى
في حضنك يا حسن .. خدنى وسيبنى أعيط .. عايزة
أشبع وأنا في حضنك ..

.. كان كل شيء حولها مستغرقاً في الحزن في مهابة وكأن كل قطعة جماد في البيت تقول في خشوع إن الله حق، وظلال ملابسها السوداء وهو يأخذها في حضنه قد استقرت كنقطة ثابتة لا تتحرك في عينيها، وكم كان قلبها يخفق فيضع أصابعه على خفقاته في رفق، ولم يكن أحد يستطيع أن يوقف حركة الحزن الساكن الجامد بينهما ولو كان كل الناس في المدينة في رأى من كيف لامرأة مثلها تتكور في حجر حسن راجية منه أن يحضنها أبداً وأن يلتصق بها ما بقيت على الحياة لبكى هؤلاء الناس جميعاً حتى بيوضه الأهل وبائعة الفجل التي تسرح ابنها للتلاميذ، وبكى تاجر أكبر محل بائع قماش (محلات بصل) وترك الجنيهاً التي يعدّها بين أصابعه، يسكن كل ما في المدينة من حركة حياة حتى أن كل حناطير المحطة قد توقفت عن دخول أحياء المدينة من خشية وخضوع لحظات سكون الحزن في قلب أصغر عاشق للمدينة نحو محبوبته ولسقطت كل أوراق الشجر الخضراء التي تصطف فوق رصيف البلدة في عز الشتاء مهابة لحزن الموت، سكنت كل أضواء الشوارع حولهما حتى تنتصت على خفقات القلبين الحزينين على موت رجل منحهما شهادة عشق علنية متحدّياً بها عالم المدينة الذي يدعى الشرف الظاهر الكاذب وهم من أعماقهم بائع الفجور والفسوق .. الرجل الذي أعلن عن عجزه علناً ليمنح لزوجته شهادة الحرية التي ارتكبت كل فواحش العلن الساكن تحت سقف بيته، إنه رجل لن يتكرر في كل أنحاء بلدته ومديريته وقد يكون هناك مثله ولكن بغض الطرف، فليس هناك رجل يمنح زوجته شهادة حرية

العشق علناً أمام عينيهِ، هل أراد الله أن يوقظ دعوة الطهارة بموته، وكان صابر قد حكى لزوجته كيف مات غريقاً من فوق معدية كافور بعد أن ركبهُ فرس ابن العرجى وغطس به في بحر قرى الفقراء قرب شاطئ بلدة طاليانا .. هل ينتظر ربى أن يفيق الناس من داخلهم وعندما لا يفيقون يأخذهم بقدرته غرقى أو حرقى أو قتلى .. لا أحد يعرف ما بين حسن ومنى من أهل المدينة غير طوجنى .. ستر الله عليهما كثيراً ولم يفضحهما وتركتهما المدينة دون أن تشعر بشيء وهكذا كان حال هذه المدينة وقد يكون حال كل مدينة عندما ينشغل كل واحد بحاله ولا يبق حاكماً غير أخلاق الأهلين في كل قرية ومدينة، ومُرت أيام والحزينة مع شريكها لا يخرجان من بيتهما الصغير، وكانت لا تفيق من أحزانها إلاً بلقائه، ولا أعرف أى معنى للحزن إذا كانت منى في أول ليلة يأتيها رغم ذلك المشهد الحزين والمستمر بينهما وبكائها وكلماتها الحزينة على زوجها تقول لحسن وهى في عز ما يكتفها من حزن ودموع ونحيب :

- خدنى يا حسن .. أريدك ..
- كيف وأنت في كل هذا الحزن .. أهنأك بال يامنى لألقاك ..
- هذا عز اللقاء إن لم تأخذنى من حزنى فإن رأسى ستفجر ..
- ألا تحزن على هذا الرجل ولو قليلاً ..

- وهل هناك مانع أن ألقاك مع حزنى .. أليس في ذلك
رحمة .. أليس لنا قبل أن نموت أن نلتقى ونحن حزانى
حتى ولو كانت أحزاننا أشد الأحزان .. أليس في شدة
أحزاننا أن تأتينا رحمة تأخذنا من طيش أحزاننا قبل أن
نموت ..

- لم أعد أفهم شيئاً ..

- هل تريد أن أقول لك أى كلمة أو أفعل لك فعلاً حتى
تحملنى من ما أنا فيه ..

- أى نوع من الأحزان فيك .. ولماذا دموعك إذاً، وأى
معنى لدموع امرأة مثلك .. أدموعك تجمع من الحزن
كأساً ومن المزاج كأسين فيغلب كأسين كأساً ..

- أنا امرأة خلقت من نهر عاشق صنعت من دموع النساء
العاشقات في كل الأرض حولنا .. جرفت الأمواج كل
مياه البحر إلى آبار عميقة من عشق صنعت دموع النساء
الفاجرات والعاشقات وسكارى المزاج واللقاء .. هل
تعرف لماذا تحب النساء تدخين الحشيش ..

- العالم رؤوف بنفسه .. لو كان في كل بيت أو حتى في
كل شارع امرأة عاشقة كان على الدنيا السلام ..

- وهل تتوقف الحياة بالعاشقات ..

- إن العاشقات مثلك يامنى يوقفن سنة الحياة عند شيء واحد .. العشق والعشق فقط وليس في العشق الخالص يتم بناء شيء في جوانب الحياة الأخرى ..
- من حكمة الله ان تسير الحياة ومن حكمته أن يكون في كل مدينة أو قرية عاشق واحد ..
- تعترفين بالحقيقة .. أليس لنا أن نذهب إلى الحياة ونبنى وأن تكون حياتنا شيئاً آخر ..
- تزوجنى يا حسن ..
- نعم ؟ .. أتزوجك ؟ ..
- ألسنت من مقامك يا حسن ..
- أبداً كيف تقولين هذا ..
- تزوجنى يا حسن ..
- ولكن خمسة عشر عاماً فرق بيننا .. هل يكون زواجاً واقعياً ..
- ولماذا كان العشق واقعياً ..
- لا أعرف .. لقد جاء بالصدفة .. أنت التي أتيتيني ..
- آتيتك لأنى كنت بلا رجل وبلا ولد ..
- أتيتين لتجدى الرجل والولد ..

- وجدت الرجل العاشق والغيت أن يكون ولدًا لي حتى
تكون عاشقًا أموت فيه عشقًا ..

- وكيف أكون عاشقًا لامرأة مثلك وأنا مازلت صغيرًا ..

- إنك رجل أتيت إلى عالم الرجال فلتة من فلتات الزمن ..

- أنا لا أعرف من أكون .. أريد أن أعود ولكن لا أعرف
كيف أعود .. لقد أصبحت نقطة البداية ولا أعرف لك
نهاية ..

- تزوجني يا حسن حتى يغفر الله لزوجي ..

- إذا كان زواجي منك يغفر لهذا الرجل سأفعل ..

- هو في حقيقة الأمر لا يغفر .. لقد ذهب زوجي ومعه
حرية صنعها لي لن تنفعه أبدًا .. إن زوجي لم يصلي
أبدًا وكان يعمل في مباحث المدينة وأيضًا من أكبر تجار
الحشيش بين رجال مباحث المركز، وكان يفعل كل ذلك
لكي أعيش سعيدة ..

- وجاعني معك مثل ما جاء بالحشيش ..

- أنا الذي أتيت بك ..

- ألم يكن يعرف أن بعد الحياة موت ..

- كان يعرف ولكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل من أجل الموت .. كان يظن أنه سيعيش كثيراً وأنه سوف يصلّي ويتوب قبل أن يموت ..
- أموت طوجنى فجأة إنذاراً ؟ ..
- أكيد .. إن الموت يأتينا فجأة هكذا في موت زوجي ..
- على أن أتوب مبكراً ..
- تزوجنى يا حسن ..
- وماذا سيقول أبى وأمى .. اننى تزوجت من امرأة تكبرنى بخمسة عشر عاماً ..
- كما عشقتنى دون أن يعلمًا تزوجنى أيضاً، لسنّا في حاجة لأن يعرف أحداً ..
- إذا كان طعم الحب في الزواج مثل طعمه في العشق سأتزوج ..
- لن يكون حلواً كما في العشق .. هكذا يقول الناس والمجربون ..
- إذا لماذا الزواج ؟
- حتى يتوب الله علينا ..
- لا أعرف كيف تكون هناك امرأة مثلك لا تعرف غير العشق شيئاً وتتكلّم عن التوبة ..

- لو لم أكن عاشقة مذنبه لما تكلمتُ عن التوبة ولما قلت لك تزوجني ..
- أكنت تشعرين بأنك مذنبه ..
- كنت أقتل هذا الشعور في داخلي حتى أستمر في اللذة ..
- علمتيني العشق وأنا طفل ..
- ومن أدراك قد يكون هذا العشق في أول حياتك كنزاً كبيراً لك عندما تكبر ..
- أنت دنيا العشق .. ولولا خريطة الجغرافيا التي كنت أذاكر دروسي من خلالها لما كنت تلميذاً نابغاً ..
- لأنك كنت ترى العالم كله .. العالم الجميل أنا فنورتُ طريقك إلى القراءة فاستوعبته كل ما في الكتب من معلومات وكنت نابغاً ..
- أعلى التلاميذ مثلي أن يعرفوا الجغرافيا ..
- قلت لك أنت فلتة .. خلقت من أجلى وجئت إلى المدرسة في منوف لتكون عاشقاً لي وتكون أنبغ تلميذ في المدرسة ومع كل هذا العالم الذي عشته لا يعلم مدرس أو تلميذ عن عالمي شيئاً ..
- أتظن أنهم إن علموا سيكون لهم هذا العالم ..
- ولما لا ..
- ليس هناك تلميذ في سحرك حتى تكون له عاشقة ..

- أفهم أنه لا توجد امرأة في سحرك أيضاً ..
- لا توجد امرأة في سحري .. وإن وجدت فليس لها زوج يعطيها تلك الحرية ..
- إذا كان زوجك فلانة ..
- في هذه المدينة فلانات ثلاث أنا وأنت وزوجي الذي كان ذهب أحدنا بالموت .. أليس لنا أن نذهب بدون الموت ..
- هل انتقم الله منه ؟ لا أعرف .. ربما يكون مذنباً ..
- رغم أنني صغير فإنني أعرف أن الرجال مثله الذين يتركون لزوجاتهم العنان يكون عذابهم شديداً بعد الموت ..
- يقول الشيوخ هذا بل ويقوله العامة .. لماذا كنا لا نعالج ماكنا فيه من آثام؟ أنا أسأل نفسي الآن .. بل وسألت نفسي قبل ذلك ولكنني لم أكن قادرة على اتخاذ قرار الابتعاد عنك، كنت أنت لذة لا نهائية من حرية منحها لي زوجي وهيا هالي ..
- لم أكن قادراً على تدارك هذه الأمور بشكل أو بآخر، لكنني أنطوى مع عالم كان مجهولاً لي في قريتي، ولم أكن أعرف أن الغرق مع امرأة مثلك ينسيني كل شيء حتى ذاكرتي التي كانت ترافقني دائماً منذ ولادتي وحتى تركت بلدتي إلى منوف ..

- كل امرأة تتشغل بكثير من أمور أخرى غير تلك العلاقة الخاصة التي نشأت وترعرعت بيننا، إن كل النساء في مدينتي ينشغلن بالكفاح مع أزواجهن في كل أمور الحياة من زراعة وتجارة وأمور البيت التي لا تنتهى ولا يبق للعلاقة مع زوجها إلا قليل من الوقت، ولما يفعلن ذلك فمن أجل إنجاب الأطفال أو بالمرّة كى يستحمّاء، وإذا عشقت امرأة رجلاً فهي والرجل يتداریان ويفعلان ذلك في خوف ..

- أفهم من ذلك أننا كنّا شيئاً استثنائياً وغريباً يختلف عن كل أعمال المدينة المنتجة والتي تتعامل مع الوقت بشكل عملى ..

- لم أكن أنشغل بالأشياء التي تشغل بها المرأة، وساعدنى على ذلك أننى لم أنجب وأن زوجى لم يكن رجلاً مثل الرجال الذين يخترقون قلوب وأجساد نسائهم .. كنت عذراء .. مثل العذراء لكننى أمام الناس جميعاً زوجة وسيدة لرجل، كنت أبحث عن عالم يجب أن يكون لي ولكننى أفنقده .. وسكتت ..

- هزّ حسن رأسه وقال لها :

- أكملی .. وماذا بعد ذلك ..

" طوجني فلتة من فلتات الحرية "

=====

- إن بعد ذلك لم يكن قد أتى بعد، ولكن زوجي فتح لي الأبواب .. يأتيني بالحشيش ثم يأتيني برجال إلى بيتي لأعد الطعام وقعدة الحشيش لهما، وكان يظهر تقديمه لي بشكل عادي لأصدقائه، وكانوا يحكون ويتكلمون معي .. كانوا جميعاً يستظرفون ولم يكن أحد منهم يروق لي بل كنت أؤنب زوجي بعد ذلك على طريقته بتقدمي للرجال .. رفضت كل الأبواب التي فتحها لي مع الرجال ..

- وبعد هذا يأمني ماذا كان بعد ؟

- كان عليّ أن أبحث بنفسي عن مخرج خاصة أنه فتح لي الأبواب وأنه يريد فتح أبواب الحرية لي .. وفي يوم .. وسكنت مرة أخرى ..

تركها حسن تسكت وبعد أن استراحت قليلاً من ويل حديثها قال لها حسن :

- في يوم ماذا حدث ؟ ..

- قلت له تريدني أن أعرف رجلاً من رجالك فقال لي .. أريدك أن تعيشي لأنني لا أملك شيئاً أعطيهِ لك كرجل .. ولما قلت له طلقني رفض لأسباب كثيرة ..

- وماذا حدث بعد ذلك ..

- اندهشت لرجل من قريتي هذا أسلوبه وطريقة تفكيره
معى وأنت زوجته التي تمثل كيانه وشرفه، ثم تساءلت
لماذا الرجل يعمل في مباحث المركز أن يكون بهذه
الندالة، وقلت لنفسى أقنعها .. الندل ندل أينما كان
والوظيفة لا تصنع الرجال ..

- لماذا لم تهربى إلى قريتك من هذا الجو الذى صنعه
زوجك لك..

- لم يعدلى أحد في البلدة .. مات أبى وأمى وليس لي أخوة
وبيتنا في البلدة امتلاً بالحشرات، وعندما أذهب إلى البلدة
وأتركه وحده ويكون قرارى فإنه قد يحرمنى من
المصروف .. قررت أن لا أدخل في مثل هذه
التصرفات.

- رضيت بهذا الواقع ورضحت له ..

- لم أرض بهذا الواقع ولكنني لم آخذ موقف ضده، وعشت
تحت هذا السقف، وكان تنفسى الوحيد معه أننى كلما
طلبت منه نقوداً أعطانى الكثير، واشترى لي ثلاجة
وبوتاجاز وتلفزيون وهذا غير متوفر في كثير من
البيوت ..

- هيا لك الحياة الكريمة مادياً ..

- تقدر تقول هذا .. ولكن ..

- لكن ماذا ..
- لو كان يعتمد على مرتبه فقط لما استطاع أن يوفر لي هذه الحياة..
- أفهم أنه لولا الحشيش ..
- أكيد أنه لولا الحشيش لما عشت هذه الحياة الرغدة التي تعيشها أغنى امرأة في هذه المدينة .. فكيف أترك هذا الرخاء ؟ وشعرت أنني والحشيش شيء واحد ..
- النقود والطعام والحشيش ..
- لا .. قل إنه لولا الحشيش لما كانت النقود والطعام والملبس .. لكن كان ينقصني شيء واحد خطير .. لا بد أن يكون مع الحشيش..
- أعرف هذا الشيء ..
- أتمنى أن تكون قد عرفته ..
- أنت .. أنت كامرأة .. ينقصك الرجل ..
- برافو .. الرجل بكل ما فيه من معنى ..
- بعد ذلك ماذا حدث ..
- الحشيش هو الذى جعلنى أبحث عن نفسى ..
- الحشيش لا يجعل أى إنسان يبحث عن نفسه .. الحشيش يذهب بعقول الناس ..

- وهل استطاع أحد أن يمنع الحشيش عن البلاد ..
- منذ أن كبرت قليلاً وأصبح عمري سنوات وجدت الحشيش في الدكان مع أبو حجاج ..
- وهل شربته في هذه السن ..
- شربته عدة مرات وأنا في العاشرة ..
- في الدكان ..
- في الدكان ومع أبو هنطش أشهر شريب حشيش في البلد .. ورأيت ابن عمي الكبير وهو يعدُّ كل ليلة قعدة الحشيش التي يقيمها تحت شجرة التوت في معظم الليالي.
- وأنا أيضاً ..
- شربت ..
- لا .. رأيت أبي وهو يشرب ..
- وماذا كان يعمل أبوك حتى يشرب ..
- كان أبي أصغر موظف في البلاد ..
- ماذا كان يعمل ..
- عامل في المجلس المحلي .. ينوّر فوانيس القرية قبل المغرب بقليل وكانت أُمي تمسك له السلم الذي يصعده

لينورّ الفانوس .. وكانت هذه الفوانيس يتمّ تعميرها كل
ليلة بالجاز قبل إشعالها ..

- كان رجلاً بسيطاً ..

- ولكن كان له مزاج .. في كل ليلة سويقة يقعد عل فرن
القاعة ويحشى سيجارة حشيش ويشربها أمامى وأمام أُمى
.. وعلى فكرة كانت أُمى في منتهى السعادة عندما كانت
تراه يشرب هذه السيجارة ..

- ولماذا كانت سعيدة ..

- كانت أُمى تعرف أن هذه ليلتها .. وليلة السويقة عندنا
تبقى ليلة عيد عند كل نساء ورجال البلد ..

- مثل قريتنا ليلة الخميس عندنا عيد، والحشيش ينتشر في
الدكاكين والأجران وفي البيوت ..

- من أين يأتى الحشيش .. ولماذا ينتشر الحشيش .. ولماذا
يشرب الفقراء الحشيش .. أنا عن نفسى عمرى ثلاثون
عاماً ولا أعرف الإجابة على أى سؤال من هذه الأسئلة.

- كان من المفروض أن تعرفى من زوجك ..

- سألته مرّة .. من أين يأتى الحشيش فأجابنى أنه يصل
الينا من الحدود ..

- وكيف يدخل من الحدود وهى بعيدة جداً إلى كل قرى
البلاد .. أليس هناك مباحث ..

- سألته مرة .. كيف يدخل الحشيش وعندنا مباحث فسكت وراح يضحك ..
- ثم ماذا قال لك ..
- قال الحشيش ببدخل بإس من المباحث وكل ما يمر بمباحث تأخذ منه حته..
- أهذا واقع مفيد وفي نفس الوقت ممنوع ..
- كل واحد له مصلحة، التاجر له ناسه ومأمور المباحث له ناسه حتى جوزى الصول له ناسه وله نصيب ولولا الحشيش ما كنا هانعيش في رخاء ..
- أفهم إن كل واحد له مصلحة في دخول الحشيش ..
- حتى بيوضة أشهر عبيط في منوف بيستفيد من الحشيش .. كان أكبر موزع لجوزى ..
- وماذا يفعل بيوضه الآن ..
- لا تحمل هم بيوضة ولكن إحمل همى أنا .. ماذا أفعل بعد أن أصبحت بدون حشيش ..
- ألا يكفيك معاشك من زوجك ..
- لن أستطيع العيش في رخاء وستقل نقودى .. وكيف يكون مزاجى معك بدون حشيش ..
- ألا يمكننا أن نلغى هذا المزاج ..
- لا أستطيع .. وكيف أكون عاشقة لك بدون حشيش ..

- ألا يوجد عاشقين بدون حشيش ..
- لا أعرف .. لكنه يجعل للعشق نكهة وقعدة وخيال ..
- أفهم أنه بدون الحشيش لن تستطيعى عشقى ..
- لا أعرف ..
- تعال نجرب ..
- بدون حشيش ..
- مات طوجنى ومات الحشيش ..
- تعال ندخل .. تعال أشوفك من غير حشيش ..

"المباحث تنشر الحشيش"

=====

.. لماذا لا يموت الحشيش كما مات طوجنى؟ وهل الحشيش ملازم للفقر؟ أم الحشيش ملازم لليلة الخميس في قرיתי؟ وهل دفعت النساء الرجال في العراقيب لمزاج الحشيش؟ وهل إذا شبع الناس وأكلوا كثيراً كان لابد من الحشيش؟

.. كان الحشيش في الخمسينيات وأوائل الستينيات ينتشر في كل ربوع البلاد، فهو الدلال وروقان البال كالبحر الذى تتداعى أمواجه على الشاطئ، والرجال والنساء حول حروف الماء يدخنون في شغف بالغ العذوبة ..

.. كان أبى الشيخ يدخن الحشيش كلما أتى له، وكان عمى الذى لا يعرف في حياته غير الفتة وهبر اللحم يدخن الحشيش في دكان زهران الذى كان يبيع الحشيش في درب وسط القرية، وابن عمى معلّم وأبو هنطش قريبنا أشهر شريب عند كل سواقى الماء في الليل سواء كان مظلماً أو مقمراً، وأبو حجّاج له شلة الحشيش في دكان أحمد عبدالله ولا تحلو حكاياته مع الشلة إلاّ ومعها جوزه التعميرة، كان الحشيش هنا وهناك في الليل داخل حارات القرية وعلى حرف التربة في البيوت الكبيرة وقرب مكنة الطحين وفى الغيطان قرب أجران القمح وعند تارة البحر الأعمى، في كل مكان يعبق دخانه ويرتفع ويتوغل كأنه نسق عام وموجه لا ينتهى هياجها في وسط البحر الفرعونى الذى تقع عليه قرיתי وهى شيخة القرى

في مركز أشمون، فما بالكم بقرية زعزوعة لا تساوى غفير مثل النخاعة ولد أبو شمروخ، وفي القرى قرية تخدم قرية .. قرية تتبع أخرى ولا تستطيع العيش بدون القرية الكبيرة .. فقرى صغيرة مثل براشيم وكوم عياد والشيه ومجيريه والخضرة وسمان هي قرى تابعة لقريتي الكبيرة في مدارسها وأسواقها ومتشفياتها، حتى الناس في هذه القرى الزعزوعة تابعين لأهل قريتي المتوحشة، وكنت أشعر أن قريتي هذه وحش كبير وتلك القرى التي حولها مثل التعالب والذئاب التابعة لهذا الوحش الكبير، وكنت أخاف وأنا صغير أن تكون قرية أمى تلوانة تابعة لقريتي، كنت أغار على أهل قرية أمى وأخاف أن تكون تحت عباءة قريتي الظالمة رغم أن كثيراً من الناس فيها أرق من رقائق المعدن الأبيض الخال من الشوائب، فهي قرية خالية من شلال الحشيش ونساؤها يرتدن ملابس نظيفة حتى وهنّ في الحقل مع أزواجهن، ولا أعرف أى صنف من فلاحين هذه القرية، وكنت أتعجب أن أرى فلاحين أهدى من الحنين وهم جميعاً يعملون بلا زهق وكأنهم جميعاً متعلقون بحبل من الطاعة، تراهم يملئون المساجد وأبناؤهم يصلون في كل مكان في البيت، ولا يعرف الناس فيها حتى الشباب أى نوع من أنواع اللهو ولا توجد في ناحيتها الغربية التي منها أمى شلة واحدة للحشيش، وكنت أتساءل .. لماذا تلد هذه القرية أكبر رجال للقانون في مصر ؟ وفي الستينيات أول هذا العقد وهو أخطر العقود في حياتي عندما دخلت في عرقوب الفجور خلف المحكمة القديمة وأنا مازلت تلميذاً في الصف الأول الثانوى، كنت أندهش أنه لا يوجد من هذه القرية

تلميذ واحد يذهب إلى السينما أو يدخن سيجارة أو يغيب عن المدرسة رغم أنهم جميعًا بعيدًا عن عيون أهلهم، .. وشعرت بالحد بل واقتربت من درجة أن أكره هؤلاء التلاميذ الذين يببالغون في أدبهم والتزامهم .. وفي يوم قلت لأُمي :

- ولاد شنشور بيروحوا منوف يفجروا ليه يامّه ..
 - ولاد بلدكم دخلوا سنة أولى بوظان وهمّ لسه صغيرين، فلما راحوا منوف إزدادوا فجورًا ..
 - بصراحة ولاد بلدكم مش رجالة يامّه ..
 - معلش يابنى هيّ الرجولة عندك بوظان وقلة أدب ..
 - إنت زعلت منى يامّه ..
 - لأ مازعلتش .. إنت لسه صغير وتفكيرك على أدك ..
 - طيب يا حسن إنت زى ولاد مين ..
- وفي منتهى الكذب قلت لها :

- إنت عارفة ابنك يامّه .. لأ زى ولاد بلدى ولا خايف وغلبان زى ولاد بلدك ..
- أدّينى دليل ..
- أنا دايماً التانى والثالث على المدرسة كلها ..
- ومين الأول من التلاميذ ..
- محمد العوينى من ثلوانة ..

- أنت عارف العوينى دا مين .. قريب أمى من بعيد .. لو
أنت شاطر إطلع الأول ..
- طيب كويس إنى من شنشور وتلميذ شاطر ..
- طيب جاونى يا حسن عبدالعزيز أخوك قال لي ..
(وسكتت) ..
- قولى يامه سكتى ليه ..
- قال إنك بتروح عند الجارة وبتذاكر هناك ..
- عبدالعزيز ؟ أنت تصدقى عبدالعزيز وهو من أبوظ ولاد
مدرسة ظاظا وبيشرب الحشيش ..
- آه يابنى دى مشكلة أنا دايمًا واقفة على حدود فاصلة عند
بلدكم .. عبدالعزيز مش قادرين عليه، وأنت بيقولوا عليك
كلام بس إنت نافع في المدرسة، وأنا ماقدرشى أروح
أقعد معاك في منوف .. البيت والعيال كترت محمد في
القبول وثروت طالع عامل زى دخان فرن القاعة
ويقولوا عليه إنه هايطلع أمرتى وبتاع كوتشينه رغم إنه
لسه ماطلعش من البيضة، أنا دلوقتى مش ملاحقة
وما بقتش أقدر أشوفك عشان أهتم بيبك وأحبك زى
الأول ..

.. والله يابنى كثير أقعد أضحك بينى وبين نفسى وأقول أنا جبت
ثروت زى ولاد شنشور واد طالع زى بتوع شروة حسن وأنا يابنى

ياما عيّت عليهم .. أهو ربّنا إدّانى ولد من ولاد الفرن .. الحمد لله.

- اسم ثروت إسم حلو أوى .. ليه سمّتيه ثروت ..
- كان نفسى يطلع زى ثروت الجرف قريبي هوّ دلوقتى رائد طبيب في الجيش ..
- خدت الإسم لكن من جوّه بادنجان مبدّر ..
- المهم في البيعة دى كلها إنت .. نفسى مايكونش بينك وبين الجارة أى حاجة ..
- أى حاجة زى إيه .. بقى إينك اللّى كان طول النهار قاعد على التّرعة أدام عينيك وبيخاف من شارع أبو سمك هايعرف واحدة في منوف ..
- يابنى إنت كنت بتتفرج على النسوان وهى بتغسل قمح وبعدين لما رحت الكفر انشغلت بسميرة بنت الكفر وده حوار من أوله لآخره كان معايا يابنى .. المشكلة دلوقت إنت كبرت والمشكلة التّانية إنك حلو وبقيت أكبر من سنك صلاة النّبي، أنا بصراحة يابنى خايفة عليك من الحريم في منوف ..
- أصل هى المشكلة أنا هربت من أخويا وولاد عمى اللّى ساكنين معايا ورّحت عند الست دى علشان عندها هدوء

- أعرف أذاكر فيه، مش عارف أذاكر جنب شلة الحشيش .. على فكرة والست دى بتذاكر معايا ..
- هي معاها إيه ..
- دبلوم تجارة وخدت ثانوية عامة كمان ..
- حلوة ..
- ماليش دعوة بحلاوتها ..
- وجوزها يابنى ..
- جوزها راجل طيب بيعتبرنى أخوه وأخوها ..
- ياخوفى ياحسن ..
- ماتخافيش يامه إنت مش ليكى عندى أطلع التانى على المدرسة..
- أنا هاجيلك منوف علشان أشوف الست دى ..
- وماله يامه تعال ..
- بس دى معاها دبلوم هاتعرف تذاكر معاك إزاي أو حتى ثانوية..
- يامه دى خلتنى أحب الجغرافيا والتاريخ ..
- » بس وبقية المواد ..
- بتهيالى الجو .. وبتعمل لي الأكل ..

- جوزها بیشتغل إیه ..
- صول في المباحث ..
- يالھوی أحسن يعمل لك مصیبة یابنی ..
- لأ ماتخافیش دا راجل غلبان ..
- أسمع أن بتوع المباحث في المراكز بالذات بیتاجروا في الحشیش ..
- ساعات أشوفه بیشر ب حشیش ..
- مراته بتشرب معاه ..
- لأ دا مراته حاجة جانتیه خالص ..
- یعنی إیه جانتیه ..
- یعنی إنت لو شفنتیها هاتقولى إزأى دی رضیت تتجوز الراجل ده ..
- وهی بتهتم بیک لیه ..
- علشان عرفت إنی ساکن مع شلة بایظة فخدتی عندها علشان تحافظ علیّ منهم ..
- مافیش حد بیعمل حاجة إلا لما بیكون لیه مصلحة ..
- صدّقینی الست دی حمّتی من الشلة ..

- يعنى الشلة بتاع حشيش ورحت عند الجارة جوزها بتاع حشيش.. إنتقلت من حشيش إلى حشيش .. إنت عارف يابنى أنا خايفة عليك من حشيش تان غير الحشيش ..
- يانهار إسود يامّه هوّ فيه حشيش تانى ..
- آه يابنى .. أيوه يابنى .. بذع النسوان ياحسن أكبر من حشيش الجوزة ..
- قلت لك هيّ مابتشربش حشيش ..
- كل ده مش مهم .. أنا خايفة يابنى من حشيشها هيّ ..
- مش فاهم ..
- شوف ياحسن أنا أمرى لله .. ماقدرشى أقطّع نفسى علشان أشوفك وأنت بتذاكر عند الست دى ..
- إنت خايفة منها أوى ..
- ماخفش ليه ..
- بعد يومين هاروح منوف أجيب النتيجة علشان أفرّحك ببها ..
- آجى معاك ياحسن ..
- وتسببى الدنيا دى كلّها لمين .. شوفى غيرى من ولادك يامّه..

" إمرأة وكيف وحرية "

=====

.. كان ذلك ما دار بين حسن وأمه في الأسبوع الذى ترك فيه منوف بعد أدائه الإمتحان، بعدها شعر بأنه أكثر جرأة وإقداماً على الحياة، وأن ما حدث بينه وبين منى شئ طبيعى في الحياة وعليه أن يخوض التجربة إلى نهايتها، وأيقن أن أمه تشعر بالخفى وأن قلبها دليلها وكأنها ترى كل شيء ولكنها لا تستطيع أن تمسك بابنها كما كانت تسيطر عليه من قبل، لكن ما كان يندesh منه حسن أن أباه لا يفتاحه في شيء وينصرف إلى عمله في الحقل وأشغاله مع الناس وأنه في صراع مع ابنه عبدالعزيز الذى إنخرط كاملاً مع شلة أبناء شرارة الذين يتاجرون في البهايم الوقيع (يعنى العيانة)، وأن خوفه أكثر أن أولاد شرارة يضحكون على الولد ويأخذون البرسيم لبهائمهم على الحساب ولا يدفعون .. ولما كان هذا جو البلد رايح شمال رايح يمين لا يعجب حسن، إنه الولد المتمرد على كل أحداث قريته فيتركها ويذهب بعيداً إلى المدينة ربما أملاً في العثور على سميرة، أو أن المدرسة الثانوى في المدينة فلا بد أن يذهب إلى المدرسة، لكنه الآن كانت له الدنيا كاملة في منوف.. حيث إمرأة اتخذت من الحرية جناحاً لتطير به نحو هذا الغلام الذى اختطفته من الشقة المقابلة، إمرأة بلا ثمن .. منحتة نفسها وحنانها وشوقها .. منحتة جسدها الذى اشتراه زوجها من عشر سنين ليهديه إلى حسن على طبق من حشيش .. فهو أخ لزوجها ولها فعشق المدينة كلها التي فتحت له ذراعيها بإمرأة في فتنة منى وحشيش قدّمه لهما

زوجها وجوزة وقعدة وخيال وتوهان من دخان يصنع عالمًا من الخروج من واقع دائمًا أينما كان يتمرد عليه .. خرج من واقع المدينة إلى واقع آخر هيأته له امرأة عشقته فكان بالنسبة لغلام عالم آخر إحتضنه إلى واقع بين السحاب والأرض ..

.. ولما كانت حزينة بارتدائها الملابس السوداء واقتادها كيفها بأن المزاج الحزين له طعم آخر مع حسن قالت له في ليلة مليئة بالحزن الذى تدعيه بارتداء قميص أسود مثل حزن تمثله مع نفسها وتشبع به شجونها وتودعها التي كانت قبل موت زوجها بعشر سنين منذ أن تزوجته حتى جاء إليها حسن .. طموحها في العشق هو الذى جعلها دائمًا في طموح دائم لأن تجرب كل الأزمان والفصول مع حسن ذلك التلميذ الذى دائمًا ما يبعث في عروقها الحياة .. وكانت دائمًا تقول له :

- هذه أيام المجد ..

أتعنين أنه بعد موت زوجك تبدأ أيام المجد ..

- كثير من النساء بعد موت أزواجهن تبدأ أيامهن في الإزدهار ..

- وهل أنت من هؤلاء ؟ .. إن زوجك هَيَّا لك أيام المتعة أمام عينيهِ..

- أنا قلّة من النساء وهو قلّة من الرجال لكنه تركنى بدون الحشيش ..

- لماذا لا تذهبي إلى رئيس المباحث وتعرضي عليه خدماتك في توزيع الحشيش ..
- هذا ما فكرت فيه لأنني تعودت أن ألقاك بهذا الكيف ..
- ألا يتهيأ لك ذلك .. ألم نجرب بدونه وكان لنيذا ..
- إن اللقاء به شيء آخر يا حسن .. إسألني أنا .. أدوخ في عالم آخر ويسرى في رأسي دماء غير دمائي، وإذا كنت في ألم من أي واقع فإنه ينسيني الألم ..
- منذ أن شربت الحشيش مع أبو حجاج في الدكان ثم شربته معك ومع طوجني وأنا أشعر أنني منحرف ولست بين التلاميذ تلميذاً مثلهم ..
- لقد أضاف إليك الحشيش ذكاء التلاميذ جميعاً ولولاه ماكنت نابغاً ..
- يتهيأ لك ذلك .. أنت مُصّرّه على أن هذا الكيف له فضل على حياتي معك وعلى ذكائي، لكنني أشعر أنني خائن لأمي وأبي ولمدرسين المدرسة وبراءة التلاميذ التي يجب أن أكون عليها ..
- على يدي ذاكرت فوق فراشي .. وعلى يدي أحببتُ مادة الجغرافيا، وفي كل مكان في بيتي دخلت عالم امرأة عشقتك وحدك، وتأتي بعد كل هذا المجد وتتكرر فضل وجودي عليك ..

- أنا لا أنكر شيئاً غير أنني عندما جئت إلى منوف لأدرس
لم أكن أتخيل أنني سأكون عاشقاً ..
- أهنالك تلميذ في المديرية كلها مثلك، حافظت عليك في
هذه البلدة ويكفى أنك لم تذهب إلى بائعة الفجل وبائعة
الخضار في ميدان المحطة مثل أولاد بلدك الذين
يشترون جماعة وجماعات مع امرأة واحدة ..
- إنني أريد أن أخرج من هذا العالم .. عالم النساء جميعاً
حتى ولو كنت عاشقاً ..
- قلت لك تزوجني .. وإذا كنت تشعر أنك قد أخطأت بيدك
تصحح هذا الخطأ ..
- ألا تشعرين بهذا الخطأ ..
- أنا معك حتى ولو لم أكن أشعر .. لكن الذي حصل أن
زوجي منحني الحرية معك بعد عقد من المعاناة معه ..
- ولماذا لم يعطك تلك الحرية قبل أن آت إلى منوف ..
- كان لا يريد أن أكون امرأة عامة للرجال في المدينة ..
كان يحافظ على وعلى اسمه لأن الناس كانوا سيعرفون
أنني امرأة رجل المباحث ..
- إلى أن جئت ..

- جئت لي بالصدفة ولم تكن هناك صدفة أجمل منها ..
- وزوجى ارتاح لك كثيراً واتخذك أماً له .. وكثير من
- الإخوة للأزواج والزوجات ينتشرون في أنحاء المدن
- والقرى ..

- أريد أن أصبح إنساناً آخر ..

- بدونى لن تستطيع ..

- هل تمَّ القبض علىَّ ..

- برغبتك .. وهل تستطيع الاستغناء عني ..

- أليس لي الحق في أن أُغيَّر من واقعي .. لا يوجد تلميذ
- بالثانوى مثلى وأنا أشعر أنني أحدثُ عوراً كبيراً ..

- إنَّكَ تفكر بشفافية زائدة، كثير من الناس كباراً وصغاراً
- يعيشون مثلنا بدون أدنى ندم ..

- أريد أن أعود إلى أمى .. إن أمى تبكى من أجلى ..

- ألم أكن لك كل شيء .. أمك وأختك وامرأتك ..

- لا .. لا يامنى .. إن أمى في قرىتي أقامت لي كيأناً من
- الحب والأمان رغم الكراهية التي كانت تحيط بنا .. أنت
- لا تفهمينى .. أريد أن أذهب إلى أمى وأقبل يدها وأتوب
- في حجرها كما كنت ألوذ بها من قبل في لحظات ضعفى
- ..

- لو كان في بيتي قطعة حشيش لقمّت وأشعلت النار وأخذتك من عالم التوبة الذى تأتيني به اليوم .. لا بد من الحشيش حتى تكون لي مادام الكيف ..

- لا فائدة أنت لن تتوبى أبداً ..

- ولماذا أتوب الآن مازال في العمر الكثير ولما أقترّب من نهاية عمرى أتوب ..

- أنت امرأة مجنونة .. وكيف لأحد يعرف متى يأتى الموت ..

- أنا لا أفكر في مثل هذه الأمور ..

- كان أبى يقرأ القرآن في البيت وفي طريقه إلى الحقل وعودته إلى الدار، وكنا جميعاً في الدار نسمع قرآن الصباح وقرآن السهرة .. وسكت ..

- وماذا بعد ..

- عندما دخلت بيتك لم أجد كتاب الله في أى مكان فيه، ولم أسمع كلمة واحدة من كتاب الله من الراديو أو منك أو من زوجك .. لماذا لا تغيّرين حياتك بالداخل؟ ..

- غير أنت يا حسن .. هذا البيت بيتك .. انزل إلى السوق واشترِ كتاب الله، واشترِ راديو كبيراً لنضعه بالصالة .. افعل ما يحلو لك وأنا معك .. خدنى أنت إلى قليل من

اليقظة التي حَلَّت عليك فجأة .. أنا معك إلى آخر العالم
ولكن بشرط .. وسكتت ..

- ما هو هذا الشرط ..

- تزوّجني يا حسن ..

- نعم ؟ ..

- ألا تسمع .. تزوّجني يا حسن ..

- أنا في حاجة لأن أفكر ..

- أهنأك مانع .. أتظن أنني ممكن أن أكون عاشقة لرجل
آخر .. أنت مثل كثير من الرجال لا يتزوجون امرأة
كانت لهم بها علاقة ..

- أبداً .. ولكن تعال نهتدي .. تعال نتوب ..

- قل لي حتى أعي ما أتوب عنه ..

- لا تكوني عاشقة لغيري ولا حشيش في بيتنا بعد ..
ولماذا لا نصلّي .. إننا في بحر غريق ولا بد من النزوح
منه إلى شاطئ آخر ..

- خذني إلى أي مكان تحبه .. خذ بيدي لأنني لا أعي كل
الأشياء التي تحكي عنها ..

- أشعر بأنني أختنق .. تعال نذهب إلى ميدان المحطة ..

- ولماذا ميدان المحطة ..

- لنركب الحنطور ..

.. شخال شخلولة .. ترن ترن .. كرج بهلولة .. شيء صهل
صهلولة ..

ويضرب الحوذى الفرس بالكرباج ليبرطع بحوافره الأربعة أرض
المدينة .. ولما مهمه الفرس ودق الأسفلت بقوة زعق الحوذى فيه
.. شيء ماتكسفنيش دا البهوات معانا .. ثم التفت برأسه نحونا قائلاً:

- على فين يافنديه ..

- يامعلم .. لف البلاد كلها ..

.. وأمسكت بيده والدموع تملأ عينيها ووضعت رأسها فوق كتفه
وهمست :

- اتجوزنى يا حسن ..

" كُتُب سَمِيرَة "

=====

" عندما دخلت بيتي كُتُب سَمِيرَة لم يخرج من البيت كتاب منها، وكُنت أزيدها كل يوم بكتب أخرى " كانت الكُتُب بيتاً آخر في داخل بيتنا، وكما أن سور بيتنا عال كانت كتبتي عالية في نفسي فلا يملك أحد مثلها في قريتي وقررت ألا أفتح أحداً فيما أقرأه ولا أسأل عما يجول به خاطري .. لا أسأل إلا نفسي وثقل حملي فجعلني ذلك أبحث عن أسرار ذلك العالم حولي في الكتب فلا أصل إلى شيء .. وكما دعاني رجال الحزب أن انضم إليهم وأأخذ بريزة ورفضت وسخرت منهم جميعاً دعاني رجال وشباب الشعبة بيت الإخوان أن انضم إلى هذه الجماعة، فهم شباب صغير وكبير يدخلون إلى هذه الدار ويخرجون منها ولا أعرف ماذا يفعلون بداخلها أو خارجها " وكنت أخاف وأتوجس منهم جميعاً، فأقف على حرف الترفة مضطجاً على شجرة الجميز التي تطلع شامخة فوق النهر الصغير يتساقط تينها فوق الماء الراكد عندما تتقطع مياه المصب وفوق الماء الجاري عندما تنفتح مياه المصب من فرع النيل الأصلي عند قرية سِمَّان، وكان أذان الله أكبر في دار الإخوان الملاصقة لبيتني عالياً عن صوت أذان المسجد القريب من بيتنا، لكنني كنت أشعر بالخشوع والخضوع عندما أسمع أذان المسجد عنه من سماع أذان الشيخ بكري مؤذن الشعبة، ربما كنت لا أستريح للشيخ بكري نفسه لأنه صاحب الشيخ محمد عبود الذي أكرهني في الصلاة خلفه، ولما قلت لأبي في يوم:

يعني إيه إخوان..

إنهم جماعة لا نعرف ماذا يريدون.. كل واحد فيهم
يختلف مع الآخر..

ولماذا لم تدخل هذه الجماعة يا أبي..

إنني أذهب إلى الله من دائرته الواسعة فلا أذهب
إلا إلى المسجد لأصلي.. إنني أصلي في أي مكان
في الأرض.. أصلي في حرث الأرض وعند الساقية
وهناك عند تارة البحر الأعمى وفوق المركب .. إن
هؤلاء يريدون شيئاً آخر غير الدين.. إنهم يريدون ما
فوق الدين أو بعده.. ليسعون إلى مطلب من مطالب
الدنيا..

ليس عيباً أن تطلب شيئاً من مطالب الدنيا ..

العمل في الحقل لكي آت لك بالقمح والذرة والقطن
خير لي من أن أقعد بين جدران أربعة وأترك حقلي
بلا زرع .. ولذلك يابني تجدني أعمل في حقلنا وعند
أي زاوية في الأرض أصلي حتى لا أضيع وقتاً بلا
عمل.. العمل والصلاة هما أهم أعمدة الدين..

وأهل الشعبة لا يعملون ..

- إنني أعرفهم جميعاً لا أحد فيهم يعمل ومعظمهم يعيشون من كد غيرهم.. ويقولون أنهم يتفرغون للدعوة.

- ماذا تعني كلمة إخوان..

- إخوان مسلمين "وהל المسلمون في حاجة إلى إخوان" نحن جميعاً إخوة دون أن نكون إخوة " هل رأيت الديب مسيحة جارنا في الحقل.. ماذا تقول عنه وعني.. إنني أحبه وأتعامل معه أكثر من أخي. ولماذا لا نسميها إخوان الوطن أو إخوة الوطن..

- " وفي يوم ألحَّ عليَّ الشيخ بكري أن أدخل الشعبة لأسمع وأرى ماذا يجري فيها واندعشت كيف يدعوني رجل في مثل عمر أبي لأن أنضم لجماعة وماذا أضيف إليها.. وماذا يقدمه غلام صغير لأي جماعة..

- في الشعبة كثير من الغلمان .. والله إنني أخاف على الغلمان من دخول هذه الدار".

- إذا أنا فعلت خيراً يا أبي من عدم انضمامي إلى هيئة الحزب وعدم تلبيتي للشيخ بكري من دخول دار الإخوان ..

- أنت يا بني في أمان حتى الآن من الذي يجري في
القرية" وسوف أعاتب الشيخ بكري ما الذي يريده من
الصغار؟

- وبماذا تتصحني حتى أكون في كثير من الأمان..

- ألا تكفيك كُتب سميرة والكتب التي اشتريتها لك
من سور الأزبكية كلُّما ذهبت إلى مصر..

- لقد قرأتها إنني في حاجة إلى مزيد منها..

- سمعت أن هناك شاباً من الكفر اسمه جمال سالم
سوف ينشأ مكتبة في مجلس القرية" علمت بهذا منذ
شهور ربما يكون قد أنشأها بالفعل..

- سوف أذهب بنفسي في صباح الغد إلى مجلس
القرية لأسأل عن هذه المكتبة..

- ربما تجد فيها ما تبحث عنه ويغنيك زيادة عما
وجدته في كتب سميرة وكتب سور الأزبكية".

- أتمنى أن أجد في المكتبة كتباً أخرى مختلفة ..

- ما لا تعلمه يا حسن أنني قابلت جمال سالم
وأوصيته بأن يزود المكتبة بكل أنواع الروايات
والقصص ..

- من أجلي يا أبي ..

- أدركت من تلقاء نفسي أنك تهوى سماع الحكايات
وتتصت إليها بكل جوارحك.

- لن أنسى حكايات أم سلامة وألف ليلة وليلة
وغيرها ما كان يحكيه زوج خالتي علماً عمارة
ونحن نجلس فوق قبة الفرن في ليال الشتاء مع
خالتي وأبنائها "هذا الجو يا أبي من الحكايات جعلني
انشأ في جو تنتشر فيه الحكاوي والأمثال والأحكام
من كل جانب خاصة تلك الحكايات التي حدثت في
الزمن القديم..

- في الكتب حكايات أروع مما حاكاه لك أحد ولذلك
أوصيته بأن يأتي بمثل هذه النوعية من الكتب ..

- فضلك عليّ كثير يا أبي..

- إن الفضل كله في شغفك بالكتب يرجع إلى كرتونة
الكتب التي أهدتك إياها سميرة..

- آه يا أبي من سميرة .. أريد أن أراها..

- إن سميرة وأمها هما الزمن الماضي الجميل الذي
لا نستطيع أن نعثر عليه الآن..

- ولماذا ذهب هذا الماضي بعيداً.

- مثل أي شيء يذهب ..

"خالي الرنان"

=====

كانت أحداث القرية أكبر مني، فالبحر والترعة والغيط والجاموس والبقر والزرع وظواهر طبيعية كنت أقف حيالها تأثماً، ومن أنا حتى أكون شيء بين تلك الظواهر الطبيعية" وما كان بداخلي يجعلني في صراع مع كل القوى حولي لكن دون أن أفصح عن نوازعي فهي جميعها تسكن في داخلي مثل الصمت والسكون اللانهائي" في عام ١٩٦٢ كان لمجلس القرية في أول بلدتي شنة ورنه فهو البيت الذي يحكم القرية ولمّ مجلس القرية هذا كل أبناء القرية الذين يعتبرون المجلس في هذا الوقت منارة من منارات البلد" فهذا مسئول الإنارة وذاك مسئول نظافة الشوارع وآخر مسئول تراخيص البناء وغيره مسئول الرش في الطرق المؤدية إلى القرية وهذه مسئلة شهادات الميلاد وأخرى مسئلة كل من له علاقة بالمركز وجميع موظفي المجلس من أصحاب شهادة الإعدادية والدبلوم وأكبرهم رئيس المجلس جمال سالم الحاصل على ليسانس الآداب.. وكل هؤلاء الموظفون يجلسون على مكاتبهم ويؤدون أعمالهم وهم قاعدون على بعض المكاتب فليس هناك مكتب لكل موظف ولكن لكل ثلاثة أو أربعة مكتب يتكلمون فوقه.. في مساء يوم الأربعاء أخبرني أبي بأن أكثر من خمسمائة كتاب وصلت مجلس القرية والمسئول عن المكتبة ابن القرية سعيد سلطان الحاصل على دبلوم التجارة .. لم أنم طيلة الليل حتى انبلج الصبح فصليت مع أبي في الدار وبعدها غلبني النوم فنمت حتى العاشرة ومن الثامنة صباحاً كان قد تركني

أبي وذهب إلى السوق ومعه الشغالة لتحمل ما يتسوقه أبي للبيت..
اطمأنت أُمي أنني نائم في المنذرة التي أحب منذ أن كبرت النوم
فيها قُرب الكتب التي تملأ نافذتي الغرفة الكبيرة، ورغم أنني كبرت
فإن أُمي كانت تستاء من نومي في المنذرة وكانت تريدني دائماً أن
أنام في الخزانة "الغرفة الصغيرة" فوق السرير النحاس الذي نمت
عليه منذ طفولتي .. كانت أُمي تحب أن ترعى أمور البيت الغذائية
فهي بعد صلاة الفجر تشعل نار الكانون لتسخن حلل الطبخ أو
تسخن حلة الاستحمام لأبي وتدخلها له في القاعة كي يستحم في
الطشت النحاسي.. وكم كان يذفئني عندما كان كوز النحاس يخبط
في قاع الحلة يكون أبي قد انتهى من استحمامه فيقول لأُمي بصوته
العال:

- إدعكي ضهري يا وليه ..

- إنت بتدلع يا حداد .. فينك يالبيبة كنتِ شايله
عني حمل ثقيل ..

- ياريت تتعلمي شوية دلع وحنيه..

- قوم بقى اطلع من القاعة روح الغيط خلي
الرزق ينزل..

" في دارنا كما في دور كل القرية لا يستحم الرجل في الصباح
البدرية إلا إذا كان قد التقى بزوجته في هذا الصباح.. فإذا قامت
زوجته بدعك ظهره بالليفة كان ذلك منتهى الحب ودلالة على أن
امرأة هذا الرجل قد لاقَت من المتعة الكثير ويستحق رجلها أن

تليفه بالليفة ثم تدعك قدميه بالحجر.. وكم كنت سعيداً وأنا أتقلب في فراشي واسمع تسخين حلة الحمى وتخبيط الحلة في الطشت ورنّة الكوز في الحلة، وفي الوقت الذي يستحم فيه أبي تكون الشغالة قد انتهت من كنس الدار ورشت الماء فوق الأرضية .. كانت الشغالة في هذا الوقت فتاة صغيرة فإذا وجدت أبوها الحاج مع سرتها في القاعة ابتسمت ملء فيها في الرايحة والجاية وراحت تغني أغنية يامه القمر على الباب بصوت عال وكأنها تشارك أهل الدار دفئهم. كان الغذاء متوفراً في البيت بكل أنواعه وحالة الوعي الاجتماعي والحكايات والتقاليد والزيارات الاجتماعية تتم بشكل يوفر للجميع السكينة والمودة، وكان لذهاب إخوتي إلى الغيط في بادية كل صباح قد وفر لي أن أكون ملك البيت الوحيد .. أمي تعتبر أخوتي من الدرجة الثانية وأبي يعتبر إخوتي الثلاثة من الجعافرة حتى أن الأنفار في الغيط عندما علموا بدرجتهم المتدنية في البيت فكان أحد الأنفار ويدعى سعيد متولي يقول لهم:

- شيل يا اعجر "خش يابطل شيل الفلاشة" خد الجاموسة اسقيها ياسرسوع.. روح سوق البقرة في الساقية ياملحوس" كل معانا يامهيب سيب الكعك لحسن .. هو خالي الحاج جاب حسن وبس إنتوا شعب خالي حداد.. وكان إخوتي الثلاثة عبد العزيز ومحمد وثروت سعداء بهذه المعاملة من الهزار وكان كل أمل إخوتي في نهار الغيط أن يمرحوا ويجروا ويسقوا

الجاموس والبقر والغنم من البحر وأن يتركهم
الأنفار يمرحون ويلعبون ويعملون فهم الثلاثة
بأفعالهم يساعدون أنفار الغيط في أعمالهم..
وما كان يدهشني أن بعض الأنفار الذين
يعملون في حقننا يفتخرون بأن خالهم حداد يبل
ريق أمهم بالكلمة والهزار ويفتخرون أكبر بأن
خالهم له علاقة وطيدة بأمهاتهم، وفي يوم
صرح أحدهم أمام زملائه الأنفار قائلاً:

- هو مين يطول خاله الحاج يبل ريق أمه ..

وقال آخر:

- يا عم خالي الحاج رن أمهاتنا كلنا .. ياسيدي
هو احنا نطول.. يابخت مين كان رنَّان أمه
خاله الحاج.

" وكانت تأتيه النساء من كل مكان ليشكنَ له حالهن ولم يقتصر
وجع النساء على زوجات الأنفار وأراملهم ولكن حتى النساء
زوجات أصحاب الأملاك يأتين لأبي يشكين أزواجهن في أدق أمور
المعاشرة الزوجية " وكانت هذه النوعية من النساء كبار السن فهذه
فريدة زوجة عبد النبي حسن من الكفر.. بعد أن طلقها زوجها وهو
من عائلة أبو عافية وأنجبت منه ولد بقي راجل أد الدنيا وشنبه في
وشه هياكل منه حتة تزوجت من رجل في كفر البلدة وكان رجلاً
كبيراً له أبناء متزوجون ولكنه لم يشبع رغباتها في الجنس فلجأت

إلى أبي تشكوه زوجها في حكايات من هنا وهناك وكلما قالت جملة
من حكاياتها وأحوالها وأخبار الدنيا حولها تحسس حجر أبي قائلة:

- والنبي ياخال زي ما بقولك كده
- فيضحك أبي ويقول:
- وإيه كمان يافريدة ..
- وحياتك ياخالي هاعمل إيه أنا واخداه واحد خالصان ..
- معلش يافريدة أهو راجل بياكلك وراجل طيب يعني هاتروحي فين بعد ما عبد الحميد طَلَّقَك ..
- أهو برضه ياخال الواحدة ماتستغناش عن كده ..
- طيب وإيه العمل يافريدة ..
- ولا حاجة ياخال .. طيب أديني بفك معاك .. إذا كانت الغربية بتفك نفسها معاك " آه ياخال الجار أولى بالشفعة " .
- كان زمان يافريدة لما كنت جارتنا في الخارجة لكن دلوقتي إنت روحت الكفر ..
- أجيلك من آخر الدنيا ياخال هو أنا أنساك فاكّر لما خدنتي فوق السطح في عشة الفراخ قبل ما

أتجوز.. كنت بخطي السطح وأجيك ..
ودلوقتي بامشي سكة الكفر كلها وأجيك ولولا
دقت حلاوتك ما كنت أجيك.. على العموم
ياخال أنا عارفة إنك دلوقتي زي الأرامل..

- إزاي يافريدة.

- لبيبته مشيت وسابتك لوحك ومعاك أم حسن
هي والبهيمة واحد.. والله ياخال أنا زعلانة
علشانك إنت عايش كده إزاي..

- يافريدة خلاص بقي أنا كبرت وما بقتش أقدر
زي زمان..

تضع كف يدها في حجره وترن ضحكاتها التي تجلجل القرن:

- أمال ده إيه .. يالهوي عليك دا ولا الحمار
يخرب بيتك ياخال لو مازكتش عن نفسك ..

- الله يخرب بيتك يافريدة بكفاية شيلي إيدك
ماترجعنيش لورا.. هو ده زكة برضه ..

- طيب ياخال أنا قايمة مروحة..

- قومي ربنا يهديك يافريدة ..

- هاروح إزاي الطريق طويل والدنيا ضلمة ..
تعال روحني..

- طيب قومي سكتك شراقي ..

** كان رجلها من أطيب رجال الكفر يصلي العشاء ثم ينام ولا يدري بشيء حتى أذان الفجر .. تفتح فريدة باب البيت وتسحب خالها من حجره وفي لحظات تدخل إلى غرفة زوجها والذي يغط في نومه وتقل بابيه ثم تعود إلى خالها وتشده من حجره ثانية وفوق قبه فرن أول قاعة في البيت ترقد له مشتاقة إلى حجره ليطفئ لهيب جسدها المشتعل وهي تقول يخرب بيتك .. يخرب بيتك ياخال .. أسيبك تروح لمين .. ياحزن قلبي الست اللي ما عرفت خالي ..

" المدرس يكشف الأسرار "

=====

كان كثير من موظفي المجلس قد نقلوا وظائفهم من مصنع شبين للغزل ومن مصانع في حلوان إلى وظيفة إدارية بالقرية ليكون بجانب أمه وأبيه ويقوم بتربية العجول والتجارة في المواشي ظناً منهم أنهم بذلك سيفلحون في حياتهم "لكن هؤلاء خسروا كثيراً فيما بعد وزادوا القرية كسلاً فوق كسل وتبلة وبطالة وضيق في المعيشة ومشاكل سكن في بيت العائلة.

" كان حسن يبحث عن شيء آخر فهو مازال تلميذاً في الصف الثاني الثانوي وكل همه قراءة كتب أخرى تختلف عما يختزنه في بيته" يقع المجلس قرب مقابر البلدة ولكن يحجز بينهما مشروع للمياه مقطوع من الترعة الشنشورية وعلى حرف المشروع موقف للعربات المتجهة إلى آسمون وشبين ومصر " وكان جمعة صاحب المقهى الشهير التي تفصل بين سور المجلس القروي والزراعية التي تقع عند تارة الترعة الكبيرة، ولم تكن المقهى تخلو في أي وقت من وجود فهمي أبو حشيش الذي يبيع الحنة لكل من هب ودب في القرية ويرغب في رص كرسي جوزة مغمس أو لف تعميرة في سيجارة .. كان المشروع "الترعة الكبيرة" مكسوياً بأشجار ضخمة من الجزورين والكافور خاصة في البر الذي يقع ناحية المقابر يستظل تحتها المسافرون والذين يشيِّعون الموتى وينتظرون خروج أهل الميت من بين شوارع المقابر القابعة في

سكون فيهرع الجميع من تحت الأشجار ومن مقهى جمعة ليقفوا في صفين لأخذ خاطر أهل الميت الذين يخترقون صفين مرصوصين من أهل القرية الحريصين على أخذ الخاطر، ينهض أهل القرية جميعاً وكأنهم نفر واحد في ضراء الموت وفي سراء الفرح - وفي صباح يوم الخميس الذي تغتني فيه القرية بسوقها ذهب حسن إلى مجلس القرية متخذاً الطريق المؤدي إلى الكفر وتوقف طويلاً مع مدرسه الشيخ رمضان محروس والذي قابله يخرج من شارع المقابل للكنيسة التي يسكن خلفها معظم نصارى القرية، مد الشيخ يده لحسن مهلاً.

- على فين العزم..
- رايح المجلس
- علشان ..
- بيقولوا المجلس جاب مكتبة
- صحيح جت من أسبوع. وأنت مالك ومالها ..
- فيها قصص يا أستاذ .. فيه كتب فلسفة ..
- ماعرفش.
- ياخبر أبيض.
- ماليش في الكتب يا حسن "طالما ما بقراش
هاعرف المكتبة فيها ولا مافيهاش ليه"

- شكراً يا أستاذ "على العموم يارب ألاقي فيها
الكتب اللي عايزها"
- تصدق أول مرة في حياتي ألاقي شاب صغير
أدك بيسأل عن الكتب والقصص"
- كل واحد له هواية ماليش في الكورة "كويس
إني بحب حاجة"
- ولا واحد في عيلتك غاوي ثقافة أنت الوحيد
اللي جاي شكل لواحدك"
- ليه أبويا وعمي أمين من المتقنين في العيلة".
- أبوك حافظ للقرآن والشعر القديم وعمك أمين
مأذون البلد ومثقف في الدين" لكن مافيش حد
عندكم بيدور عن كتب الأدب والفكر "كلهم
بتوع لبده وطالونة وشومة".
- على فكرة يا أستاذ أنا عندي كتب من عمر
سبع سنين وبعدين أبويا جاب لي قصص كتيرة
من سور الأزبكية قررتها كلها"
- كل ده كويس أوي ربنا بيخلق من ضهر العالم
جاهل ومن ضهر الجاهل عالم"
- يعني أبويا جاهل ولا عالم ..

- أبوك كله نور وأخلاق ومن أحسن الناس في البلد .. أنا أقصد العيلة .
- مش فاهم ..
- أنت من عيلة مشاغبة متسلطة أبعد الناس عن العلم والنور .. مافيش عندكم غير أبوك وعمك أمين لولاهم كانت العيلة تبقة ضالمة زي الليل من غير القمر.
- أنا بحاول يا أستاذ أبقي زي أبويا..
- ياريت "اللي هيساعدك في إنك تبقيه كويس أخوالك في تلوانة" أنا أعرفهم كلهم بكفاية إن أكبر مستشارين مصر وقضاتهم من الزمن القديم قرايب أمك .. وعلشان كده يمكن يبقى فيك لمعان زيهم .. تحب أنصحك نصيحة .. وسكت.
- ياريت يا أستاذ أنصحني..
- أبعد عن ولاد أبو عافية خليك عود لوحداك لأن مش هاتلاقي منهم غير الفتونة والعجرفة ياريت بعد ما تروح المكتبة تقولي لقيت فيها اللي انت عايزه ..

- حاضر هافوت عليك أقولك.. أنت أستاذي اللي
علمتني كثير من الأدب وأصول اللغة العربية".

.. ورغم قسوة الحديث الذي صارحني به مدرسي غير أنني بعده
وفي آخر حوادية للوصول إلى المجلس وأنا أسير في تـؤده
وإصرار زنت قوة ومعرفة بما يدور حولي في قبلي البلد وبحريها
وشعرت بأنني قريب من نور ومعرفة قد أجدها غداً أو في أول
العام الدراسي الذي سيبدأ أول أكتوبر ١٩٦٢.. كانت الساعة
التاسعة صباحاً والشارع الذي أعدو فيه متلهفاً إلى ما في المكتبة
يزخر بكل أنواع الحيوانات التي يسحبها أصحابها إلى السوق
ليبيعها.. جاموس وبقر وعجول وغنم.. ليس من قبلي بلدي يندفع
الناس إلى السوق لقضاء بيعهم وشرائهم ولكن من القرى التي تقع
في جنوب قريتي بلاد كوم عياد وبراشيم والشبيه وسمان، وكما
تعلوا أصوات المواشي من نعير وتتهيق ومأمأه يعلو صوت النساء
والبنات اللاتي يأتين من تلك القرى حاملات مشناتهن وطيورهن
ومقاطفهن، وكنت أسير التأمل في وجوه النساء فلم أجد في عيون
امرأة واحدة من هذه البلاد شيئاً يجذبني، ولم تكن تتمتع هذه القرى
الصغيرة بأي نوع من أنواع الجمال.. كانت النساء تشبه الرجال،
شعب هذه القرى هم ربيبة شعب قريتي الكبيرة .. وجميعهم تابعون
لبيوت قريتي زراع أو تجار أو حتى بتوع طعمية وفول .. هكذا
كان الحال في جنوب المديرية أما في شمالها فالأمر يختلف ..
رجالها عايقة ونسوان شاطرة تفتح النفس وعيون البنات فيها قصائد

شعر لمن يريد أن يقرضه .. تلك في قرى الباجور ومنوف.. كانت
رأسي مزدحمة بالكثير وحاولت أن ألقى بهذا الزخم من الهوس
الاجتماعي وكل ما في رأسي من مقارنات وأحوال عند عتبة باب
المجلس القروي الذي فيه سأجد دنيا جديدة تأخذني إلى عالم آخر
بعيداً عن هذا الواقع.. هكذا كنت أتخيل لكن الفرق بين الواقع
والخيال كبير وهذا نوع آخر من الهوس الذي لا تستطيع نفسي
البعد عنه ...

" في المجلس ناس خيبة "

=====

كانت أرضية المجلس القروي لامعة والغرف الثلاث بما فيها الصلاة ليس فيها أية لوحة فنية أو دينية معلقة فوق الحائط، ثلاث مكاتب خشبية في كل غرفة ولا يوجد موظف واحد يجلس إلى مكتبه، أخبرني الفراش بأن ثلاثة موظفين وصلوا ووقعوا في دفتر الحضور وخرجوا ليفطروا الفول والطعمية عند جمعة بتاع القهوة، وأن خمسة لم يحضروا من بيوتهم بعد أن وقع لهم زميل لهم في دفتر الحضور لأنهم سيحضرون بعد الظهر لذهابهم إلى سوق الخميس كما تعودوا كل سويقة.. وفي طيبة أخبرني فراش آخر بأن رئيس المجلس موجود إذا كنت تريده أدخلك إليه فقلت له أنا عايز أشوف المكتبة فأخبرني وهو يشير إلى الغرفة التي تطل على الوحدة البيطرية:

- المكتبة في القوضة دي .. في دولاب مقفول مفتاحه مع سعيد سلطان وكيل المجلس.
- هو من الجماعة اللي راحت السوق..
- لأ.. هو راح الغيط وزمانه جاي.. عنده جاموسة وقعت في الساقية..
- هايجي ولا مش هايجي..
- الغايب حجته معاه..

- ممكن تدخل تسأل رئيس المجلس.

- حاضر

" دخل العامل إلى جمال سالم رئيس الوحدة المحلية ليسأله فأجابه بنعم بالكثير هايجي على الضهر لازم هاييجي مين عايزه فأخبره بأن شاباً صغيراً يسأل عن الكتب والمكتبة فأخبره الرئيس بأن يذهب ويأتينا بعد الساعة انتاشر..

" كان ضيقي شديداً فخرجت من الوحدة المحلية ولكن إلى أين كيف أقضي هذا الوقت في قبلي البلد حتى يأتي وقت الظهر .. وكنت في هذا الوقت منعت نفسي من الذهاب إلى الدكاكين فكيف أجلس في قهوة جمعة وهو يبيع الحشيش مع زميله فهمي أبو حشيش، أخذتني قدماي إلى سكة الزراعية المتجهة إلى قرية سما دون ووجدت متعة وأنا أرى تجار المعيز والغنم والحمير القادمين من سمادون لبيع حيواناتهم في السوق، وشدّني صبية صغار يسحبون أغنامهم وبعضهم يسوقونها أمامهم.. ووقفت متكئاً على جزع شجرة كي أرى أهل هذه القرية وهم يندفعون في جماعات أراهم في تأمل عجيب وقلت أكلّم نفسي:

- أد إيه أهل سمادون شاطرين .. حتى ولادهم من سبع سنين فما فوق علّموهم التجارة والذهاب إلى السوق.. سبحان الله .. ولاد بلدنا مافيش كده خالص التنبلة والتخمة مالية البلد ومافيش عيال صغيرة كده ناصحة وشاطرة

على شكل ولاد سمدون وتذكرت قول أبي
مرة:

- ولاد سمدون شكل ثاني .. العيّل يبقى على
حجر أمه ويعلموه صنعة تنفعه .. جاست
وركنت ظهري على جزع شجرة الجّزورين
الضخم لأن الجماعات القادمة من سمدون لا
تنتهي، وشعرت بقلّة قيمتي عندما رأيت
الأطفال والغلمان يسوقون أغنامهم ويسحبون
بهائمهم في رعاية آبائهم وأمهاتهم.. الأطفال
حفاة والأمهات كذلك والرجال قليل منهم يلبس
بلّغة في قدمه المشقّة"

"أهل هذه القرية يتكلمون بالجميم تشعر أن قرية من الصعيد قد
انتقلت هنا أرض الدلتا .. كلمة بقي "بأه" تبقى "بجة" الجيم
المعطشة في كل جملة تتشوق بها شذوقهم " وعلى بال ما تيجي هذه
الأرتال من هذه القرية إلى سويقة بلدنا يكون العيّل أو الراجل أو
الست منهم يكون كسر له بتاوة وبالكثير إثنين من غير غموس فإذا
باع التاجر معزة أو نعجة أو حمارة وكسب فيها جلس في أرضية
السوق ومعه عياله يتناولون عيش الطابونة والطعمية، وكان هذا
أفضل ما يقدّمه الرجل السمدوني لأهل بيته وعياله في السوق بعد
أن يبيع معزته ونعجته بشرط أن يكسب فيها".

"أكيد ما دخل نفسي وأنا أرى هذه الجموع وما تذكرته من حكايات سمعتها عن أهل هذه البلد "دخل نفسي شعور بالخيبة على نفسي وعلى موظفي المجلس القروي في بلدنا الذين يذهبون إلى السوق ويفطرون الطعمية بعيش الطابونة وهم خارج أماكن عملهم " تتبلة وبطالة مقنعة وبلطجة وفي الجانب الآخر عيال وأطفال تجري على أكل عيشها ويسدوا جوع بطونهم بتاوة حاف قبل البيع وبعد البيع فالمكسب بكثيره رغيث وطعمية..

" ولما كان الأمر يخجلني أخفيت رأسي بين ركبتي وكنت أبكي، استغرقت في إنكفائي على نفسي دقائق وأفزعني تنهيق حمار فرّ من صاحبه وراح يجري خلف حمارة تركبها امرأة محاولاً القفز فوقها فنزلت المرأة عن حمارتها وأخذت تشوّح للحمار بالعصا وتستغيث بعلو صوتها:

— جنك نكد — والنبي بني آدم ما فايق أدك

" وانهمكت الجماعة التي تشير في ركب الحمير في نوبات من الضحك خاصة عند ما رأوا الرّجل الخامسة للحمار تهتز وتكاد تلامس الأرض وأخذ صاحبه يضربه بالخيرازنة، ولما ركبت صاحبه الحمارة وشوشتها "جنك السخام إنت اللي جبتي دا كله " بطلي يابطالة وتضربها بقوة على رقبتها حتى تسكت ضبيها المفكوكين عن الحركة في طلب الحمار".

" وكان يروق لي التمعن في شيء حولي وحاولت التأمل في المقابر وكيف يأتيها الموتى ويتركهم أهلها ويذهبون إلى حال ديناهم

ولكنني قلت لنفسي.. بلاش المقابر دلوقت لسه بدري .. وقمت
خلف جماعة تسوق أغنامها ورأسي لم تعد قادرة على استيعاب
أحداث كل القرية.. إن كل مافي بلدي يشكل وحدة كاملة من الحياة
وعلى أن أكون وحدة وحدي دون أحد .. أنا لست من هؤلاء جميعاً
ولكن أنا من رائحة وطین هذه الأرض - ومر وقت طويل لكن
الظهر لم يؤذن بعد وشعرت بالضيق والقلق لعدم قضاء حاجتي
ويبدو أنني لا أفهم الزمن الذي أعيشه وأن حصولي على كتب من
المكتبة ليس بالأمر السهل، إن الناس جميعاً يبحثون عن لقمة عيش
وأنا أبحث عن شيء آخر، إن نسيجاً شفافاً من أفكار تتبخر في
رأسي وتسكن فيه هي الآن تأخذني إلى دولا ب الكتب عسى أن
يكون حامل مفتاحه قد جاء من الساقية التي سقطت فيها جاموسه".

" دخلت من باب السور العال للمجلس ثم صعدت درجات الدور
الأول فقابلني ذلك الفراش زاعقاً:

- الأستاذ جه جوّه .. خش له ..

" هرولت اليه في غرفته وصافحته قائلاً:

- عوض الله على الجاموسة...

- أحسن عوض .. عوض الله ماحدث عارف

كانت جاية في إيه..

- مبروك المكتبة.

- إنت ابن مين .. اسمك إيه..

- حسن حداد أبو عافية ..
- أعرف ابوك .. الناس يتقول عليه أطيب راجل في بحري ..
- شكراً يا أستاذ سعيد ..
- اختار الكتاب اللي عايزه واقعد اقرا هنا ..
- لأ .. أنا عايز أستعير.
- مافيش استعارة ..
- مش هاینفع ..
- هو دا نظامنا ..
- ممكن تبْلغ المسئول إني عايز استعير ولو بضمان ..
- لأ لأ .. ضمان إيه هو احنا في سوق ..
- ممكن أقابل المسئول ..
- تعال ..

"وتقدمني ودخل إلى رئيس المجلس جمال سالم ووقفت بالباب على جنب حتى لا يراني المسئول ويرفض طلب استعارتي لصغر سني وقال سعيد بصوت عال:

- فيه ولد عايز يستعير كُتب ..

- مافيش استعارة ياسعيد ما انت عارف الناس
واخدة على اللهف والكتب دي هاتروح مش
هاترجع.

"سمع حسن أبعاد تفكير جمال سالم عن الناس "فطرق الباب ودخل
في جسارة قائلاً:

- يا أستاذ مش هاينفع .. خدو مني أي ضمانات
..

ضحك جمال وراح يتفحص حسن وهز رأسه ثم قال:

- إنت في سنه إيه..

- تانية ثانوية أدبي..

- منين حتة في البلد ..

- من بحري..

- اسمك إيه..

وكرر حسن اسمه فقال جمال بعد أن ابتسم في تدبر:

- على فكرة ياسعيد أبوه أأمن راجل في البلد..

- يعني إيه..

- إديه الكتب اللي عايزها.

- يانهار إسود إزاي ...

- زي الناس نجرَّب .. خليه يوقَّع أَنه استلم الكتب ..

- خلاص على مسئوليتك .. والمدة أد إيه...

- يعني مش أكثر من أسبوع .. شوفه الأول عايز إيه .. بس مايزيدش عن ثلاث كتب..

" هز سعيد كتفيه مندهشاً وقال وهو يخرج:

- خلاص نجرَّب .. تعال يا حسن..

" كنت أريد أن أأخذ كثيراً منها خاصة تلك الروايات التي تزيد عن خمسين رواية مصرية" لكنَّ مجلداً ضخماً شدَّنِي.. الموسوعة الفلسفية المختصرة .. وقلت وأنا أتصفحه هذا يغنيني عن سؤال أحد" سوف أجد فيه ما يقوله كافة فلاسفة العالم ومفكره .. وضعت المجلد أمام الأستاذ سعيد الذي جلس إلى منضدة الاستعارة يدون أسماء الكتب في دفتر .. اندهش وحمل المجلد بين يديه وقال:

- هذا بثلاثة .. مش هاقدر أدِّيك غيره دلوقتي..

- والقصص والروايات ..

- دا بعشر روايات ..

- طيب إديني حتى ولو رواية واحدة ..

- خلَّص ده الأول نجرَّبك فيه وبعدين ندِّيك كل أسبوع ثلاث روايات..

" كان حسن يريد أن يدخل إلى رئيس المجلس ليَشكو بُخل سعيد معه .. لكنه لما قلب صفحات الموسوعة .. قال في نفسه .. يالهوي إيه .. دا العالم كله هنا .. مش مشكلة بعدين آخذ الروايات .. وقطع سعيد صمت حسن قائلاً:

- قلت إيه .. أنا عايز أمشي.

- خلاص هاخذ الموسوعة ..

ووقعت باستلامها وخرجت والعالم كله يحملني إلى بيتي لأنني أحمل فلاسفة هذا الكون في يدي وكنت أريد أن أضع الموسوعة في حجري حتى لا يراها أحد فيخطفها مني أو يحسبني عليها .. ولكن كيف .. كيف أسير في البلدة عار الساقين .. ودون أن أتروى في الأمر ثانية .. إنني صغير .. وضعت الموسوعة في حجري وجريت مخترقاً شارع درب الخولة وكأنني في سباق للعدو .. ولم أنظر في وجه أحد مما قابلني إلا أنني سمعت:

- يانهار إسود الواد دا بيجري ليه ..

- هو حاطط إيه في حجره ..

- الواد دا سارق حاجة من السوق ..

ولما وصلت إلى دوّار القطان وهو أول محطة في بحري حملت الموسوعة في يدي حتى لا يفتضح عِزِّي فيقول كل من يعرفني إنني ولد قليل الأدب .. هدأت أنفاسي وتنفست الصعداء كأنني أحمل محصول قمح استطعت وحدي أن أحصل عليه وأدخله إلى بيتي ..

" كانت أمي في داخل البيت عند الكانون.. دخلت المنذرة واحتضنت الموسوعة فوق صدري.. وانقلبت إلى الباب وقفلته بالترباس ورحت اقرأ في العالم بين يدي..

" الزحف والقتل والثورة "



كان الناس مغشياً عليها فالكثير منهم ليس لهم أي شيء آخر يشغلهم غير كفاح الحياة الدارج الذي نشأ الجميع عليها وهو رغبة العيش والغموس، وكان العسكري الذي أصبح فيما بعد هو رئيس مجموعة من العسكر ومن كان يخالفه يذبحه، وكان الاغتيال يتم بواسطة مجموعة مدربة على القتل، وكان كل من حوله يظهر له الطاعة حتى لا يتم اغتياله دون أن يدري وكل منهم حريص على أن يظل ضمن مجموعة ما كان يسمى الثوار، وما ضرب البلد والبلاد التي حولنا غير الثوار، لم يكن أحد منهم قد تدرب على الوعي السياسي أو نال قليلاً منه، كل ما وصلوا إليه ضربة حظ لعبت فيه الأدوات العسكرية التي يحركونها بحكم وظائفهم دور الحماية وطوق التخويف، تبعهم الناس دون حوار فكان الطاغية لأنه أصلاً لم يكن أحد يملك أدوات المناقشة والساسة أصحاب الوعي يخافون من الأداة العسكرية التي يتحكمون فيها، العالم العربي ثورة بالنعرة وبالاستحواذ على إثارة مشاعر الناس والصوت والخطب الرنانة، إنساق الناس إلى ثورة جوفاء هنا وهناك لأن كل مكان كان في حاجة وشوق إلى أي شيء جديد ينقلهم إلى عالم آخر أفضل لم يكن أحد يعرف معنى العالم الأفضل وكان يكفي أن ينتقل الناس من القرى إلى مصر ليعملوا في المصانع " كانت انطباعات الناس تافهة وغريبة وسريعة الزوال هي مجرد نعرة، ولم تكن هناك انطباعات محفورة عميقة، كانت الأمواج عالية فانزلق الناس

يسبحون إلى الشاطئ الآخر فلم يصلوا إليه، لم يكن أحد منهم يفهم أي معنى للحرية والعدل والديمقراطية غير أن شعارات تزعم بها الأبواق في كل مكان، أسد البحر المتوسط "بطل القومية وأي قومية، قائد كل حركات التحرر في ذلك العالم الذي كان وقتها لا يعي أي شيء عن العالم الخارجي حوله، هنيئاً لهؤلاء الذين سرقوا القصور ونهبوا الأرض وأقاموا مصانع دون مواد خام وجلبوا العسكري والشرطي ليدير كل مصنع وكل شركة حتى يتم السيطرة على الأمور الاقتصادية التي تتبع الإطار السياسي، وفي كل صباح حتى غروب شمس كل يوم يتحالف العسكري مع الشرطي على إدارة المصانع بمبادئ كله تمام "تمام يا فندم" أقف انتباه "حط إيدك في جنبك" "تمام يا باشا"، ولم يكن هناك عسكري واحد أو شرطي يفهم أي معنى للإدارة أو أي معنى عن كيف تكون الحياة المدنية، من ١٩٥٢ وكل ما يجري في أرض بلادي مزيد من الفوضى والتخبط والقتل والاعتقال "وتخريب الاقتصاد"

" وفي يوم وأنا اقترب من الانتهاء لقراءة الموسوعة الفلسفية المختصرة دخل أبي عليّ المندرة وقال وهو يلقي بعباءته فوق الكنبه ويجلس:

— مادريتش يا حسن قلبوا الإمام البدر ...

— يعني إيه ؟ مين الإمام البدر ؟

— ملك اليمن.

— ودوه فين يابه ...

ثورة " ثورة زي اللي عندنا هنا.

ومين مسك بداله.

واحد اسمه عبد الله عسكري "يقولوا إن جماعتنا
ليها دور في العملية دي".

احنا فين واليمن فين..

الطيران أسرع من البرق ..

هو عايز يبقى أسد وبطل القومية "كل الجرايد
بتقول عليه كده".

يمكن تبقة الجمهورية أحسن من الملكية..

واحنا مالناش دعوة بالكلام دا كله..

إزاي يا حسن خلّي العالم العربي كله بلد واحدة.

ودا هايفيدنا بيا به..

يبقى الإخوات وحده واحده ..

الوحدة ممكن تكون من غير تغيير النظام ..

بيقولوا إن فيه جيش من عندنا رايح هناك علشان
يسند الثورة..

دي حاجات كبيرة عليّ يابه " لغاية الجيش
والحرب والثورة وأقول استوب.

- ليه يابني ما انت كبرت وبتعرف تفهم برضه.

- برضه فيه حاجات مش بتاعتي لما أفهم اللي في الكتب الأول وأكبر شوية.

- خليك يابني مع الكتب، بس والله أنا خايف من الاندفاع ده وكاننا مسئولين عن كل بلد حوالينا واحنا لسه بنقول ياهادي والبلد عايزة تركيز جامد علشان نبنوها.

- ليه احنا بنحب نبقي فتوات " مش بكفاية نبقي رجالة حنتنا الأول.

- زي الراجل اللي عامل معلّم يُقعد على القهوة يصرف على أصحابه اللي في جيبه وبيته خربان مش لاقى يجيب رغيف عيش..

- هي دي اللي بيسموها العنجرة..

- هي دي الفرده في السياسة..

- يعني إيه ..

- حركة الانقلاب اللي حصلت في اتنين وخمسين كانت مغامرة ونجحت "العسكر بتوعنا عايزين يعملوها في كل حطة حوالهم جلبت معاهم، وعلى فكرة اللي بيعارض عبد الرؤوف الزلباني بيدبحه من سكات..

دبح مين يابه ..

دبح كثير لما تكبر تعرف حكايات كثيرة واللي
مايبندهش المعتقلات مفتوحة على الآخر ..

يعني فيه حاجات تحزن أحسن ما عرفهاش
علشان الدنيا ماتسودش أدّامي.

أنت عارف يا حسن بلكونة القطان ..

عارفها البلكونة اللي عند دوار القطان

كل يوم الصبح وبالليل باقعد مع أعيان البلد
ومحمود أبو خليفة يبقرا لنا الجريدة وبيعرفنا كل
حاجة بتحصل حوالينا ..

خليني على أدّي يابه .. ماقدرش أطلع من
المنذرة فيها العالم اللي بحبه .. شوف يابه الكتب
بقت كثيرة أوي دي كلها قريتها .. شوف الموسوعة
دي جبتها من مكتبة المجلس ..

فيها إيه يا حسن ..

كل فلاسفة ومفكرين العالم فيها ..

مش كلامهم صعب عليك ..

بافهم كثير منه .. أنت عارف إني بادرس فلسفة
في المدرسة ..

كتب المدرسة بسيطة بالنسبة للموسوعة..

تعرف يابه .. العالم كله بشوفه فيها ..

ليه هي سينما ياحسن ..

كل أدمغة الدنيا بيقولوا أفكارهم واجتهاداتهم..

في الكون والوجود .. إنهم جميعاً يبحثون عن الله ..

ويجدون الله في أفكارهم..

دي أكبر حاجة أسعدتني...

إزاي

كل واحد فيهم وصل إلى أن وراء هذا الوجود

كله قوة عظمى خارقة..

وقالوا أن وراء هذا الخلق خالق..

منهم من ذهل ومنهم من قال أن وراء هذا العالم

سر كبير وأن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون

المذهل..

والله إذا كان كده اقرأ...

نرجع لثورة اليمن..

بيقولوا ثورة .. إحنا في الإذاعة بنقول ثورة..

لكن في الحقيقة هي حركة من العسكر لخلع الإمام

والشعب مش داري بأي حاجة .. الشعب في البلاد
العربية لا يدري بما يحدث في قصور وجيوش
بلاده .. هي المشكلة في البلاد دي إن اللي بيقدر
يزيح الثاني بالسلاح ببذحه لكن مافيش إرادة
بتشيل حد..

يعني إيه إرادة..

يعني وعي شعب بينزل في الشوارع بالملايين
يهد الدنيا ويقول كلمته..

يعني السلاح والعصا يسبق إرادة الشعوب...

في مصر ماحصلش إن شعب نزل ولكن هي
حركة ونجحت والشعب قال ياكريم يمكن يكون
فيها خير لغاية دلوقتي مافيش حد شاف خير..
شوف عشر سنين وكأنك يابو زيد ما غزيت..
خطب وهتيفه ومرتزة سياسة وحزب واحد
وانتخابات مزورة..

يعني اللي بيحصل شكل جمهورية وشعارات
جوفاء ..

هي إجراءات ثورية يصحبها حماس وهتاف دون
مضمون..

مين الإخوان اللي كانوا جنبنا في الشعبة..

- ولا تعرف عنهم حاجة كل واحد فيهم فر في حنة
إلا واحد من بلدنا اسمه جمال فوزي عبد البر..
الراجل دا ماهر بش بره البلد زي ناس تانية هربت
للسعودية..

- دا راح فين.

- في المعتقل.

- هو منيني بلد.

- من الكفر..

- والله كفر بلدنا فيه الحب والجمال والجهاد فاكر
سميرة يابه..

- أنا فاكر لظيمة أم سميرة...

- أنا طالع زيك يابه .. إنت كنت بتحب لظيمة وأنا
بحب بنتها..

- سيبك أنت من الكلام دا .. أكبر شيء جميل في
الدنيا هو الحب..

- وهو مين يعرف الحب؟

- اللي يعرف الحب الكبير يعرف الحب الصغير ..

- الحب الكبير؟..

- هو حب الله ..

- والحب الصغير..
- هو الحب بين الناس..
- والجماعة بتوع الثورة دول يعرفوا إيه ..
- عندهم معنى واحد هو البندقية والعصا..
- والحب عندهم..
- أول حاجة عملوها ذبح وقتل واعتقال من خالفوهم..
- وتاني حاجة..
- سرقوا القصور ونهبوا الأراضي واسكتوا الأفواه وضيعوا الكرامة..
- إزاي وأهداف الثورة الستة..
- عشر سنين ولا هدف من الستة اتحقق..
- يمكن بكرة...
- العينة بينة ماهو باين .. ماهي بكرة باننت..
- مش فاهم أوي..
- سمعته بيقول إيه .. تأييد الحركات التحررية والثورية في العالم..

— أنا دلوقتى افكرت المدرسة.. للأمام.. هُـب شمال
.. كُلُه تمام..

— طول ما العسكري أبو بندقية بيقول كتفان سلاح
.. مين هناك .. وهو جعان مش لاقى ياكل .. هو
دا أول غلبان وأول كذاب.. يبقى بعد كده نقول
إيه..

— ياريت نبطلّ كله تمام وكفاية كذب.. ماهو طالما
بيكذب يبقى لازم يجوع.

— وكفاية حاجات كتير ياحسن..

— إيه هيه.

— بكره هاتعرف..

" الحرب ليست في مصر "

=====

كان أبي هو الذي أخبرني بثورة اليمن، ولما كنت أقرأ في موسوعة الفلسفة فغلبتني أقوال الفلاسفة عن ما يحدث حولي لكن القرية بمرور الأيام لم يكن هناك حديث بين الناس غير هذه الحرب خاصة أن القرار السياسي كان يساعد قائد الثورة للتخلص من الإمام البدر، وكان ذلك يُعتبر نجاحاً لقادة الانقلاب في بلادي حيث أخذوا على عاتقهم مساعدة كل الحركات التحررية في العالم وأولها العالم العربي، ولما كان وقت هذه الثورة هو نفس وقت إشراف دخول التلاميذ مدارسهم وجامعاتهم في أول أكتوبر عام ١٩٦٢، ولما كانت الموسوعة والروايات الأخرى التي استعرتها قد أبعدتني عن عالم الواقع حولي وكنت قد بدأت في داخل نفسي الشعور بالاستغناء عن عالم الدكاكين والسويقة وأحوال الغيط والبحر التي هي أقوى مظاهر القرية، إلا أنني أيقنت أنه لا حياة بدون الدكاكين والسويقة وغيرها في قريتي خاصة أنني لا أعرف شيئاً عن أخبار هذه الثورة العربية في اليمن، ولم تكن الجرائد ولا الراديو ولا كلام أبي كفيلاً بأن اضطلع على صدى ذلك بين أهل القرية، انتويت أن أذهب إلى أقرب دكان خلف بيتي ولم أجد أنني في حاجة إلى اصطحاب زملائي القدامى، جلست خارج الحانوت وحدي على حصيرة صغيرة وناديت صاحب الدكان وقلت له:

- نزلني شاي مع الناس اللي جوّه..

- طيب ما نيجي جوه يا أستاذ حسن
- عايز أقعد لوحدي..
- فراح صوت الناس من داخل الدكان يأتيني واضحاً:
- بدأوا ياخدوا عساكر ويبعثوها اليمن..
- واحنا مالنا ومال اليمن..
- هو الرئيس عايز كده
- إيه الخير اللي هايجيلنا من اليمن
- زمان في كتاب المطالعة قرينا موضوع عن
اليمن السعيد..
- مافيهاش حاجة غير القات وشوية عنب شجرة
هنا وشجرة هناك على سفح الجبل..
- طيب إحنا هناخد إيه..
- هانبقى قادة في المنطقة العربية كلها..
- وهانقبض فلوس من اليمن الجديد بعد ما
الأمور تستتب هناك
- إحنا أصحاب مبادئ.
- مبادئ إيه..
- مبادئ ثورية..

- يعني إيه ثورية إحنا لينا دعوة بالعيش والبتاؤ..
- الواد فتحى ستيته من ضمن الناس اللي سافرت مع الجيش اليمن..
- ومين كمان..
- دا أول واد يروح من بحري فيه ناس كتير راحت من قبلي والغرب..
- مش أهل العيال دي هاتأخذ فلوس..
- أيوة هاتأخذ فلوس كتيرة..
- طيب خلاص يعني الناس هانتبسط..
- والله ما حد عارف حاجة.. دا صح ولا غلط
- إحنا عارفين إن دا صح فيه غيرنا بيقول غلط..
- طيب فين مجلس الأمة..
- مجلس الأمة اجتمع ووافق مايقدرش يعارض لأن كل الأعضاء طالعه من حزب الاتحاد الاشتراكي وهو حزب وحيد في البلد بيوافق على كل حاجة يقولها جمال عبد الناصر وأي واحد عايز يعارض خايف يقول لأ..
- ياعم الناس كلها .. جمال عبد الناصر.

- وهو دا صح.
- صح علشان مجلس الأمة إيد واحدة..
- وبقية الشعب
- ساعتها مش إنت يا شعب الي منتخب المجلس..
- أقسم بالله مافيه عشرة من البلد راحوا اللجان الانتخابية والداخلية نجحت اللي على مزاجهم.
- طيب وليه كده ..
- هو كده من ساعة اتنين وخمسين واحنا ماشيين كده..
- إيد واحدة .. إيد واحدة..
- وهو دا صح..
- لغاية دلوقتي مش عارفين الصبح إيه والغلط إيه..
- طيب خليها ماشية كده طالما مش عارفين حاجة..
- يابو حجاج إنت تعرف أكثر منا.. إحنا كده صح..

- أنا بتاع حكاوي البلد لكن بره البلد ما عرفشي حاجة..
- أمال نسأل مين
- اسألوا أمين الاتحاد الاشتراكي.
- إنت كده سدتها طبعاً هايقول صح مش بياخد فلوس..
- والله يا جماعة إنتو قلقانين ليه
- مش دي بلدنا أمال نقلق على مين
- إحنا كلنا بنقلق بالكلام وما نقدرشي نتكلم في السياسة بره الدكان..
- اللي بيتكلم عن القلق أو يرفع راسه بكلمة حق بيروح مطروح..
- مش فاهمين..
- يا إما بتطير رقابته أو المعتقل مفتوح على الآخر..
- يبقى خيلنا نمشي ورا بطل القومية..
- أهو كدا نبقى ريحنا نفسنا..
- خيلنا في القطن والدرّة والكيماي..

- على فكرة يا جماعة في كل دكان دلوقتي مخبر
إحنا مش ناقصين..
- خيلنا في حكاوي النسوان أحسن حاجة تبلى
الريق وما فيهاش ضرر..
- هو جمال ما يعرفش في النسوان..
- ما يعرفشي ... دا صعيدي بكفاية عبد الحكيم..
- هو عبد الحكيم فلاتي..
- مش سايب واحدة حلوه في البلد إلا مخلص
معاها..
- وعبد الناصر ساكت..
- ساكت سواء رضي أو مارضيش لأنه ماسك
الجيش والجيش بيحبه علشان منغنخ الجيش
بالفلوس والمزايا..
- وبعدين فيه حاجة خال عبد الحكيم ساعد
الحركة في النجاح سنة اتنين وخمسين.
- كل واحد ماسك على الثاني زلة أو كاسر عينه
بحاجة..
- هي الدنيا ماشية عندنا كده شرا خواطر..
- خيلنا في حرب اليمن..

- على فكرة دي حرب شريفة علشان هاتحرر
المواطن اليمني
- هاتحرره من إيه..
- هي البلد لما تبقة ثورية غير ملكية..
- أقصد إيه اللي هايفاضاف على أي مواطن
يمني..
- الحرية .. الحرية..
- واحنا مالنا ومال حرية غيرنا..
- دي حاجات إحنا مانفهمهاش خيلنا في الأكل
والشرب..
- أنا سمعت من ناس قبلي إن اليمن مافيهاش
حاجة..
- معروف من زمن لازراعة ولا صناعة
وعلشان كده تلاقيها من يوم ما طلعت الدنيا
عمر البلد دي ماكانت مطمع للاستعمار.. هي
البلد الوحيد في العرب اللي مااحتلتها بلد لأن
بعد القات مافيش حاجة في البلد..
- يعني إليه القات..

- حاجة كده زي الدخان يقعدوا طول النهار
والليل يعضغوا فيه بعد كده الواحد منهم يروح
في دنيا غير الدنيا.

- وإيه الفائدة.

- لأن مافيش حاجة تانية يعملوها غير كده..

- يعني هي دي شغلة الناس هناك..

- كان فيه موضوع في كتاب المطالعة واحنا في
المدرسة عنوانه "اليمن السعيد" وإن فيه عنب
في البلد.

- العنب هناك طالع شيطاني على سفوح الجبال
وكل واحد في الجبل لو غني يبقى عنده شجرة
عنب مابتجيش عشرة أقطاف في السنة
مانقضيش عَيل من عياله.. مواضيع المطالعة
دي كلها كذب ومرع على الفاضي.. البلد دي
مافيهاش حاجة خالص..

- طيب واحنا رايعين هناك ليه..

- احنا اصحاب مبادئ.. احنا قادة الحركات
التحررية في العالم العربي ودي أول تجربة
يدخل فيها جمال..

- يعني لازم ينجح فيها.. طيب مين هاتدفع
رواتب العسكر هناك أكيد اليمن هاتدفع كل
حاجة..

- اليمن مافيهاش حاجة وماحدث جبرك إنك
تدخل هناك وتعمل ثورة أو تثبت النظام
الثوري هناك.

- هو اللي قام بالثورة اليمنية اسمه ايه..

- عبد الله السلال..

- يانهار إسود اسمه سلال..

وراح الجميع في ضحك متواصل ولما سكتوا قال أحدهم..

- ليه سلال هو مالقاش نسوان أدامه وعلشان كده
راح للإمام وشاله..

- ما هو الواحد لما مايلقيش ست يروح لها ممكن
يعمل جريمة ويقتل حد.. ممكن يعمل أي
حاجة.. لما مالقاش ست راح عمل ثورة..

- بس هو أكيد راجل جبّار..

- هاقول لكم حكاية عبد الناصر لما بعث له يبجي
مصر كان جاي من غير ما يستحمه ولا يحلق

- كان شعره فوق راسه زي فروة الخروف وكان
شعره مليون وغش.
- يعني إيه وغش..
- قمل وبق وبراغيت وكلها ماركة اليمن..
- وبعدين..
- كان فيه اعتقاد بين شعب اليمن إن الواحد
المفروض ما يستحمش كثير علشان الاستحمام
بيخسس ودا كان اعتقاد وعادات من زمان..
- وبعدين..
- قبل السلال ما ينزل من الطائرة بعت له واحد
حمّاه في الطائرة وريّحه، وبعث حلاق من
كوبري القبة حلق له شعره ولبسّوه بدلة جديدة
وجزّمة ونزل أرض المطار وصوّرّوه وجه
قابل جمال لكن مهما عملت فيه هو الخرّنش
خرنش..
- هي كده ماشيه بالعبط..
- هانقول إيه ولأ إيه.. لكن هو ده اللي سمع
أوامر جمال وقام على الإمام البدر وابنه..
- يالهوري يامّه تعالي عدّدي.

- أَعِدُّ عَلَى السَّالِ وَلَا عَلَى مِين..
- عَدِّدِي عَلَى أَيِّ حَدٍّ مَشَّ عَاجِبُكَ.
- بَصِّ شَوْفَ حَدِّ بَرِّهِ سَامِعْ كَلَامُنَا أَحْسَنَ نَرُوحُ فِي طَوَكْر..
- خَرَجَ أَحْمَدُ عَبْدَ اللَّهِ صَاحِبَ الدَّكَانِ لِيَلْقِيَ نَظْرَةَ عَلَى حَسَنِ الَّذِي وَجَدَهُ يَفْهَقُهُ فَقَالَ لَهُ:
- بِتَضْحَكُ عَلَى إِيَّاهُ يَا حَسَنُ أَفْنَدِي..
- عَلَى اللَّيِّ سَمِعْتَهُ
- وَدَخَلَ أَحْمَدُ صَاحِبَ الدَّكَانِ لِيَنْجِدَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ غَيْرَ حَسَنِ أَفْنَدِي فَهَزَّ كُلَّ مَنْهُمْ رَأْسَهُ وَقَالَ شَيْخُهُمْ أَبُو حَجَّاجٍ كَدَهُ إِحْنًا فِي أَمَانٍ فَقَالَ أَحَدُهُمْ:
- لِيَهُ يُمْكِنُ شَغْلُوهُ مَخْبِر..
- مَا فِيشَ حَدِّ شَبْعَانَ يَشْتَغِلُ مَخْبِر
- كُلُّ الْمَخْبِرِينَ فِي الْبَلَدِ الْهَلَا فِيتْ وَجَرَابِيعِ الْعَائِلَاتِ مَا تَلَا فِيشَ حَدِّ ابْنِ نَاسٍ مَخْبِر..
- طَيِّبْ بِكَفَايَةِ كَدَهُ يَا لَهُ نَقُومْ نَرُوح..

كان فيَّ البلده رجل يقولون عنه مجذوب وغيرهم يقولون أنه جاء من مصر مجنون، وهذا الرجل من سلالة الحلاقين في القرية لكنه سافر مصر (القاهرة) وهو صغير تاركاً أسرته من أجل رزق أوسع، عمل صبي حلاق رجالي في حي شبرا ولماً كبر تعلّم أن يكون حلاق حريمي حتى تفرج أسرار الرزق عليه، كان بديناً ولا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يسهر وعاش في غرفة بالسطوح في بيت قديم. يقع في حارة بحي الخوصي وهو أحد أحياء شبرا القريبة من الخازندار (جامع الخازندارة) ومرت الأيام وأصبح علي أبو أحمد من أمهر الحلاقين في الخوصي حتى أن النساء كانت تطلبه في البيوت ليحلق لهن، كان شاباً حلو اللسان بدين الجسد صحيح العافية، ولما اعتادت النساء عليه وهنّ من أسرّ العائلات الغنية بالحي كان علي يشبعهن حكايات ونكت أثناء تأدية عمله معهن، فقالت له إحداهن في مرّة أنا عايزة نكته سُخنة فحكى لها حكاية الحلاق الذي كان ضليعاً في تزيين شعر ووجه النساء، وهي من كان له يد أمسكه من يده واللي مالوش يد أجيب له يد من عندي.. وتداولت النساء نكت علي الساخنة خاصة أن النساء ليس لهن يد في الطبيعة وكانت كل واحدة تحتاج إلى اليد التي يضعها علي أبو أحمد لماً كان يحلق لهن بعناية، كان رزقه كثيراً فالمال يتدفق عليه من كل امرأة يعجبها حلاقة وحرفة علي في أداء عمله، ومرت الأيام وأصبح علي أبو أحمد يُطلق عليه الحلاق الفاجر

وتربص به كثير من أصحاب الكوافير الحريمي واتفق بعضهم على قتله لأنه سحب زبائنهم من محلاتهم، ولما كان أحد أقاربه الذين يعيشون في شارع الترعَة البولاقيَة يعرف عنه كل شيء فنصحه بأن يرحل من مصر إلى البلدة لأنه مقتول مقتول بما فعله من نقشيط الزبائن وتخريب محلاتهم وكانت أقصى ما أثر فيه أن قال له قول الرسول من زنا في غربته لا ردّه الله غانماً وإن ردّه غانماً لا ردّه سالماً" وكلما رآه قريبه قال له "إنجي بنفسك روح قبل ما تموت يا علي.. وفي مرة قال له علي:

- روّحني أنا من إيدك دي لإيدك دي..

ولما أيقن قريبه أنه صادق في نيته قال له:

- الأول سيب شغلك في البيوت "توب" وهات

هدومك وحاجتك وتعال عيش معايا قبل ما

تروّح.. عايزك تتوب توبة نصوحة وتغتسل

قبل ما تسيب مصر..

- إزّاي..

- ماتسألنيش

في أول يوم أشرف علي استحمامه وبعد أن نظّف جسده أمره بالوضوء وصلى الصبح في البيت، وبعد أن تيقن قريبه من حُسن نيته قال له .. لا عمل ولا بيوت ولا نساء ولا كوافير ولا .. ولا .. ومرّت الأيام فأمره بالصلاة في المسجد فطاوعه وأصبح من

رواد المسجد في كل صلاة، وكان كل ما جناه علي من مال أنشاء عمله مع النساء في بيوتهن قد ذهب في مهب الريح وقال له قريبه في يوم:

- شُفْتُ الحرام بيروح إزاي.. طيب معاك من الحلال من أول ما جيت مصر..

- معايا ميت جنيه..

- كويس.. روح بقى اشترى دار على أدك واتجوز واحدة من ولاد أبو أحمد.

- وبعدين..

- عدتُك في شنطتك واعمل لك زبون زي كل الحلاقين ماهي ماشية هناك..

- دول بيحلقوا بالميسائيه (مقابل دره وقمح في كل موسم)

- طيب وماله حلال.. مش قلت لك اتجوز واحدة تعجن لك وتخبزلك وتطبخ لك وتعيش زي كل الحلاقين في البلد.. طيب إنت في مصر بقالك عشر سنين عملت إيه غير الخيبة والحرام يا علي..

- أي والله كلامك صحيح..

- خلاص يا علي بكره ماشوفكشي في مصر..

- من الفجر..

- عارف موقف الخازندارة في أول عربية ماشية

الصبح لو شُفْتُكَ في مصر ثاني هادبحك..

" اشترى داراً تقع في درب فوقاني أقرب دار لمقابر البلد القديمة
والتي تقع خلف دوار القطان "

" وابتاع عدة حلاقة وشنطة وراح يشتغل زي كل الناس في البلد..
غير أن سحلوب فجأة بعد شهر راح يلف في بحري وقبلي البلد
ماشياً وراقصاً ومصفاً مردداً وهو يصفق:

- إن صبرتكم ما صبرتم أمر الله نافذ.

" التف حوله كل الهبل وأصبحوا جماعة مدلوشة وكان في البلد
كثير منها يقرب عددهم من عشرة، ولما معمعت حرب اليمن وبدأ
القتلى يعودون من حربهم هناك.. كان الناس في القرية يطلقون
عليهم شهداء اليمن.. كما تطلق الإذاعة والجرايد عليهم لأنهم
يحاربون هناك من أجل الحرية والتحررية والثورية.. فإذا قال
جمال هذا شهيد قال الناس جميعاً ما يقوله ومن لم يقل يختفي بالقتل
أو بالاعتقال أو بالبهذلة في نقطة البلدة.. أم الشهيد وأبو الشهيد
وأُسرة الشهيد، وكان الناس يضحكون في الدكاكين مرددين:

- إذا كان العيال مشيت من البلد وماتعرفش ريحة

فين وعلشان إيه ريحه اليمن..

- بقى فتحي ستيته حرامي الوز بقى شهيد..
- وابن ابو عوف طبال الميتين المعرّص القواد
بقى شهيد
- ومحمد الفيومي الحرامي وجمعه شلاطه بياع
الحشيش وسعيد أبو طنش أخو مرقوعة الغيط
ومراته في الدار فاتحاه على البحري بقى
شهيد..
- يانهار إسود على المسخرة طيب نقول القتلة
والشهيد دا يعرفه ربنا.
- دي كلمة كبيرة أوي هوّ مين يقول الشهيد..
- جمال ياجدع كل ما يقول كلمة إحنا وراه
أمين..

" ولم يستطع واحد من البلد يقول كلمة حرة علشان كل واحد في البلد عارف لو قال لأ لأي حاجة راح في طوكر.. ومن يقل خُراً فعليه أن ينزوي في الدكاكين أو في عشة عند البحر أو حول الراكية بجوار الساقية بالليل، الهتيفة والمنشدين والمنافقين فهم في العلن تحيا جلال عبد القادر ولم يترك رجل وامرأة أو عيل من القرية كلمة السلال إلا وردّدها على لسانه ضاحكاً وساخراً حين كانوا يحكون كيف حلقوا له وحمّوه وزينّوه في المطار قبل أن ينزل أرض الكنانة..

"ومرت الأيام فيها ترك علي سحلوب شغله وألقى شنطته في حجر زوجته قائلاً.

- ياعدويه روحي لأبوك أنا ماشي..

بحلقت في وجهه مندهشة:

- أروح لأبويا .. ماشي على فين..

- أنا هامشي من بلاد الله إلى خلق الله..

- إنت اتجنتت يا علي وبيتك وشغاك .. إنت
اتجذبت..

- أنا عاقل أوي وشوف الناس في البلد مش لاقيه
تاكل وانا واحد منهم..

- معلش هي البلد ماشية طول عمرها كده..

- لأ إنت مش داريه بالدنيا.. إنت عارفه جلال
يأكل الفول...

- أيوة عارفاه كان درس في كتاب المطالعة..

- أهو جلال ده اسمه اتغير وغيروا الدرس في
كتاب المطالعة بعنوان إن جلال يأكلنا الدود..

- مش فاهمة حاجة يا علي.. اقعد إهدى فهمني..

- أقعد إيه يابنت الفرطوس أنا طالع الناس
مستنياني هانلف البلد..

- ناس مين.. تلف البلد مع مين

- تعال ورايا وشوفي..

تقدمها نحو الباب فوجدت شلة من دراويش البلد ينادونه كل بصوته:

- يا علي.. يابو أحمد .. يابو طربوش ياله
عايزين نمشي..

إندهشت لما وجدت.. نادية بنت رزق وبرهوم بتاع قبلي البلد
ونبوية هبله الكفر وعبداه أبو حنة كوز وربيع أبو سرورة...
والدحدوح..

" شدوا على من جلبابه فشعر بالفخر لأنهم يدفعوه بأن يتقدم زاعقين
في نفس واحد:

- ياله قول واحنا نجعّر وراك..

عدل علي الطربوش الأحمر فوق رأسه فاهتز زر الطربوش يمنة
ويسرة وابتسم فاشخأ حنكه وصرخ:

- كله ورايا..

- يا جلال .. يا جلال يا حبيب البلايين.

- كُبه تطير أبو مركوب..

- من الفول والطعمية ومخل الليمون.

- رد علينا يا جلال رايح فين..

- اسحب ولادك من الجبال..
 - اسحب الغلاية الشرقانيين وارجع بلادك.
 - لا ثورة ولا بركان هانقبض إيه واحنا مالنا
ياجلال..
 - كفاية زعيق بشعارات لا توْدِّي ولا تجيب..
 - ياجلال إرجع وفوق شوف الولاد الجعانيين..
- " حتى دبح صوتهم في شرق وغرب وقبلي وبحري وكم سعد أهل
القرية بثورة الهبل على الوضع الخايب الذي انزلت فيه البلد..
وعند المغرب تمّ القبض عليهم من دورهم ورحّلهم في بوكس إلى
مركز آشمون وأودعهم السجن..



أيام قليلة وسأذهب إلى منوف لاستئناف عامي الثالث في المدرسة الثانوية وكان أبي حريصاً على أن أسكن وحدي في شقة أو غرفة مع أسرة، وكان المهم عندي ألا أقطن مع أي تلميذ من البلدة لأكون حراً في خصوصياتي، ومثل ما قطنت في العام الماضي وحدي في غرفة بسطوح أحد البيوت إلا أنني عندما شكوت لأبي من البرد والشمس حرص أن يجد لي شقة وحدي، بعيداً عن السطوح مهما كلفه ذلك من مال، وكان أهم شيء في حياتي الدراسية ومنذ العام الماضي أن ولدت عمي ذهباً إلى القاهرة لمواصلة دراستهما في مدرسة الأورمان بالدقي والثانوية التجارية الخاصة في نفس الحي، وأن عبد العزيز أخي انهمك في تجارة المواشي الوقيع مع أولاد شرارة بعد الانتهاء من دراسة في الصف الثاني الإعدادي وظل يعيش في البلدة مع أبيه وأمه بين الغيط في بيع البرسيم وبين البلدة مع تجار الوقيع.

" وكانت قراءاتي في الموسوعة الفلسفية وغيرها من الكتب قد عزلتني ذهنياً عن العالم حولي في قريتي فلما رحلت في عامي الثالث إلى منوف كنت قد انفصلت تماماً عن كل أحداث القرية ومظاهرها وعاداتها ورُحْتُ في داخلي أبحث عن أشياء أخرى في مدينة منوف وكان عالمي ينحصر في الذهاب إلى المدرسة صباحاً وأعود في الثانية ظهراً فانكفئ على تناول طعام الغداء وحدي في

شقة مكونة من ثلاثة غرف بالطابق الأرضي في بيت ملكة زوجة أمين النجار وابنتها زكية.. وبعد تناول الغداء أنام حتى بعد المغرب فأقوم لأستذكر دروسي في غرفة أخرى بها مكتب وكرسي.. وكنت حريصاً في أن أتناول كتاباً جئت به من مكتبة البلدة سواء كان رواية أو قصة إلى أن يغلبني النوم".

" مرة أنام بين الأوراق وكتبي فوق المكتب وعندما أصبحو في الليل أدخل غرفة نومي وأنام في سريري، مرّ شهر وشهران وأنا على هذا الحال إلا أنني في ليلة من الليالي قبل منتصف الليل سمعت طرّقاً رقيقاً على الباب، ولما تأكدت من أن الطرّق على بابي وليس بالباب الخارجي للبيت قمت وفتحت الباب وأنا بين النوم واليقظة .. كانت صاحبة البيت السيدة ملكة زوجة أمين النجار والتي فاجأتني قائلة:

- إذا كنت نمت أرجع..
- لا لأ .. اتفضلي حتى لو نمت اتفضلي..
- يعني مش هاضايكك..
- ابدأ والله..
- الدنيا برد مش كده..
- إنت بردانة..

- أبدأ أنا لابسـه كـستور وروب أنا بقول عليك إنت..
- .. ودخلت غرفة النوم وجلست فوق السرير وقعدتُ بجانبها وفأجنتني ثانية قائلة:
- أنا عايزه أنزلُك من زمان.. أقول لك أنا وحدانية وغلبانة وعايزة أتكلم معاك وبس..
- وجوزك لما بينزل بيتكلم معاك..
- أبدأ أهم حاجة عنده ينام..
- صحبة..
- أهم حاجة عند الست الراجل يصحى من نفسه..
- بس إنتِ حلوه أوي...
- صحيح..
- وجسمك حلو أوي..
- هو إنتِ شفته
- ماشوفتوش ماهو باين مش لازم الواحدة تقلع علشان أشوفها..
- يعني إنتِ شايفني كويس..

- أفلح لك الروب علشان تشوفني أكثر..

- لأ بكفاية...

- أنا حاسة إن الدنيا حر..

- أنا بردان..

- أدفيك..

- ياريت..

" أنا وحدي أقف على شاطئ البحر والبحر يرسل بزبدته قوياً فوق حبات الرمل، ومهما كانت الريح تهب فأنا وحدي أمسك بها، إن فوق سريري جنون وفي قلبي تنكسر الرحمة من قلب صغير جاز له منذ أن كان في الصف الأول مع منى زوجة الصول أن يجرب انكسار المرايا في عيون امرأة، ولما تكون هناك امرأة وامرأة أخرى تأتي بعدها فليس للقلب نبض ولكن في القلب نار تعوّنت أن تحرق امرأة بعد الأخرى، ليس في نفسي حدود تتوقف فوق حروف امرأة واحدة، إن البقاء يحلولي في التنقل من امرأة إلى امرأة أجمل منها وأشد.. لا مساء عندي ولا صباح لكنه ليل لا أرى فيه غير امرأة ظلمها زواجها فأنا حتى الآن ملاذ كل امرأة ليس لها زوج ليسكن فيها رياح الغضب ".

" وفي الصباح الأولى عند شقشقة النهار خرجت ملكة إلى شقتها وهي تبكي فجلست إلى مكتبي ورحت أدون .. ليس هناك من تصور للفلسفة أكثر من هذا الذي بيني وبينها من أول ليلة معها،

ولما كنت أبحث عن مدخل الرؤية في تصوُّري لهذا العالم فإنني
أجد الآن مدخلي إلى تلك المرأة يفوق أي مدخل يذهب بي إلى
التفلسف..

" العزلة خير من الواقع "

=====

كانت الحياة عندي صعبة لأنني لا أستطيع أن أعيشها مع الناس، بيني وبين الواقع حدود صامئة يتلثم لساني عن الحوار مثل كل الناس الذي يتعايشون مع أحوال الحياة حولي، فهل كانت لهفة أمي علي وإصرارها أن أظل معها في البيت خوفاً علي ومعاملتها معي بأنني شيء وإخوتي شيء آخر، فهم عندها مثل أنفار الغيط رغم أنها ولدتهم جميعاً من بطنها، ولن أنسى رعاية أبي لي والبوح لي بأسراره وبحكايات الناس في قريتنا وكأنني رجل كبير، فهل عرفت من حكايات الدنيا ما يفوق عمري أو يكفيني الاستغناء عن حكايات أخرى، جعلني هذا وذاك أبحث عن عالم آخر خاص فيه طموح يلح في داخلي، وهل تروي كل ورقة في كتبي الخارجية صورة أخرى من حياة أتخيلها، إن في كل كلمة أقرأها صورة مغايرة لما أرى في ذلك الواقع الذي أعيش، أكان في حكايات أم سلامة والشيخ علام سكينه باتت في نفسي حتى أن كل العالم مستقر في داخلي، أكان للدفء والحب والرعاية وأن أعيش حراً بين المدرسة وكتبي في صندوق سميرة والأخرى التي اشتراها أبي من سوق الأزيكية وأخيراً تلك الكتب التي استعرتها من مكتبة القرية، كان لذلك كله من عالم الكتب أثراً في انفصالي عن ما حولي من حياة، ومن الذي ساعدني على تلك الخصوصية في داخلي .. أكان جسد سميرة بنت الكفر وأنا في السابعة من عمري، اما كان جنون زوجة الخواجة.. أما كانت سيقان النساء التي انبهرت بها على حرف الترعة وبين

أعواد غيطان الذرة والقمح وفوق مراكب الصيادين في البحر الأعمى.. كان كل ذلك الذي مضى كوم والانفجار الذي شملني وطرحني أرض الغرام الحقيقي مع امرأة منوف زوجة الصَّوْل التي عشقتني وحدي دون غيري من الرجال.. وهل كان قتل منى زوجة الصول بأيدي بيوضه أهبل المدينة في الأجازة الصيفية قبل بدء عامي الثاني في المدرسة أثر في أن اشتاق إلى امرأة أخرى.. كل هذه الأحداث سواء كنت فاعلها الأصلي أو واحد من المؤثرين فيها جعلني في بعض الأوقات اشتاق لأن أكون قريباً من الله وأن أهجر أبداً عالمي الخاص الذي يجعلني أنغمس مع كل امرأة جميلة في رغباتها..

" كانت دروب الإيمان أقوى مني واعلى، وكان نهمي إلى مذيدي إلى كل امرأة تطرق بابي أشد وأقوى.. وهل كان في هذا العالم التحتي من النساء الفاتنات اللاتي ينسحبن تحتي ونحوي طواعية دور كبير في تذوقي لجمال الدنيا حولي وإن كل كلمة من جملة وحرف كلمة من كلمات الموسوعة الفلسفية أن أكون أشد انجذاباً لعالم النساء ربما أجد حلاً لفكرة أو فلسفة .. أكننت أرى في المرأة صفحة من صفحات كل كتاب لم أجد فيه واقع أمسكه فقلّبت صفحات النساء اللاتي يطرقن بابي طلباً لما في أجسادهن من لهيب، فهل النار تطفئ الكلمات وهل في أجساد النساء حلولاً ومخارج لأفكار الفلاسفة، هل ألعن الموسوعة الفلسفية المختصرة لأن ما فيها جعلني أكثر وأشد شوقاً لجسد كل امرأة فاتنة..

" كانت ملكة زوجة النجار تختلف عن منى زوجة الصول، ومن ليلة واحدة هجرتني دموعي على حياتي مع منى التي قتلها الأهل لمقاومتها له، وهو يحاول أن يغتصبها..

" في اليوم التالي من لقائها مع حسن نامت حتى أذان العصر... ولما قامت من رقادها وأخذت حمامها وسرحت شعرها وارتدت أجمل ثيابها وتعطرت قالت لها ابنتها زكية التي لم تكمل بعد دراستها بالإعدادي:

- ياه ياماما إيه دا كله ..
- إيه هو دا يا حبيبتني ..
- إنتي جميلة أوي النهاردة ..
- ابدأ يا بنتي أنا غيرت هدومي بس ..
- لأ لا .. إنت حاجة تانية النهاردة ..
- هاعمل إيه يا بنت هو فيه فائدة من الكسل ..
- ماما .. وسكتت.
- ماما إيه .. سكتي إيه ..
- إمبارح بالليل قمت ملقنكيش في سريرك " كنت فين ياماما" ..
- نزلت تحت ..
- عند التلميذ ..

- مش برضه أعرف اللي ساكن في بيتنا منين
بلد.. والله يابنتي دا واجب دا تلميذ صُغِير وفي
حاله أوي..

- إِنْتِ عارفه ياماما أنا قلتِ إِنْتِ رَحْتِي عند
خالي..

- إوعي تكوني رُحْتِي تَسْأَلِي عني عند خالك..

- لآ ياماما .. أنا نمت على طول..

- لو قمت تاني ومالقتيش إعرفي إِنْ أنا بعد
عشرة بالليل مابخرجشي من البيت..

- يعني أعرف إِنْك تحت..

- أيوة يابنتي دا واد غلبان أوي.. أكبر منك
بتلات سنين..

- ياعيني ياماما هو نونه " نونه ياماما " تَبْقِي
خديني معاك..

- إِنْتِ وراكِ مدرسة ماينفesch.. شوفي يازكية
من يوم ما تجوزت باباك ماحدش يعرف عننا
حاجة حتى خالك.. واللي تعرفيه من ماما
مايعرفوش حد تانِ حتى بابا..

- بابا في شغله ياماما وعایش مع نفسه ويس.. دا
حتى لما بيحي مایسألنیش عن المدرسة ولا
حتى بيقولي إزيك.. أنا عارفة دا بابا إزاي
ياماما..

- معلى يابنتي كل الرجالة الكبيرة كده لما
بتتجوز يبقوا مدهولين على روحهم..

- إتجوزتیه إزاي ياماما دا إنت زي بنته..

- يابنتي هي الدنيا ماشية كده.. في بلدنا مافيش
واحدة بتتجوز بمزاجها ولا إللّی على كيفها..

- يعني هابقه زيک ياماما.. هاتجوز راجل كبير..

- لا يابنتي ربنا ما يأمر... على العموم لسه
بدري ربنا بيخت لك..

- هاتنزلي النهاردة ياماما..

- انزل فين..

- تحت..

- ماعرفشي يابنتي .. لما ألاقى نفسي زهقانة
أنزل..

- تبقي غطيني كويس ياماما قبل ما تنزلي...

- طبعاً يابنت.. إنتِ النبي حارسك شاطرة
مابترميش الغطا..
- وخالي أو مرات خالي لو خبّطوا...
- عمرهم ما جم بعد عشرة بالليل ولو حصل
ما تفتحيش لحد..
- طيب ياماما عرفت.. تعالي نامي معايا شوية..
- ياله يابنتِ تعال.. وأنا عايزة أنام برضه..

كان العالم حولي يأتيني فأشعر بأنني ملك رغم أنني ابن فلاح،
الفلاحون في بلادي يملكون الأرض والتجار في منوف يعدّون
بواكي النقود والمراكبية ينثرون الشباك في البحر لصيد السمك..
كل من حولي يقبض ويمسك ويقفش إلا أنا، فانا أقرأ في الكتب
وأفتح للنساء الأبواب وأعشق البعد عن بلادي فلا يراني أحد
يعرفني ولا أحلى في الدنيا من غربتي التي أعشقها..
" وفي الليلة الثانية تسلّلتُ إلى حافية القدمين ولما دخلت في فراشي
كانها تألفه من سنين قلت لها أستهيك.. فقالت:

- ويلك من ناري..
- ومن قوة نارك نزلت عارية..

- أريدك أن تتزوجني في كل يوم أنزل فيه وأمنحك جسدي..
- ألم أتزوجك بالأمس..
- إنسي إمبراح.. احنا من النهارده.. في كل يوم إنسي فيه إمبراح وابتدي من جديد..
- إنت نزلت علي من كل العصور السابقة..
- عرفت قبلي امرأة ؟
- حتى لو عرفت..
- هانسيك اللي عرفته أنا ست لم تتزوج بعد...

"إذا كان للموج نهر فهذه مدينة فكيف يكون لأهلها أنهاراً تتعم بها أجسادهم وهي من غير نهر، لكل مدينة أمواج ونهر فيها يختفي الكثير لا يراه إلا الذين يعرفون شيئاً آخر غير واقعهم ويبحثون عنه، ولكل مدينة أسوار تشحن خلفها الأحوال السيئة في البلاد، لا أحد يستطيع أن يزعم بالحرية مادامت المدينة يحكمها رجل يرفع العصا بيد وبالأخرى يصبّ البندقية للصدور، فإذا اختفت صدور الرجال خوفاً فماذا إلا أن تهرب صدور النساء في أول عربة إلى أي مجهول خوفاً واهلماً من رجال حكموا لا يعرفون أي معنى للحرية والعدل والإنسانية، والحرية عندهم كلمة يقولها من يمسك بالعصا الغليظة والعدل أن يسرق العسكري ما يكفيه ويكفي أولاده ويبرطش ببقية ماله فوق رؤوس العباد الذين دهسهم بالأقدام وصنعوا طبقة من العبيد جديدة غير طبقة عبيد الزمن القديم، والإنسانية عندهم برطوشة غشيمة هي مجموعة سلوكيات.. حمورية تنهق ليل نهار مثل حمار" كنت أظن البحر الأعمى عند حدود قريتي يعيش حوله مجموعات من المزارعين والصيادين جهلة العقل والقلب ولذلك فهو مسدود لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم.. وكن أفكر أملاً عندما آتي إلى مدينة منوف أنني سأجد عند حدود هذا البحر قلاعاً للحرية والعدالة ورجالاً أحراراً..

" لم أجد شيئاً ولكن وجدت رجالاً يضعون المراكب والحصير
والسردين في شارع الملاح وشوارع أخرى محيطة بأخر حدود
البحر الأعشى، وفي شارع المستشفى صلاح السقا مدرب
المصارعة وبالليل في المدرسة الثانوية يتم مزاولة ألعاب كمال
الأجسام والسلة والكرة الطائرة ويشرف عليها كمال خربوش رئيس
مجلس المدينة أما بقية المدينة مثل أي مدينة بيوتاتها خاوية
وحناطيرها تقطع الشوارع في قسوة ومن محطة القطار يطلق
القطار الراحل والقادم صفارته الزاغة مثل تعبير جاموسة سابت
في غيط برسيم .. وعربات السويبة والسجق والترمس والمشبك
والحلويات وأخرى للقول ولحمة الرأس تملأ كل ميدان وعند كل
ناصية وأغلب زبائنها تلاميذ المدينة من كل القرى.. مدينة منوف
هذه أكبر مدينة تجارية في مديرية المنوفية وهي أكثر المدن
حضارة وتجارة وحرقة عن بقية مدن المديرية التي مازلت متخلفة
كثيراً عنها في ذلك الوقت أول ستينيات القرن العشرين.

كان العام الدراسي الثالث من أثقل السنين في حياتي ولولا ملكة
زوجة النجار لا أعرف كيف كانت الأيام ستتقضي في مدينة ثقيلة
على صدري " انغمست في الهوى، وفي كل ليلة بحثت عن ما
غوى واختمر في جسدها وجسدي وشعرت بأنني أكبر سارق
للمدينة، أمواج تتصارع في داخلي فهل يكفي الصراع وأظل أخون
المدينة.. وفي ليلة قلت ومن قال إنني أخون: ألسن أطيّب جراح
الجوع عند امرأة وأزرع القمح في طين يابس لم يكن فيه قبلي

سنبله، تحركت الحياة في قلب امرأة وحلفت أن تكون عشيقتي كل ليلة قبل منتصفه، ألم أسكن الوجد في شوقها.. وفي ليلة قالت لي:

- استحلفك أن تبقى معي في منوف..
- كيف .. سوف أنتهي هذا العام من دراستي وسوف أغادر منوف إلى القاهرة..
- وكيف أعيش بعدك في ليل طويل ومن يطفئ لوعة الشوق عندي غيرك.. إذا أجرت الشقة لشباب المديرية جميعاً فلن أجد فيهم حسن..
- سوف آت لزيارتك..
- بأي حجة تأتي.. أيمكن لك أن تبقى هذه الشقة باسمك ما حييت..
- لا يستطيع أبي دفع إيجار شقة في منوف وشقة في القاهرة..
- لا أريد إيجاراً.. لكن سأبقيها لك.. تستطيع أن تأتي إلينا كل خميس..
- لا أعرف ماذا سيحدث غداً.. دعينا الآن نقضي ليلتنا وبعد ذلك نفكر فيما تأتي به الأيام..

" زوجة عازف الجيتار "

=====

كان لملكة زوجة النجار أخ اسمه محمود يعمل مدرساً للموسيقى في إحدى المدارس الابتدائية بمنوف، ويعمل في نفس الوقت عازفاً لفرقة موسيقية تقيم الحفلات العامة والخاصة في المدينة وغيرها من المدن والقرى وهو مشغول تماماً بعمله الفني ليل نهار، يسكن في بيته الذي ورثه عن أبيه في مقابل بيت شقيقته، وكان له زوجة جميلة مهما تجمّلت له وتزينت فهو يمر عليها مر الكرام.. يعاملها معاملة رقيقة حسنة لطيفة حتى وهو معها في الفراش يقضي معها حاجته يقول لها كلاماً طيباً ويحكي لها عن الموسيقى وعن حفلة الأمس التي أقامها رئيس المدينة وعن وعن .. وفي يوم قالت له من شدة ضجرها بمرور حياتها معه مرور الضيوف:

- عُمرِكَ ما بوسّتي من شفايفي..
- ما تخديش في بالك أوي ياسوسن..
- هو فيه واحد بيشتغل بالفن لا يمارس الحب مع مراته زي الناس..
- بأحسن إنك مشغولة أوي بالبيت.
- وببك مشغولة .. أكثر من كده أعملك.. اتزوق وألبس وأغني وانت ولا هنا.. هو إنت ليه عايش تتش معايا..

- من بكرة هابوسك ياسوسن..
- هي عمرها ماتجيش كده .. وسكتت ثم تابعت..
- لازم تكون بتحبني علشان تعمل كده طبعي.
- البوسة .. قول القبله هي عنوان الحبايب أي
- اتنين سواء متجوزين أو من غير جواز حتى..
- معلى ياسوسن.. حقك علي..
- برضه مش عايزة حق ومستحق.. دا شعور
- بيحي لوحده مش عايزة كلام ولا حديث..
- إحنا لو قعدنا نبوس زي ما بتقولي هانخلف ..
- آدي إحنا بقى لنا عشر سنين متجوزين
- ماجلناش لا بنت ولا ولد .. يعني لما نبوس
- هانخلف..
- ياخسارة على الموسيقى اللي شغال فيها ليل
- ونهار.. لما انت فنان وده فكرك وكلامك أمال
- الفلاح اللي في البلد يقول إيه ولا العامل في
- المصنع بيعمل إيه مع مراته.. على فكرة اسوأ
- حاجة في حياتنا إن الراجل مايفهمش الست
- عايزة إيه..

- يا شيخة يالّهِ بلاش فلسفة تبقي روعي أقعدي مع
أختي ملكة أمي برضه بتشتكي من أمين..
روعي ليها لما تزهقي إحكوا همومكم لبعض..
- أقوم أرقص شوية يمكن تتغير.
- أرقصي مع نفسك بقي.
- وإنّ رايح فين..
- تعبان من الحفلة هاقوم أنا .. تصبحي على
خير..
- طيب خلاص هاروح عند ملكة..
- روعي لما ترجعي ماتصحنّيش..

" ولم يكن في البيوت القديمة في تلك الحارات المتفرعة من شوارع
جانبية شيء يثير الجلبة أو غريب من قرية هنا أو هناك، إن سكان
تلك المنازل الصغيرة جميعهم من المدينة.. لهجتهم واحدة وعاداتهم
وتقاليدهم لا تختلف عن بعضها الآخر إلا في قليل من التفاصيل،
ولم يكن في هذه البيوت المحيطة ببيت محمود الموسيقى وبيت ملكة
زوجة النجار غير حسن ابن القرية البعيدة..

وكان الرجال في العادة منصرفون إلى أعمالهم وتجارتهم وحرفهم
في تلك البيوت الخمسة التي تكوّن نهاية تلك الحارة ومن ضمنها
بيت محمود الموسيقى وبيت أمين النجار وهما في الحقيقة بيت
امراتان هما ملكة وسوسن، فالبيت هو بيت من يكون فيه ليل نهار

وليس لرجلان يسرحان في الليل والنهار من أجل لقمة العيش في مدينة شبين كما يفعل النجار وفي الليل حيث ينشغل الموسيقي بحفلاته.. المرأتان في هذه البقعة من المدينة ينأمان طيلة النهار ويطبخن في قليل من الوقت ويتسوقن من يوم إلى آخر ساعة أو ساعتين من بعد ظهر أي يوم أو في المساء ثم يُعدن مسرعتين إلى البيت..

" وكانت ملكة قد حجزت مكاناً لها عند حسن بعد منتصف كل ليلة ولم تكن تدري أن هناك امرأة أخرى تريد أن تخترق الباب المقفل من الداخل.. فهل تتصارع سوسن معها على حسن، وكيف تفعل ذلك امرأة الموسيقي وهي أخت زوجها.. فكيف يكون لها موعداً خاصاً قبل أو بعد منتصف الليل قبل أن تنزل ملكة إليه أو بعد خروجها من عنده بعد شقشة كل صباح..

" ومكر النساء بلا حدود وعند سوسن حدوده ينصب على شعورها بدون أدنى شك بأن ملكة لا يمكن أن تترك شاباً يافعاً مثل حسن في حاله، وتأكد لها ذلك في صبح يوم وقت شقشة النور عن الظلام وهي تنشر غسيلها في حبل البلكونة المواجهة لفتحات درج بيت أمين النجار.. وجدت ملكة منكوشة الشعر بقميصها العار الاكتاف والصدر وهي تصعد الدرج إلى شقتها.. وتأكد ظنها فبصقت رزازاً فوق أرض الشارع قائلة وهي تسمع نفسها:

- آه ياوسخة .. آه يا شر.. صدق ظني أدام عيني..

وبعد أن انتهت سوسن من نشر غسيلها جلست فوق كرسي بالفراندة تراقب درج بيت أمين.. فهل تنزل ملكة مرة أخرى عند حسن.. واشتعلت النار في صدرها.. كيف تكون هي الأخرى نزيلة بيت هذا الشاب وهو المنفذ الوحيد أمامها لتروي ظمأها من رجل.. أن تواجه ملكة وتهددها بالبوح لأخيها أو لزوجها.. أو تصارحها بمشاركتها حسن ليلة بعد أخرى..

"سوسن امرأة رشيقة القوام متأهبة النهد كحيلة العينين.. خدودها ورد أحمر في جناين تقع قرب نهر وخصرها نحيل يعلوا أردافاً ملفوفة، وتلك قامة تفوق غصن بان وهي رغم وحشيتها التي بدأت تتنابها منذ رؤيتها ملكة وهي تصعد الدرج.. سوسن هذه رقيقة مثل نسيم لفح خدود الورد عند الفجر.. كيف لها أن تشبع رغباتها وليس في بيتها يقطن شاب مثل حسن.. إن بيت ملكة واقع تملكه شقيقة زوجي فكيف يمكن زحزحتها قليلاً عن ذلك الواقع المهيأ لها ولو بعض الوقت؟

"ملكة تعترف بسرها"

=====

"كانت علاقة الود والألفة بين سوسن وملكة قد نشأت بينهما منذ عشر سنين وفي وقت زواج سوسن من محمود .. مثل كل امرأتان تقشران البطاطس معاً وتقطفان الملوخية وتقيان الأرز من الحصى وكالعادة تحكي كل منهما للأخرى بعض ما يحدث مع زوجها فتقول ملكة لسوسن ضاحكة:

- إنت أحسن مني على الأقل محمود من سنك..

تجاريها سوسن:

- ممكن يكون من سني بس مشغول عني وعمره ما يركز معايا ليلة واحدة..

- لكن هو أحسن بكثير من أمين جوزي.. دا أمين خلصان.. شوفي ثلاثين سنة مش شوية.. إنت عارفة هي مصمصة العضم تشبع..

- أسمع إن ممكن يكون راجل كبير بس زي الحديدة.. بصراحة ياملةة محمود طري أوي مالوش.. يدوبك ويروح ..

تضحك ملكة وتضربها بعود الملوخية على ساقها العارية:

- بطلي يا قحبة الكلام عن أخويا..

تلم سوسن ساقياها وهي تتوجع:

- أد كده إنت غلسة..

- إحمدي ربنا إنك اتجوزتي محمود... هو فيه حد
أدّه في الألحان..

- ياريتّه ما كان فنان هوّ الراجل بصحيح فنان
في السرير مع مراته وكل الباقي مش مهم..

- يانهار إسود عليك ياسوسن دا إنت فاجرة
بشكل..

ثم تنتهي أعمال البيت بينهما من يوم إلى آخر وتذهب كل إلى
بيتها، إلى أن جاء اليوم لتقضي كل منهما نتف وجه الأخرى
وبعض ما ظهر من الشعر فوق الساق والجسد.. وهو الذي تصر
فيه ملكة أن تقفل باب الغرفة بعيداً عن عيون ابنتها الصغيرة والتي
لا يجب أن ترى هذه الأعمال فهي مازالت صغيرة وبدري عليها
حتى تعرف كيف تتظف النساء أجسادهن عندما يصبحن زوجات
حتى وإن كان الأزواج غير مهتمين أو غير فالحين مع زوجاتهم،
فهذه عادة النساء مع بعضهن إن كنّ أقارب أو أصدقاء أو جارات..
" في هذا اليوم وسوسن تقطف الشعيرات الزائدة في حاجب ملكة
قالت وكأنها تتحسر على حظها:

- يعني هوّ أمين ببشوفك إلا كل أسبوع...

- مش مهم أسبوع أو شهر.. المهم اللي بيْفهم
ويَقْدَر..
- ياسْتِي محمود كل يوم معايا ولكني ست معاه..
أنا حاجة كده زي أخته..
- إذا كان كده بصحيح يبقى إحنا الاثنين حظنا
إسود ..
- يعني مافيش حل ياملكة..
- الحل هانعمل إيه..
- يعني الواحدة مننا ماتشوفش حالها بقي..
- الواحدة مننا مهما حصل ماتقدرشي تعمل
الغلط..
- يامكاره.. وتضحك .. يامكاره ياملكة..
- مش فاهمة..
- وحسن..
- حسن مين..
- حسن اللي تحت..
- فيه إيه..
- شوفتك إمبراح وأول امبارح طالعة من عنده..

- أنا..
- أيوه.. ومتبهدة كمان.. ولبسة شفتشي وشعرك منكوش..
- إنتي بتتهميني ياسوسن.. بقى ده كله شوقتيه..
- شفتك بعنيه دول وإنت زعلانة ليه هو أنا هاقول لحد..
- يعني بتهدديني...
- ماقدرشي ياملكة دا إنت حبيبتي..
- يعني وبعدين ياسوسن..
- ولا حاجة خليني أسهر معاكم..
- أنا مابسرشي مع حد .. يمكن لما شوقتيني ... كنت بصحيه علشان يذاكر أو باخد منه الإيجار أو .. ياريت ماتتكشيش ورايا..
- أنا بانكش برضه.. مش أكثر من كلام معاك..
- يعني محمود بيجي على وش الفجر.. خديني معاك شوية..
- مهما كان كلامك ناعم معايا.. إنت بتهدديني بشكل لطيف..
- خلينا سوا ياملكه .. في الحلوة والمرة..

- هو أنا أكره لك الخير..
- النهاردة هانزل عشان خاطرك وهانشوفي بنفسك الواد ده برئ أد إيه ولا إيه في أي حاجة بتفكري فيها..
- استغفر الله ياملكة هو أنا بقول لا سمح الله فيه حاجة.. زي ما بيقولوا نقضي وقت وخلص.. خلينا حبايب ياملكة..
- وبعدين يا سوسن..
- ولا قبلين .. نفسي تفهميني وتنقي فيّه.. خلينا حبايب زي كثير من الستات بيقضوا حاجات البيت سوا وبعد كده بيحلوا مشاكلهم ودا بييجي بشوية حب..
- إنتِ دحلاية يعني مكتوب عليّ أشوف حالك..
- حالي وحالك هو حال كل ست في رقبة راجل وسايبها..
- هي المشكلة في بلدنا إن الرجالة سايبه الستات تضرب تقلب..
- زي السمك في البحر عايز اللي يصيده..
- وكل ما بيكثر السمك بتكثر الصيادين..

- المشكلة عندنا الستات بتكثر والرجالة بتقل وتبعد..
- برضه مش دي المشكلة .. المشكلة الراجل يفهم الست عايزه إيه...
- يعني لو فيه عدل أتجوز راجل أكبر مني بثلاثين سنة.
- المشكلة الأكثر خوف الأهل على البنت ما تتجوزش.
- الناس هاتعمل إيه بتحل المشكلة بمشكلة والموضوع من أوله لآخره على دماغ الستات..
- مشكلة ورا مشكلة والست بتصبر وأخرة الصبر بنتوه في عالم بيتحكم فيه الرجالة..
- طيب وبعدين..
- وبعدين الست بتعيش في عالم محكوم عليها تجري ورا الرجالة..
- وهم فين الرجالة.. الرجالة بتجري ورا لقمة العيش وما فيش رجالة واخدة بالها من الستات..

- وعلشان كده بندور على التلاميذ اللي بعيد عن
أهلهم..

- الواحدة منّا لما بتدلّع مع عيّل من دول هي
بالنسبة ليه عالم ماكنش يحلم بيه..

- وبرضه بالنسبة لينا فرصة وخرم إيره بيدخل
منه شوية هوا..

"ليلة رقصت فيها سوسن"

=====

لم تكن سوسن في يوم قد رقصت لزوجها من قبل لأنه لم يكن يدفعها إلى ذلك.. إنه الرجل الطري،، فهي بطبيعة المرأة لا ترقص لرجل لا يفهم معنى أن ترقص له زوجته وإذا رقصت فلا شيء يأتي بعد الرقص كأن رجلاً يرقص له، ولما فرغ صبرها منه قالت له في يوم:

- لا فائدة منك. إنت يامحمود بلا معنى..

وكانت تحدث نفسها قائلة.. إن الذي يدفع المرأة أن ترقص أمام رجل هو رغبتها منه، إنها تريد فتغريه.. هي ترغبه فترقص له حتى تحصل منه على حاجتها منه.. وفي يوم قال لها:

- مافيش فايده مني مافيش حاجة بتحركني..
روحي أرقصي مع ملكة أختي، هي برضه
مش لاقيه حد ترقص له..

- بصراحة إنت ماعندكش دم.. إنت البعيد
ماعندكش عرض.. نفسي أعرف إنت من
الأول بتتجوز ليه..

- ولم يبال وقام إلى جيتاره يعزف.. ودخلت
سوسن إلى فراشها في أودة نومها تعصر
أحزانها في دموعها التي انهمرت من شدة

لوعتها وحيرتها.. راحت تبكي إلى أن غابت
في نوم عميق حزين حتى طلع النهار.

" والد سوسن من قرية تتبع مركز منوف كان يعمل عاملاً فنياً في
أشعة القصر العيني القديم ولم تلد له زوجته غير سوسن ولما ماتت
زوجته كان يريد أن يتزوج بأخرى في بيته الصغير بحارة مسعود
المتفرعة من شارع البطل في حي الترعة البولاقية بشبرا مصر،
ولكن سوسن رفضت أن يتزوج أبيها من أخرى بعد أمها.. وكان
هذا الرجل غليظ القلب يعامل ابنته في جفاء فأرادت سوسن بينها
وبين نفسها أن تخلي له البيت بطريقتها فقررت الخروج من البيت
تتمشى في شوارع الترعة وشارع شبرا ولما تتعب تعود إلى بيت
أبيها، كانت تعود في أي وقت من النهار أو الليل فلا يسألها أبو
العنين هريدي أبوها عن أين كانت وإلى أين تذهب ولماذا عادت
متأخرة.. كان ذلك بالنسبة لها عالماً فقيراً ضيقاً محدوداً ولكنه عالم
مفتوح وبلا حدود فيه الحرية مثل رائحة دكان ضيق يمتلئ برائحة
البخور الخائفة.. وهكذا كانت كل البيوت في الحارة والحارات
الأخرى الملاصقة والمجاورة والتي معظم أهلها من الطبقة العاملة
القديمة والذين هاجروا من قراهم في الخمسينات واستوطنوا في هذه
البيوت الصغيرة القديمة، ولما أحيلوا إلى المعاش اشتروا هذه
البيوت وكان ذلك يعتبر نجاحاً كبيراً لكل منهم، فلما رحلوا من
قراهم لم يكن يملك الواحد منهم إلا الجلابية اللي عليه وفي ليلة من
الليال وصلت سوسن إلى بيت أبيها بعد الثانية ليلاً فدخل عليها
غرفتها قائلاً وهو يجلس على كنبه بجانب سريرها الذي تنام عليه:

- اسمعيني كويس .. وهز رأسه وسكت بره..
- قول يابه.. سكت ليه..
- كل ليلة بتخرجي وتيجي وقت ما يعجبك..
بتروحي فين.. |
- وساكت ليه يابه مش تسأل بنتك..
- بتروحي فين ياسوسن..
- النهاردة أول حصة في معاملة الزباين وبكره
يمكن أتعلم الرقص..
- وبتكلمي في منتهى البرود يعني إنتِ هاتبقي..
- أيوه يابه.. مش أحسن من اللطعة اللي أنا فيها
دي..
- ولا لطعة ولا حاجة هو حد بيحاسبك على أكل
ولا شرب..
- طيب النهاردة إنتِ عايش وبكره بعد عمر
طويل يابه.. هاكل منين..
- من معاشي..
- معاشك ماينفعنيش هاعيش في فقر طول
عمري، وعمري ما مطلع من الترة البولاقية.

- بس ماتجمعيش.. الترة مليانة ناس مبسوطه..
إحنا اللي في كوانين الترة زي أي كوانين في
أي حي شعبي.. ناس غلابة وتعبانين.

- إنت دخلتني يابه في موضوع بعيد عنا..
مالناش دعوة بالشوارع الكبيرة ولا حتى
بالناس اللي في الكوانين.. خلينا في نفسنا
يابه..

- اشتغلي في أي بيت مش عيب يابنتي..

- إمكانياتي أحسن من كده بكثير.. على فكرة يابه
فيه بنات كتير زمايلي خدوا دبلوم تجارة
واشتغلوا في البيوت.. الحلوة منهم بقت صاحبة
صاحب البيت وأولاده بالرخص.. وفي الأول
والآخر بتشتغل طبخة ولا شغالة وبتترقد
بالرخص علشان تستمر الدنيا معاها في كذا
بيت.. دا حال أي واحدة بتشتغل في البيوت
وهو دا النظام اللي ماشي..

- طيب اشتغلي بالدبلوم..

- شهادة مالهاش لازمة ماتساوئش برضه
بالرخص وإذا اشتغلت في أي محل أو شركة
أرد على تليفون برضه لازم أمين مع صاحب
العمل..

- وبعدين .. والحل ..
- الحل زي مانا خدت طريقي كده .. هاتعلم الرقص وازاي اعامل الزباين وأخذ طريقي زي زمایل لیه خدوا طريقهم .. إمكانياتي هاتتفعني يابه ..
- يانهار إسود .. إنتِ عارفه آخره الطريق دا ييه ..
- عارفه ..
- وراضية ..
- يابه كله بيرقد .. الناس في بلدنا بترقد نسوانها وكل واحدة بترقد بطريقتها وغصب عنها كله بيرقد على أد فلوس اللي بيرقد ..
- يانهار منيل وعرفتِ دا كله إزاي ..
- أنا عارفه دا كله من قبل ماخد الدبلوم ..
- الحل هوّ الجواز ..
- مش بايدي الجواز يابه ..
- حتى اللي بيتجوزوا كتير منهم بيخرجوا من بيوتهم لأن البيوت مابتكفيش أصحابها .. كله برضه بيخرج علشان الزيادة ..

- أنا ربيتك من القليل وأمك عمرها ما بصت
للزيادة.. إنت يابنت بتقولي كلام جديد عليّ..
- كل الجو دلوقتي بين الناس كلها عايضة زيادة
مافيش حد بيرضه بالقليل والقليل بيموت من
الجوع..
- والحل..
- الحل مافيش حد غني هايأخذ بنت غلبانة من
حارة زي دي وأبوها برضه كان غلبان
بيشتغل طول عمره تومرجي في مستشفى..
- يعني بعد دا كله مش عاجبك اللي ربّاك وعملّك
بيت ملك..
- كتر خيرك يابه.. إنت مش قادر تفهمني..
- لو رضيت بالقليل هاتعيش وتبقى عال.. لازم
تتجوزي ياسوسن مش هايנفع كده..
- خلاص يابه جوزني.. بس راجل يكفيني
علشان ما فكرشي أخرج للشارع..
- هي البنات اتجننت ولا إيه.. إيه الكلام الغريب
ده..

- البنات اتجننت لأن الرجالة اتجننت .. خلّلي
الرجالة تبقي رجالة وبالطبعي البنات هتبقي
بنات..
- الجواز يابنت هو الحل طالما وصلت للحالة
دي..
- مش أي جواز يابه..
- وتتهنت وقمت من أمام أبي .. بعد هذا النقار..
- وبعدين ياسوسن قولي..
- أقول إيه هو بعد كده قول..
- أبوك اتغم من كلامك..
- بعيد عنك جت له حسرة واتشل بعدها..
- وبعدين..
- سافر منوف عند واحد قريبه يزوره جالي
بمحمود يتجوزني..
- ربنا كرمك بجوازة..
- أنا فرحت بالجواز وفرحت علشان أبويا يفرح
ويخف ويطمئن على بنته.
- وفرحت بإيه كمان..

- ربك والحق فرحت علشان ماکمّش طريق
الرقص لأنني كنت عارفه إن الطريق دا مليان
رجالة.. لكن..

- لكن إيه..

- بعد ما تجوزت بأسبوع عرفت ليه الحسرة
بتيجي للبنات مننا..

- مش قادر أفهم أوي..

- محمود فنان وعازف مشهور في الحفلات لكن
في البيت هو والكرسي واحد.. مافيش رجولة
خالص.. انتظرته أسبوع واثنين وشهر يدخل
عليّ ويتجوزني زي ما البنات بتتجوز ..
مافيش مافيش يا حسن.. عشر سنين وأنا زي ما
دخلت زي مانا دلوقت..

- يا نهار إسود وطبعاً مافيش خلف..

- الخلف يجي منين يا حسن..

- والحل..

- الحل لازم أرجع بيت شارع التريعة تاني..
لازم أطلق..

- وأبوك..

- مات بعد ما تجوزت بسنة.. أهو اطمئن عليّ
وبس..
- والطلاق مشكلة..
- مشكلة مع كل الرجاله في البلد بيزلوا الست بيه
وبيساوموها عليه
- فرضاً إن محمود طلقك هاتعرفي تعيشي في
مصر لوحدك..
- أعيش زي كل الناس.. أنا أحسن من غيري
عندي بيت وأكتب على معاش أبويا..
- وبعدين ..
- زي أي واحدة عايزة أتجوز وأجيب ولاد ..
لكن هوّ دا بكيفي..
- ولو ماجاش عريس هاتبقي وحدانية في شبرا..
- الرقص مفتوح لكل واحدة حلوة والدنيا واسعة
وحرة وهي سكة مالهاش آخر ولكن أحسن من
الدنيا اللي أنا فيها..
- هي ملكة مش هاتنزل..
- هو أنا مش مكفياك.. هي كانت عيانة شوية
الصبح..

- يعني يمكن ماتزلشي..
- هي ملكة بترقص زيي..
- عمرها ما رقصت.. ملكة بتعرف ترقد بس..
- ملكة كُبه لما تشوفني هاتعرف يعني إيه
سوسن..
- بعد ما عرفت حكايتك حسيت بأن الدنيا
ضلمة..
- وبعد ما ارقص ليك هاتشوف الدنيا بتتور..
- ياريت..

" من هذه الليلة الحيطان ستر "

=====

" عندما ذهبت سوسن مع صديقة لها تدعى فريدة إلى أحد معلّمي الرقص الذي يؤهل البنات للعمل في المراقص قال لها:

- أدخلني القوضّة واقعلي هدومك..

خجلت لأنه قالها بلا حياء.. فقالت لنفسها ماخلاص ياسوسن ما فريدة فهمتك إن دا علم مافيهوش عيب ولا كسوف.. خلعت وتدارت خلف ستارة فدخل عليها وقال أمراً:

- البسي الشورت الأسود..

- هالبس الأحمر..

- لا الأسود أنا اللي أقول..

.. ولما أخذها من يدها إلى صالة الرقص في غرفة أخرى مغلقة كانت هناك فتاة لتساعده، وشغلت لها شريط به أغنية شعبية تخلي الفلاحة ترقص بعين قوية.. شوية شوية.. ذهب الخجل ورقصت مع صوت المغني ودبكة.. ورنّة الأغنية.. ولما اندمجت في الرقص كانت الفتاة التي تساعد معلم الرقص تصفق لها هاتفة..

برافو.. برافو...

.. وبعد نصف ساعة من الرقص ارتمت سوسن وسط الغرفة عارية وساعدها على ذلك أنه لم يكن بالغرفة المعلم، وقالت لها المساعدة بعد أن هدأت أنفاسها:

- أجيب لك مِئِه..
- ياريت..
- اتعدلي علشان الأستاذ هايدخل عليك في أي وقت وهو مايبحبش الدّلع..
- نعم .. نعم.. آمال مين بيحب الدّلع.. بالذمة كام واحدة ترقص كل يوم..
- بقول إيه.. خليك في نفسك.. ساعة ما يدخل ترقصي تاني على شريط تاني..
- هوّ راح فين..
- مع واحدة تانية بقى لها أسبوع بتتعلم.. ثم سكتت.. وقاطعت صمتها قائلة:
- .. ماطو لشي عليك يا حسن قعدت أسبوع يا حسن لما بقيت رقاصة بصحيح..
- وبعدين..
- أبويا مشي ورايا في يوم لغاية ما دخلت عمارة معلم الرقص

- وبعدين..

- جوه في شقة الرقص وأدام الأستاذ نزل أبويا
ضرب فيّه حتى وقعت على الارض وأغمي
علي وبعدها لقيت نفسي في بيتنا وأبويا قاعد
بيتفرج علي وأنا باتوجع من ألم الضرب اللي
خدتّه على وشي وراسي.. عمري ما نضربت
كده..

- وبعدين..

- لقيت نفسي باتجوز محمود بعد أسبوع من
العلاقة، وحمدت ربنا أنها جت على كده..

- وبعد ما تجوزت محمود عشر سنين وصلت
لإيه..

- إني ست متجوزة محترمة في بيت من البيوت
المحجوبة، وبصراحة البيت فيه كل حاجة أكل
وشرب لكن مافيهوش جوزي.. يعني إيه
الجوز..

- يعني راجل يخلي الست ست..

- ملكة أخت جوزك عارفه إنك لسه بنت..

- عرفتھا بعد ثلاث سنين كل حاجة لما سألتني
عن الخلف..

- ولسه عارفه إنك لسة بنت لغاية دلوقت..
- عارفة وكل يوم بتدعيلي.. وعلى فكرة هي مقدّرة ظروفى ووافقت إنى أشاركها القعاد معاك..
- هيّ عَيانة بصحيح..
- بصراحة أنا حاسة إنها سايباني معاك الليلة علشان اخذ راحتى معاك..
- يمكن ظروفها زي ظروفك..
- الجواز دا بخت.. جوزها راجل كبير وبيكحكج من يوم ما تجوزها
- المشكلة إن جوزك شاب صغير..
- بس هوّ زي أمين .. يمكن أمين أحسن شوية..
- وهو ليه فى الأصل بيتجوز ويظلم بنات الناس..
- ماكانش يعرف إنه كده..
- وانتِ ماحولتيش تعالجه وتدلّعيه وترقصي وتغريه..
- عملت البدع .. ومافيش فايده ..

- أنا دلوقت خايفة أعمل ليكم مشكلة مع بعض
إنت ومملكة..

.. إنت عمرك ما هتبقى مشكلة.. إنت حل داخلي ليّ ولمملكة..
غيرنا من الستات مش لاقين حل وبيقعدوا في بيوتهم يعيطوا
ويلطموا، وفيه غيرهم بيمشي في الشوارع يتسكح..

- طيب ملكة برضاها سايباك معايا الليلة..

- ملكة هادية وإنسانة لدرجة إنها قالت يمكن
تخلفي.. خدي راحتك مع حسن..

- يانهار إسود للدرجة دي اتقّتم .. دا لو حصل
تبقى خلفتك مش من أخوها..

- هي متعاطفة معايا للدرجة دي..

- ودا تسميه إيه..

- أسميه تدبير ستات.. فيه ستات كتير مايهماش
أي حاجة تانية في سبيل تخلف أو في سبيل
راجل يسعدها ويخليها ست أو راجل تعشقه
ويكون ليها سرها وغطاها.. شوف الست دايمًا
عايزة راجل يسترها ويغطيها..

- بس دا مش ستر..

- هو الستر لو ما يجيش بالحلال يبقى ستر..

- شوف أنا لغاية دلوقتي مش عارفة يعني إيه
صح ويعني إيه غلط أنا تايهة في عالم مش
عارفة أوله من آخره.. أنا واخدة راجل تايه
توّهني معاه..

- وأنا هاتوه معاك يا سوسن..

- اسمع من ضمن الستر إن فيه حيطان للبيوت
والمثل بيقول الحيطان مدارية بلاوي..

- مين يقدر يحوش العالم اللي جوّه الحيطان..

- تعرف إن أنا وانت عاملين الدنيا مشاكل
حوالينا على الفاضي..

- محمود هايرجع إمتى..

- على وش الفجر..

- ولو رجع مالفكيش..

- بيرجع سكران أو مسطول مش داري بأي
حاجة..

- حتى لو مالفكيش في البيت..

- كل اللي بيعمله أنه بيرتمي على الكنبه في
الصالة لغاية بعد الظهر ثاني يوم..

- هي الساعة كام دلوقت..

- الساعة واحدة..
- طيب مش أحسن تروحي..
- لسه بدري..
- تعرفي ترقصي زي ما رقصتي عند المعلم..
- عندك شورت إسود..
- من غير شورت..

" لم أكن أعرف أي معنى للرجل.. ولماذا تمشي المرأة خلفه وتطيعه، كنت أريد رجلاً أحترمه ومنذ هذه الليلة التي رقصت فيها له عرفت يعني إيه امرأة تحب رجل، والدليل أنني رقصتُ له بدون شور، وكيف أن كل راقصة ترتدي الشورت الأسود لترقص وكيف لا ترتدي شيئاً من اللباس كي تعشق.. في هذه الليلة تركتني ملكة شقيقة زوجي وحدي كي اخترق جداري بنفسي مع حسن.. حصلت على شيء كبير لأنه تجاوز كل الأسوار وأخرجني من عالم كنت فيه لا أعرف غير أن أبكي..

" وفيما كان الظلام يذهب وينكشف النهار كانت وجوه الشوارع حولنا تطير فوقها بعض العصافير تركزك، لم يكن في شارعنا شجرة واحدة ولكن كان على ناصية الشارع عموداً واحداً للكهرباء أضيئت في فانوسه لمبة حمراء، ولم يكن في المدينة أحداً قد أفاق من نومه بعد فمعظم سكانها يصحون مع بذوغ قرص الشمس الحمراء فوق أسطح المدينة، ولم يكن يعرف حسن أن نهاية البحر الفرعوني عند مشارف مدينة منوف الغربية بعض الصيادين الذين يطبلون فوق مراكبهم كي يهرب السمك إلى الشباك، لم يكن يعرف أن أهل البحر في نهايته عند هذه المدينة هم الذين استيقظوا بحثاً عن الأرزاق وأن هذا الذي كان يراه ويحبه ويعشقه على جانبي هذا البحر.. أنه نفس البحر الذي يصحو الآن في مدينته وهو ينتهي أو

يكاد ينتهي مرة بعد أخرى من هدم جدار جسد تلك المرأة التي تزوجت منذ عشر سنين ولم تعرف معنى للرجل إلا هذه الليلة والتي في صباحها استيقظ البحر مع عنف معوله الذي ضرب وشق جدار تلك المرأة إينة التربة البولاقية، والتي نامت في فراشه ولا تستطيع أن تقوم وتذهب إلى بيتها، وإذا حتى أفاقت فإنها لا تبالي بهذا الزوج الذي دخل البيت قبل شقشة النهار وارتمى فوق الكنبه دون أن يبحث عن زوجته أين تنام..

" ولم تدري بالعالم حولها وما هو الحال عند البحر وهل استيقظت المدينة لتذهب إلى سوق السبت، لا شيء يهم بعد جسدها الذي ارتوى من متعة هذا الرجل الشاب الذي أفهمنى معنى أنني فعلاً امرأة لها كيان وأسماء شوارع ومحلات وميادين.. إنني مدينة فيها كل أسباب الحياة كمدينة منوف أو مثل حي شبرا مصر أو حتى حياً صغيراً مثل حي التربة البولاقية الذي يقع على جانب صغير من شارع شبرا الكبير.. في هذه الدنيا من ربوع حارات التربة ولدت وتعلمت في مدرسة الخازنداره الثانوية التجارية بعدها كان في دبلوم التجارة الذي أهلني لأعمل في بعض المحلات التجارية لأكون لأصحاب في فترة قصيرة هدفاً لرغبات أصحاب الأعمال الصغيرة، وبدأت أعرف معان صغيرة للحياة في محاولة للخروج من شارع الضيق حين بدأت أتعلم الرقص في إحدى شقق عمارات حي التوفيقية الممتلئ بالكومبارس الذين يعملون في أنواع من الفن المأجور يديره مجموعة من الرجال الأوباش، ولن أنسى أنني في أثناء تناولي درس حصة الرياضة عند زميلتي فائن أنها

كانت تتركني مع المدرس بناءً على رغبته ليقبلني ويحتضنني وكان يدعوني في نهاية الحصة لأن أمسك عضوه الذكري من تحت المنضدة مرة معي وأخرى مع فائن.. هذا أقصى ما جعلني أشعر بالمعنى الأول للرجل وبأنني امرأة في سنة أولى مراهقة، بعد ذلك لم يلمس أحد جسدي حتى كانت بداية تعليمي الرقص الذي أخذني منه أبي إلى الزواج من محمود والذي في بيته تم حبسي كزوجة.. زوجة مع إيقاف التنفيذ .. حتى تم زواجي الحقيقي في بيت ملكة شقيقة زوجي مع الشاب اليافع حسن بن مركز أشمون الذي ترعرت حياته الأولى عند تارة هذا البحر الذي في نهايته تقع مدينة منوف التي فيها تم اختراق جسدي طواعية مني بكامل وعي وإرادتي والتي قبلها رقصت بمزاج عال عارية بدون الشورت الأسود.. والآن أيها السادة وأولهم محمود زوجي ماذا تريدون من امرأة هذه حكايتها.. هل ظلمني أبي أم ظلمتني المدرسة التجارية، هل تعرفون حارة البطل في الترة البولاقية، أعلم أحد رقم بيتنا الصغير القديم، وتلك الشقة في حي التوفيقية والتي فيها ارتديت الشورت الأسود وعرفت مدى الجمال والمتعة التي تشعر بها أية فتاة ترقص من أجل أن تعيش، هل يعرف أحد في مدينة منوف محمود ذلك العازف الفنان المشهور بعزفه في حفلات المدينة.. أتعرفون أنه زوجي وأنه ليس برجل وإنه. وأني بعد عشر سنين من العذرية اخترقت عذرتي بنفسي بعد تلك السنين الطويلة من الصبر.. اخترقتها في بيت أخته ملكة عندما رقصت لحسن عارية بدون شورت أسود.. فهل ستتركني ملكة شقيقة زوجي أتجاوز

الأسوار التي اعتادت ألا تقفل أبوابها مرة أخرى.. هل شقيقة زوجي من الأخلاق والإنسانية حتى تتركني أشاركها هذا الحسن..

"كان لكل امرأة سبب"

=====

في ليلة من الليال التي جمعت حسن مع ملكة صاحبة البيت قال لها
بعد لقاء منتصف الليل :

- من منا يظلم الآخر..
- لا أحد يظلم أحد..
- كيف .. ألا تشعرين بان هناك ظلمًا يسري
بيننا.. ألم تظلمي زوجك أمين بعلاقتك معي..
- أمين هو الذي ظلمني.. كيف يتزوج رجل فتاة
وهو أكبر منها بثلاثين عاماً..
- هناك كثير من الرجال تزوجوا في مثل هذه
السن ونجحت زواجاتهم..
- هو لم ينجح يا حسن.. إنه يجد في ذهابه إلى
شبين للعمل حلاً للمشاكل التي نتجت بيني
وبينه..
- هل قال لك هذا..
- في يوم قلت له .. إنني في يوم واحد معي
تحاول الخلاص مني فقال لي..

- إنه من حسن حظي أنني أهرب منك إلى شبين
لآتي لكم بالمال كي تعيشوا وفي نفس الوقت
حجة كي أهرب منك..

- كيف تهرب مني وأنا زوجتك..

- أنت بالنسبة لي مشكلة فأنا لا أستطيع أن
أجامعك إلا مرة واحدة في الأسبوع.. هذه
إمكانياتي ياملكة..

- ألم تكن تعرف أن هذه إمكانياتك..

- عمري ما كان لي تجربة مع امرأة .. أنا رجل
عادي واكتشفت ذلك عندما تزوجت

- المشكلة أنني كنجار أعمل بيدي وذراعي تنهذ
قواي طول اليوم فلا يبقى شيء من الصحة
لكي القاك بقوة، وأنا رجل بطبيعتي ضعيف
البنية أضعف من أقل مجهود..

- حظي إسود معاك يا أمين..

- يمكن يكون حظك أحسن من غيرك.. فيه
غيرك ماتجوزشي.. خليني أعمل حاجة لبنتي
زكية وبلاش مشاكل ياملكة.. أستري على
نفسك وعليّ واحمدي ربنا.. الحاجة دي مش

لازم تكون مية مية.. أهى ماشية زي كل
الناس وسلام..

"وسكتت ملكة عن الكلام وكانت تنام إلى جوارى عارية وهي
دائماً تريد المزيد من اللقاء .. إلا أنني كنت أتضايق منها لأنها
كانت تعطيني جسدها بدون مقدمات فهي تلقي بنفسها فوق الفراش
كأنها جاموسة ترقد لفعل.. وبعد أن التقيت بسوسن المرأة التي تقدم
نفسها بالرقص والفن والغناء بدأت أنقلب على ملكة ولكنني لم أكن
استطيع التخلي عنها فهي المرأة صاحبة البيت"

"عالم غني أعيشه بين امرأتان .. فإذا كانت ليلة سوسن جاعتي
تحمل حلة المحشي والفراخ أو الملوخية واللحمة أو السمك والأرز،
وإذا كانت ليلة ملكة جاءت بنفس الأنواع من الطعام من ليلة
لأخرى، وكانت كل منهما تتسابق في عمل الطعام الذي أحبه غير
أن سوسن كانت تسبقها بكثير من لمسات الأنوثة والفن في اللقاء
فهي امرأة ذواقة وكأنها مشيت في دروب الهوى عاماً تطرق أبواب
شقق العزّاب، وفي ليلة قلت لها:

- أنتِ امرأة حركات.. من الذي علّمك وكأنك
امرأة كنت قبل ذلك امرأة تحترف الهوى..
- الذي علّمني الحركات أنني امرأة حرمت كثيراً
طيلة السنوات العشر الماضية.. وسكتت..

فقلت لها:

- سكتَ ليه كُملي..
- الحاجة الثانية إنك صغير عني بتلتاشر سنة يعني لازم أدلعك أوي علشان أبقى أنا نمرة واحد والمفضلة عندك.. ماتتساش إن ملكة شريكة فيك معايا..
- وفيه حاجة تالته..
- فيه..
- قولي فيه حاجة تالته خلّتك تعملي حركات زي المومسات..
- في مرة خدنتي فائن صاحبتني شقة عزاب في مصر الجديدة..
- هي فائن كانت معاك في المدرسة..
- كانت زميلتي الوحيدة من سنة أولى لسنة تالته..
- هي فائن كانت بتروح شقق..
- أيوه.. اشتغلت شوية بالدبلوم وبعدين لما لقت الشهادة مابتجيش همها مشيت في شغل الشقق..
- يعني إيه شغل الشقق..

- الواحدة في الأول بتروح شقة العُزاب على
سيمة تشتغل طبّاخة عند عُزاب أو عرب أو
راجل كبير.. وبعدين العملية بتيجي واحدة
واحدة.. وهي في الأصل ونسة وشغل ثاني
غير الطبخ.. والراجل عايز طبّيح ورقص
ودلع و ... وكل حاجة بيتمنّاها والواحدة
الحركات ليها تمن عال وعلى طول مرغوبة..

- علشان كده عرفت الحركات من يومها..

- عمري ما انسى فائن في الليلة دي.. بس أنا
أحلى من فائن.. مش كده..

- هو أنا شفت فائن ياسوسن..

- باحسب..

- يعني إنت لفيتي شوية قبل ما تتجوزشي..

- لفيت .. بس حافظت على نفسي..

- ماتفرقشي..

- كنت محتاجة شوية فلوس.. على فكرة كله

بيجي من صاحبة سواء كانت جارة أو زميلة

مدرسة أو جامعة.. نوع صاحبة بيحدد

الواحدة هاتروح فين..

- وبعدين اتجوزت..

- يا حشرة الجواز كان بالنسبة لي صدمة..
- ودلوقتي..
- وجدت لي حل.. بيت مقفول عليّ ومحمود راجل شيلته واطية وأحلى حاجة إن أخته ملكة عندها نفس المشكلة واحنا الاتنين ستر وغطا على بعض..
- ومحمود جوزك مصاحب رجالة..
- تقصد إيه..
- يمكن يكون؟...
- يمكن..

" كانت الدنيا لها معان وحكايات "

=====

في ليلة كانت رياح الخماسين فيها شديدة ترزع في أبواب وشبابيك
اليوت، ولما نزلت ملكة عندي بمواعينها كان جسدها يرتعش
وأسنانها تصطك ببعضها فقلت لها وأنا أخذ من بين يديها أشياءها:

- هاتِ عنكِ بترتشي ليه..
- الجو وانت السبب..
- ليه خير.. وأنا ليه..
- من يوم ما شاركتني فيكِ سوسن وأنا في
جسمي حاجة بترتتش..
- طيب كملي كلامك.. بس اطلعي عالسرير
الأول..
- غطيني يا حسن وتعال في حضني أنا خايفة..
- إنتِ خايفة دانتِ تخوفي بلد..
- مابقيتش عاجباك أصلي مابعرفشي أرقص..
- هي قالت لك..
- سوسن مابتخبيش عليّ حاجة..
- وإنتِ برضه بتقوليلها..

- ما عنديش حاجة أقولها دا أنا غلبانة كل اللي
باعمله بارقد لك من سُكات..
- وهو دا شوية..
- على فكرة أمين بيحبك..
- هو إنت قولتيله حاجة بيني وبينك..
- متهيألي لو قلت له يمكن يقول وإيه يعني..
- طيب قولي بيحبني إزاي..
- لما بقوله بازهق من البيت بانزل عند حسن
أتكلم معاه شوية واطلع.. يسكت ويبتسم..
- ما بيغيرش عليك مني..
- بيقول الحمد لله إنك بتفكي في بيتنا
وما بتخرجيش برّه..
- بس كده..
- ويقول أنا باثق في كل واحد من البلاد ومرتاح
أوي إن تلميذ من بلاد مركز أشمون ساكن
عندي في البيت..
- مش معنى بلاد أشمون..

- بلاد في حالها وأولادها مالمش في الحريم ولا الحشيش أي حاجة في القهاوي مالمش فيها.. عيال خناشير وبس.. هو رأيہ كده..
- وإنْتَ بتصدقي على كلامه طبعاً.. بالعكس دا مركز أشمون أكبر مركز حشيش في المنوفية..
- أصدق بالعشرة تعرف بقوله إيه كمان..
- دا واد غلبان أوي مايعرفشي الطور من الطحين..
- ياترى هو فعلاً مقتنع بكده ولا بيقول كده علشان ماتقوليش عليه ندل..
- يمكن هو من النوع اللي بيريح نفسه وهو في كل الأحوال راجل غلبان بيعيش مع شاكوشه ومسماره..
- على فكرة فيه صنايعية كتير بتحب تعيش مع مهنتها علشان تحافظ على أكل عيشها ويبقوا معلمين أوي في شغلهم وفي بيوتهم سايبين الأمور كلها لنسوانهم..
- ويمكن يكون له تفكير تان إنه مايقدرشي يعمل راجل في كل حاجة وهو لما يمنعني ويعمل

راجل حمش وهو في غرفة النوم مابيكفيش
مراته تبقى هي دي رجولة..

- حتى لو كان حمش هيقدر يمنعني إزاي وهو
عايش في بلد تانية..

- بقول لك إيه ياملكه هو احنا بنفلسف الدنيا
حوالينا ليه هو حد منعنا في حاجة..

- قول لنفسك يا حسن إنت من يوم ما عرفتك ما
بتطلتش ليه وازاي والدنيا بين إيدك جاية لك
بالطول والعرض..

- ما عرفشي من يوم ما جيت البلد دي والحريم
جاي بالطبطباب..

- مش أنا أول واحده تعرفها في البلد..

- كان فيه واحدة قبلك بتحب تركب الحنطور..

- ساكنة فين..

- عند المحكمة..

- بتروح لها من يوم ما عرفتني..

- ماتت ياملكة..

- بركه اللي ماتت.. أوعى تكون إنت اللي
موتها..

- الواد بيوضة الأهل العبيط ابن أم رأفت.. مش عارفاه..
- أيوة شفته كثير في شارع القيسارية..
- هو اللي موتها السنة اللي فاتت دا كل البلد عرفت بالحادثة دي..
- متهيألي سمعت حاجة زي كده..
- إنت عايشة مع نفسك وبيتك وما تعرفيش حاجة في الحارة اللي جنبك..
- بكفاية علي أعرفك وأعرف اللي في بيت أخويا.. دا انا لو عرفت كل البيوت واللي بيجري فيها دماغي تورم أو أتجنن..
- إنت مش تعبانة النهاردة ما تقومي تطلعي فوق وترحيني..
- مين قال لك إني تعبانة.. تعالى جنبي خدني في حضنك عشان أخف..
- يارب تموتي ياملكة.. إنت عاملة زي نسوان البلد..
- ليه أنا معمولة بالزبدة ولا الفطير المشلتت..
- ابدأ إنت عاملة زي فنتاز الجاز..

- إخص عليك يا حسن باحسبك رقيق..
- رقتي هاتيجي منين إذا كنت بتتامي على
السريـر زي البرميل وما بتتحركيش..
- هو فيه واحدة زي عمولة راسية وثقيلة ومش
حركات، على فكرة لو رقصت لك زي واحدة
عمرك ما تلقيني ليك لوحـدك، أنا واحدة معمولـة
تفصيل لك خللي واحدة بترقص وواحدة
مفروشة زي الفطير.. يا حسن دانا زبـدة
ما تفتريش علي والله لو ما بطلت تريقة علي
لأموتك يا حسن..
- أد كده إنت مش سهل..
- أحمد ربنا على الخير اللي إنت فيه..
- أكل وشرب ونعيم ولو مش عايز تدفع إيجار
ما تدفعشي..
- لأ لأ مش للدرجة دي..
- طيب إطلع بقي وتعال..
- هاطلع بس بطلي معايرة.. جسمك لسه
بيرتعش..
- طول ما فيه واحدة تانية هاتلاقيني أرتعش..
- ما تترعشيش أوي كده علشان السريـر بينهز..

- طيب يا حسن اطلع وهو يثبت..
- الساعة كام..
- شوف لو إنت مبسوط عمرك ما كنت تسأل عن الساعة..
- لأ ياملكة دا إنت الوقت الجميل من يوم ما عرفتك..
- نفسي أصدقك يا حسن..

" حكاية صاحب الجلباب الأبيض "

=====

" عندما كانت تأتي سوسن من ليلة لأخرى كنت أشعر بأنني أمشي في طريق ممهد يوصلني إلى مدينة أخرى فافتح بابها وأدخل، ولم يكن في مدينة ملكة كلاباً كثيرة كما كان في قريتي أيام الأربعينات والخمسينيات، وإن وجد كلب في شارع ينبح في الليل أو النهارأتي إليه عسكري من المركز وقتله بالبندقية، ولكن هذه المدينة التي أدخلها مع سوسن هي مدينة قريبة أنشأتها سوسن وكل امرأة مثلها عند أطراف مياه البحر الأعمى قرب مدينة منوف، وكنت أسير وأنا شبه تائه لا أدري بما يحدث حولي من نشاط بشري لأهل هذه المدينة، والغريب أنني كنت أجدني أجتاز قبوراً ليس بها موتى، شيدت حديثاً وآثار الرمل والحجارة باقية وأبوابها مفتوحة وسقوفها لم ترصع بعد، وفي ليلة من الليال وجدت غفيراً يرتدي جلباباً ناصع البياض فقلت له:

- منذ متى وأنت هنا في هذه المقابر..
- منذ أن جئت أنت إلى مدينة منوف..
- لكنني لم أرك إلا هذه الليلة وأنا جئت إلى مدينة منوف منذ ثلاث سنوات..
- ليئك ما جئت..
- هكذا لا تريدني .. ولماذا تبغض مجيئي ..

- لأن هذه المدينة لا تعرف غير التجارة والبيع والشراء .. وإنت .. وسكت..
- أكمل وأنا ماذا..
- إني من أهل هذه المدينة من قرون حيث ولد أهلي فيها وأنا اقتربت من الموت فلم أجد في مدينتي غريباً مثلك.. يجب أن تغادر يا حسن ..
- إلى أين.. إني لن أغادر مدينة منوف قبل أن أتم دراستي الثانوية..
- لم يكن هناك أحد يضجر منك ولكن في هذا العام الثالث الذي تعيش فيه في مدينتي أقلق شوارعها وأنشقت لك جدرانها لتكشف عن شيء وحيد لم تكن المدينة تعلم به قبل أن تأتيا.. القضية مع مدينتي أنك تفعل أشياء خلف الجدران ولا يراها أهلها..
- إن أي مدينة في العالم لا تدري ماذا يحدث خلف أبوابها..
- ما أقصده أن ما تفعله لا يفعله أهل المدينة..
- عندما جئت إلى هذه المدينة وجدتها جائعة إلى الحب.. أهلها تجردوا من المشاعر والأحاسيس

وتركوا نسائهم.. إن هذه المدينة مثل أي مدينة
في بلدي..

- إن لكل امرأة زوج يكفلها والجميع ليس في
حاجة إلى ما فعلته وتفعله..

- إن الرجال في مدينتك قد أسقطوا النساء من
حساباتهم..

- إن ما فعلته شيء جديد على أهل المدينة..
وأهلها جميعاً في غنى عن هذه الأعمال.. أنت
لا تعرف مدى عشق الرجال هنا لأعمالهم..

- إلى درجة أنهم يتركون النساء بلا أدنى حقوق
لهم..

- النساء درجت على ذلك منذ أن نشأت المدينة..
الرجال عاشقون لأعمالهم والنساء يتمرغن بين
حيطان غرفهم وماتت في داخلهم الأحاسيس
والمشاعر.. أنت وحدك في المدينة الذي تريد
إحياء الذي مات في داخل النساء..

- ولماذا لا تكون هذه دعوة عامة لكل رجال
ونساء المدينة.. لماذا لا تصحو هذه المدينة
من غفوتها..

- إن أي مدينة مثل مدينتي لا تصحو على ما يريده النساء.. ولما سقطت حاجة النساء في داخلهم منذ مئات السنين تعوّلت الدنيا هنا على ذلك.. فمن يأتي اليوم ليوظ المدينة على هذه العادات الغريبة.. إن أقل ما يفعلوه معه أن يقتلوه أو يطردوه..

- أهنأك أحد غيرك يعلم ما فعلته في المدينة..

- لا أحد يعرف والذي يعرف مات.. مات صول المباحث والذي قتله حصان الأهبل، وماتت منى عشيقتك والتي قتلها بيوضة شيخ الهبل في المدينة، وأمين النجار زوج ملكة راض على نزول زوجته إليك تتونس بك لدرجة أنه يعتقد فيك، ومحمود هذا العازف التائه الذي ارتضى لنفسه أن يتزوج جيتاره فقط ويعشق الرجال تزوّج من الترة البولاوية امرأة رقصت بعض أيام عمرها لبعض العسكر من الصف الثاني لحركة ضباط يوليو وهي تشارك ملكة شقيقة زوجها العلاقة معك ولا تمل ولا تكل رقصاً ودلعاً لك من ليلة لأخرى محترفة لباس رقصها فهي راقصة بالشورت الأسود لك وحدك.. وأنا أحقد عليك.. كيف لولد مثلك صغير أن يكون ملك النساء خلف جدران هذه البلدة والتي لم

يكن لها ملك قبل أن تأتي مدينتي منذ ثلاث سنوات..

- وبعد كل هذا الذي تعرفه.. ماذا تتوقع لو اُحد مثلي..

- يجب أن تقتلك المدينة..

- إذا كان أهل المدينة ينصرفون إلى أعمالهم ومال أهل المدينة بامرأتان..

- لأنك إذا بقيت في المدينة فسوف تفتح عيون النساء، وتعلمهن كيف يعشقن أجسادهن..

- أنت تقول يجب أن يقتلوك..

- لو بقيت في المدينة يجب أن يقتلك واحدٌ منها..

- هذا إذا لم يرضى بعلاقة زوجته أو شقيقته أو أمه معي.. وهذا غريب على المدينة إن أي مدينة في العالم ضليعة في مهنتها أو في صناعتها بعيد عنها أن يكون هناك رجل يملك حماية على زوجته أو شقيقته أو أمه.. إنهم يعتبرون ذلك شيئاً بعيداً وغريباً عن حضارتهم..

- للأسف مدينة معظم أهلها يبحثون عن الحضارة وأسبابها وفي الأصل الحضارة

الإنسانية بنيت على القيم والمعاني الإنسانية فيه
ثم تدهورت..

- كلما إندمج الإنسان في عمله أهمل المرأة
ولذلك تجد أن كثيراً من النساء قد خرجت في
أعمال تتنافس مع أعمال الرجال وحققن نجاحاً
كبيراً فيها..

- تقصد إن خروج المرأة من البيت يقلل من
فرص الخيانة خلف الجدران..

- ويزيد من فرص الخيانة خارج البيوت..

- الخيانة تتم في الداخل والخارج..

- المهم أن لا تكون منظمة.. أنت أوجدت
وساعدت على إحياء خيانة منظمة..

- ما هي حكايتك ياسيدي وأنت رجل عادي
تعيش في المقابر..

- إن هذه المقابر مقابري أنا الذي أقمتها منذ
سنين..

- وهل كنت بعيداً عن أعين الناس حتى لم يثبثك
أحد عن إقامتها خاصة أن للبلدة مقابر تعودوا
عليها وعرفوا طريقها..

- لم يرني أحد وأنا أشيدها لأنني كنت أعمل
خلف جدران بيوت هذه المدينة..
- ألم تر أنني وأنت عملنا طويلاً خلف الجدران..
- " وفجأة اختفى الرجل صاحب المقابر وواصلت
السير حتى وصلت لأول طريق يوصلني إلى
باب المدينة.. وعند أحد البيوت القديمة في
غرب البلدة جلست فوق حجر ضخم ووضعت
وجهي في حجري ورحت أبكي بغزارة وقتاً
طويلاً، ولما رفعت وجهي رأيت نوراً بعيداً
يلوح في آخر سور المقابر..

" حكاية ثالثة مع زوجة العازف "

=====

" كنت كفتاة تحلم أول حلم لها أريد رجلاً محترماً، ويقولون أن الرجل هو الذي يصنع الدنيا حولنا، فلما خرجت فعلاً لواقع الحياة حولي وجدت كل ما حولي ضياعاً صنعه رجال وحوش أقل منها ضراوة وقسوة، وكنت أتصور المدنية والحضارة غير ذلك تماماً ولكن يبدو أننا صنعنا فوانيس شوارعنا من عرق صدور الرجال وسكنت وقد تبرّمت شفاتها فقلت لها مهدئاً:

- هدي.. الم ترتدي الشورت الأسود كي ترقصي لي..

- الرقص والغناء واللهو كانت تذهب إليه الفتاة في شارع الترعة البولاقية لتبحث عن الاستقرار وحياة محترمة.. عندما لم تجد كل منا في شهادتها شيئاً يطعمها..

- اخطأت خطأ كبيراً .. ما كان يجب أن تذهبي إلي الرقص كان يجب أن تذهبي إلى ما تعلمتيه..

- ذهبت إلى التعليم ولما يؤست من شوارع الترعة البولاقية والتي وجدت فيها نغمة واحدة من الرجال.. قلت أكيد أنني سأجد شيئاً أقوى

وأقيم في شارع شبرا الكبير فوجدت فيه أسخم
وأضل..

- كيف..

- معاملة الفتاة مهما ذهبت في تعليمها إلى أعلى
تعامل معاملة في نهايتها علاقة جنسية ومن لم
يعجبها قطع عيش.. أول شيء وجدناه في
الدنيا عندما حصلنا على الدبلوم رجال يقدّمون
لنا أعمالاً آخرها علاقة مع صاحب العمل،
حتى صاحب العمل أبو جلابية المفروض دا
أصله من البلاد ويكون محترم شوية للأسف
كله عايز يرفع.. رجال يملكون المال سواء
كانوا أصحاب شركات صغيرة أو كبيرة
وأصحاب محلات كلهم والحمد لله جميعاً لم
يتعلموا شيئاً ولو قليلاً من الأدب أو الإنسانية،
الإنسانية عندهم حطة لحمة وقيع من جمل عيَّان
لحقوه ودبحوه..

- المفروض أن الدبلومات هي الحزام الوسطى
لجسد أمة، أعمال الكتابة والفاكس والتلكس
والاتصالات والعلاقات العامة وكل أعمال
الزراعة والفلاحة في الأرض وحرف ومهن
كل الأعمال الصناعية المساعدة كل حاملي

الدبلومات المتنوعة من فتيان وفتيات يقومون
بهذه الأعمال التي تربط بين القاعدة والقمة في
أي مجتمع..

- هذا الكلام يجب أن يكون المفروض أن يكون
التعليم في كل مرحلة يقدم عملاً ودرجة من
العمل القوي لكل أفراد المجتمع الذين وصلوا
إلى مرحلة تعليم ما..

- المفروض إيه يا حسن.. تعال شوف اللي حصل
لي إيه.. فوضى وغابة وأعمال خايفة وتافهة
وغير منتجة وكل واحد من الرجال عايز يعمل
أبو عرام بقرشين جمعهم من الخردة والجزارة
أو بيع الحشيش..

- وفين الدولة..

- أنا سألت السؤال دا كتير أوي ما حدش
جاوبني.. إنت عارف أكبر شيء في بلدنا إيه
دلوقت.. وسكتت حتى أجيبها.. ولما طال
سكاتي قالت:

- لو إنت جدع إعرف أعظم شيء في بلدنا إيه
الوقت..

- إيه..

- الشهيد.. شهيد حرب اليمن..
- آي والله فعلاً لما بشوف حد من الشهداء شعز راسي بيقف وجسمي بيرتعش..
- وبعدين..
- دي حاجة حلوة أوي ياسوسن..
- علشان مش عارف حاجة زي الناس كلها بتقول دي حاجة حلوة.. وكلنا بيقول حاجة حلوة..
- هوّ واحد مات من أجل الحق والثورة.. هو مش عبد الرؤوف الزلباني هيبقى قائد الحركات التحررية في العالم.. هو اللي هاخلص على الملوك ويعمل ثورات في اليمن وغير اليمن..
- إنت عارف بنصرف في اليمن كام في اليوم.. مليون جنيه كل يوم.. دا غير السلاح.. دا غير اللي بيموتوا..
- تقصدي الشهداء..
- أيوة بالضبط ربنا يكثر من العُبط اللي زيك يا حسن .. يعني إيه شهيد..

- دا موضوع كبير أوي .. هو احنا في الآخر
مش هاناخذ فلوس وحقنا من رئيس اليمن.. لما
تبقى اليمن دي جمهورية..

- إنت عارف أن اليمن هي الدولة الوحيدة في
العالم العربي التي لم يستعمرها أحد لأنها
مافيهاش حاجة.. اليمن بالنسبة للدول
الاستعمارية مغارة مافيهاش أي فائدة من أولها
لآخرها..

- بس إيه رأيك عبد الله السلال قائد حركة الثورة
هناك بيقلولوا عليه بطل همام..

- صحيح والدليل على كده ماكنش حلق شعره
من عشرين سنة بعثوا له حلاق في الطائرة
قبل ما ينزل علشان يحلقوله وواحد حمّاه في
دش الطائرة ورّيحوه ولبسّوه جزمة وبدلة
ونزل أرض مصر تحفة علشان يقابله عبد
الرؤوف الزلباني..

- يانهار رئيس بلد وقائد انقلاب جاي من غير ما
يحلق ولا يستحمه ولا يلبس بدلة..

- لما سألوه مين حلق لك يا عبد الله قال حلاق
الحمير.. مين حمّاك يا عبد الله قال يمكن كل
عيد باستحمي على استحياء .. قالوا ليه.. قال

عندنا عادة وتقاليد بتقول اللي يستحمي يخس
واللي يخس الشياطين تركبه.. طلعنا نخاف من
الحمى كثير.. واحد سأله مش لابس جزمة ليه
قال ما عندناش جزم عندنا حاجة اسمها خف..
يعني إيه خف قال من الخوف.. إزاي ..
فسكت وكان السكات أحسن من الكلام لأن
الكلام في اليمن فضايح..

- هو كده عبد الرؤوف بتاع بلدنا عمل ثورة في
اليمن لناس ماتعرفش يعني إيه ثورة ويعني إيه
جمهورية ويعني إيه استحمي ويعني إيه
أحلق.. أقسم بالله شعب اليمن ماكنش عايز أي
حاجة من دي وعبد الرؤوف هو اللي عمل
المواضيع دي كلها من أولها لآخرها علشان
يبقى بطل..

- وهل الثورة بتعمل عزة لمصر والعرب.. أنا
نفسي مش عارفة.

- طبعاً طبعاً.. احنا بقينا أرض الشهداء..

- طيب أدى إنت جاوبت..

- إحنا عندنا واحد في البلد أول شهيد من اليمن..
اسمه فتحي ستيته كان اسوأ ولد ولدته شنشور
من شارع أبو سمك.. شهيد تاني اسمه أبو

هرتش عمله له مدرسة ابتدائية سموها مدرسة
الشهيد سروة أبو هرتش وكانت قبل كده اسمها
مدرسة صبحي القطان كان اسم له تاريخ..
لكن من يوم ما جت حركة الانقلاب في سنة
١٩٥٢ بدأ الخراب وتزييف كل التواريخ..

- وبدأ العد التنازلي في البلد.. التعليم أهم حاجة
فيه هوّ البطل أول واحد في التاريخ الحديث
يبقى بطل بالأناشيد والغناء وهو أول واحد بدأ
في خراب مصر، والتعليم طرنبيدة وسند ومد
وعملوا فريق كشافه بيعمل معسكرات لعيال
يشجعوها تخسّر بعضها بالليل في الخيام
علشان جيل يطلع كله لخطب بعضه في بعضه،
وبعده ياجدع هيئة الفتوة ما أدراك من هيئة
الفتوة .. وفي الآخر إيه ..

- ولا حاجة هاتكون نهاية الستينيات في البلد من
أسود الأيام..

- والعمل إيه دلوقتي..

- قومي ارقصي ياسوسن..

- لازم نكتب التاريخ معاهم..

- صقف أوي ياحسن..

- البسي الشورت الأسود..
- بكفاية سواد يا حسن..
- من غير شورت..

" هذه الليلة هي ترقع لا ترقص "

=====

" كانت تعرف أن ما قالته مع حسن هو مجرد هُراء، وأنه لا يوجد واحد أو واحدة في البلد إلا ويحكى الكلام ده بس جوه البيوت أو في زواريق الحواري.. لكن التلاميذ الصغيرة زي حسن الكلام جديد على ودانهم.. الناس بتقول خليفهم يتعلموا يمكن لما يخلصوا ربنا يفرجها ويجيي واحد مش عايز يبقى ثوري وبطل .. يمكن يجي البلد واحد ربنا يهديه يعرف إن الثورة هي البناء والعمار وليست الصوت العال ولا التجعير.. وإلى من تقول فإن مدينة مثل منوف لا تجاريها مدينة في السعي من أجل التجارة والتنمية وليس لها أي صلة بكل ما هو ثوري فيعتبر ذلك دخيلاً على عقلية كل من هو من أهل هذه البلدة.. غير أن الذي كان يخالف هذا الفكر من منوف هو الدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة في هذا الوقت، وكانت حركات ساقِي سوسن وجسدها مرتبكة.. هي بتخبط مش بترقص.. هي عصبية منهارة ليس فيها شيئاً واحداً يعبرُ عن شيء.. هل صارت سوسن في ليلة واحدة لا تعرف أن تكون شيئاً واحداً يعبرُ عن شيء واحد له معنى، إلا أنها تكوّر نفسها على سرير حسن مثل ما تفعل ملكة المرأة التي لا تعرف إلا أن تكون كَبَّة بلا حركة وبلا معنى مثل برميل للسريدين في محل من محلات شارع الملاح.. وبدأ حسن يشعر منذ هذه الليلة أنه بدأ يخرج عن إطاره الذي وجد نفسه فيه مع هاتين المرأتين، لقد شعر أن المرأة إذا تكلمت بحرارة عن ما يجري ودخلت في السياسة أصبحت الدنيا

حولنا بلا معنى فلا معنى أن تكون المرأة ثائرة في وطن يذهب منه الرجال إلى الحرب ويعودون شهداء.. وعادت الثرثرة في كل مكان هي السمة الغالبة على شعب لم يعرف منذ مضت سنين عشرة على عام ١٩٥٢ أي معنى لأي جديد.. سوى أننا محاربون من أجل كل العرب ولم يكن العرب في حاجة إلى محاربين ولم يكن لديهم نفس الأفكار التحريرية التي لدى عبد الرؤوف بن مصر.. "بدأت أرض العرب يتدفق فيها الذهب الأسود وبدأ معها أن كل واحد وواحدة من بلادي يتمنى ويسعى لأن يذهب إلى هذه البلاد ليكون لشهادته معنى في بلاد أخرى حتى ولو عمل خادماً فيها"

"قبل عام ١٩٥٢ كان الناس في بلادي يسعون إلى الرزق في بلادهم بكرامة، من بداية عام ١٩٦١ بدأ الناس يفكرون في السعي إلى هذه الأرزاق بأشكال غير مألوفة، وأصبحت أفكار كل عربي تقول أن المصري هو الذي يحارب ويناضل ونحن سندفع، إنهم لن يدفعوا مقدماً أو هبأً ولكنهم سيدفعون بشروط وهو أن يموت المصري أولاً، فهو نفر بالأجرة إذا دفع دمه أخذ أجرته بشروط، ولم يكن لدى العرب أي أفكار تحريرية أو تقدمية أو ثورية أو حتى اشتراكية فالزعيم مولود في مصر وقائد هذه القومية هو عبد الرؤوف إذاً فعليه أن يتقدم.. هو صاحب المشروع كله والعرب سوف يدفعون، ولم يكن لدى أي عربي ملامة فهو يريد أن يعيش في أمان ويحرسه أي جندي أو حارس من أي بلد في العالم، والخطأ الكبير الذي وقع فيه القائد الملهم أنه دائماً يتقدم للأمام لأنه أسد البحر المتوسط والوحيد هو القائد والملهم وصاحب كل فكر

ثوري.. فأعطى لإبن بيلا السلاح بلا حساب حتى الكونغو أعطى
ثأثرها البندقية والرصاص ومع شكري القوتلي أقام أول وحدة
عربية بلا أساس، ولم يتبعه في الحقيقة إلا الخفير والشاويش
والمقدم والعقيد ولم يحبه واحداً أميراً أو ملكاً أو في بلده أصيل..

إنه يحارب أولاد الناس الأصلاء والأمراء والملوك من أجل أن
يُنصَّب شاويش أو خفير أو عقيد .. وسوف ترى يا حسن كيف نعود
من اليمن خاسرين قتلى خائبين..

" هز حسن رأسه وقال في حزن شديد وهو يدعوها أن تقفز فوق
السريـر:

- بالله عليك أنت من هيئة الفتوة.. أنت قريبة
النقيب جمال أسعد قائد هيئة الفتوة في مدرسة
منوف الثانوية..

- أنا لست قريبة أحد من منوف.. أبويا وأمي
أصلهم من منوف لكن أنا ابنة شارع البطل..
حارة البطل في شارع الترعة البولاقية.. أنا
انتعست في منوف جالي الشرد في منوف مع
محمود همّ عشر سنين أبويا اللي تعسني، لو
كانت أمي عايشة عمري ما كنت جيت منوف،
اللي يقدر يعيش في منوف لازم يكون مولود
فيها.. أنا اتسرقت واتشردت من عشر سنين
برضه من سنة إثنين وخمسين..

- أفهم من كده أنك في يوم هاتمشي من منوف..
- أكيد جوازة مش نافعة ومحمود نايع سايع رايح مني مع ولاد منوف.. هاقعد ليه في منوف؟ أنا صبرت كثير.. إنت هاتمشي إمتى ياحسن..
- بعد ما خلص امتحان الثانوية .. يعني على شهر يونيو ماتلاقنيش في البلد دي..
- يعني الهيصه في بيت ملكه باق لها ثلاث شهور..
- بصراحة أنا صعبان عليّ ملكه من أمين..
- كان الله في عون أمين هي ملكه هاتغلب هاتجيب غيرك ياحسن يسكن تحتها.. تعرف إن ملكه دي ملكه بصحيح ماعندهاش مشكله وعايشه حياتها في بيت أمين من سنين..
- على فكرة مش ملكه لوحدها أعرف كثير من زمايلي ساكنين في بيوت زي بيت ملكه ..
- وبرضه شغالين..
- شغالين ومبسوطين ومنهم متجوزين من بنات صاحبات البيوت..

- يعني اللي ليها بيت أو حتى قوضة في البلد دي
شايغة فيها لقمة زيادة أو حتى كوباية سوبية
وعرقسوس..

- ماتعيلش هم ولاد البلاد مروّشين البلد دي
حتى بيع الورد واللي بيعن السكاكين أو بيع
العنبر هاتلاقي عنده واحد من البلاد بيقوله
بتسن المفاتيح..

- أنا الليلة همدانة وتعبت من الكلام إعتبرني من
دلوقتي زي ملكة..

- هيّ الأيام قرّبت تخلص وعلشان كده بتخلصي
يا سوسن..

- الليلة دي عرفت آخرتها يا حسن..

- بس هاتيجي وترقصي لغاية ما خلّص يا
سوسن..

- أكيد .. هو أنا لاقيه غيرك يا حسن..

- وهاتروحي شارع البطل..

- ماليش غير بيت أبويا هناك..

- إديني العنوان..

- هناك مش عايزة بيت ملكة..

- آمال هاتروحي فين .. أكيد هانتطلقي من
محمود قبل ما تسيبي البلد دي..
- طلقني ماطلقنيش ماتفرقشي معايه...
- هاشتغلي إيه في مصر..
- زي أي واحدة من شارع الترعة.. معاها دبلوم
تجارة..
- يعني إنت مش عايزاني في مصر..
- ماعرفشي .. على العموم خذ عنواني.. إكتب..
مين عارف يمكن أحْتَاج لك..

أقيمت المصانع العامة والشركات التي تتبع القطاع العام وتم بناء حيطان وعنابر ومعامل ومن أجلها تم استيراد الآلات من روسيا والدول الشرقية فنحن ثوار فلا تفيد ولا تستورد إلا من الثوار وأصحاب النعرات الثورية والاشتراكية.. والحمد لله أسوأ الآلات والعدد والأدوات ولولا استيراد مصر هذه الآلات والماكينات لما باعت هذه الدول آلاتها لأحد في العالم.. وكان من أكبر الأخطاء التي ارتكبت في حق هذه البلاد هو الاتجاه السياسي نحو التعامل مع العالم الشرقي سياسياً واقتصادياً وأصبحت مصر مقبرة للغزاة الجدد.. الدول الشرقية. حتى أنه لم تمر سنوات قليلة حتى تم تخريب مصر صناعياً (فبركة الصناعة) وزراعياً في إضعاف زراعة القطن والقمح والبطاطس، والذي قتل كل ما في البلاد من كوادرفنية وإدارية أن النظام العسكري برئاسة عبد الرؤوف الزلباني استعان بالعسكري والشرطي ليدير هذه المصانع والشركات ليس لكفاءته ولكن لإحكام السيطرة على كافة القطاعات الصناعية والزراعية والإدارية للحاكم الأوحدي في القاهرة.. وهكذا تم تخريب البلاد بالاتجاه السياسي الخارجي نحو بلاد مدمرة أصلاً في أنظمتها السياسية والاقتصادية فاستوردنا منهم كل ما هو فالصو من آلات وماكينات وعدد وأدوات وتخريب البلاد من الداخل بتمكين الجهلاء الإدارة فغاب كل ما يهم الإنتاج والتطوير والتنمية

وحلّ محله النهب والسرقة وتمام يافندم، كله تمام وكان هذا يعني
أن كله خراب في خراب..

" وحاول حسن إنشاء خفير المقابر الجديدة عن محاضرتة السوداء،
وكان حسن قد ذهب إليه قبل المغرب بقليل ليحكي له حكايته منذ
جاء إلى منوف حتى قاربت على نهايتها، ولم يكن حسن يريد أن
يحكي فقط ولكن كان يريد أخذ رأيه في أين يذهب بعد ذلك.. هل
يذهب إلى مدينة القاهرة حيث الجامعة أم يكتفي بدراسته الثانوية
ويعمل في الجمعية الزراعية أو مستشفى البلد..

فقال له الرجل وهو يهز رأسه يائساً من الأحوال حوله:

- شوف يا حسن لا ثانوية نافعة ولا جامعة ولا دبلوم كان
غيرك عمل حاجة.. مافيش حد بيعمل حاجة يا حسن..

وأمسكه حسن من جلبابه كأنه يوقظه من قنوطه ويأسه من الدنيا
حوله:

- يا عم مصباح قول الأمانة .. يعني أبطلّ مذاكرة
وأروّح..

- وهاتروح من أبوك فين.. لازم تاخذ الثانوية
علشان تفرّحه ..

- وبعدين ..

- انت شايف يا حسن إن ولاد بلادكم عنوان
للفشل والبوظان وأبوك وأمك واخدين فكرة إنك

هانتفع وتفرّحهم ومايعرفوش حكاياتك مع
مرات الصول وملكة مرات أمين النجار
والتالّثة تابتة سوسن مرات العازف بنت الترة
البولاقية. همّ عارفين إنك خاربها مع النسوان
؟ .. وسكت لسمع رده..

- لا ياعم مصباح النسوان هم الليّ خربوها
معايا.. أنا لقينها خربانة فدخلت في الخرابة من
جوه وإذاريت ورا الحيطان صحيح الحيطان
مدارية وراها بلاوي.. لكن لو تبص لحكايتي
هاتلاقيني عملت خير في البلد دي.. على فكرة
بيقولوا الحانة حرام ما كل واحدة عاملة في
بيتها حانة.. وبكرة المنتقبة حاتروح الحانة..

" اندهش خفير المقابر وقطب بين حاجبيه وأمسكه من يده باحثاً عن
الخير الذي عمله حسن، فراح كأنه قيّدَه "خير " خير إيه اللي إنت
عملته يا حسن:

- يعني لو مش أنا كانت مئى مرات الصول
هاتروح فين ..

- تروح في داهية هيّ وجوزها .. حياتهم كلها
كانت ضلّمة وحشيش في حشيش .. اهو
جوزها مات في البحر قرموط مبطون مات
بريخته المنتته..

- طيب ومرات أمين النجار..
- زي كثير من صاحبات البيوت في البلد دي..
- مش هي دي لوحدها اللي عامله شغل مع السكان..
- وسوسن مرات محمود العازف الرقيق..
- أهى دي من مصر .. ياريت ترجع لبيتها في شارع الترعة البولاقية..
- علشان تاخذ راحتها ياشيخ.. مافيش شغل لأي واحدة في الدبلوم في شارع شبرا أو الترعة..
- تشتغل زي ما كل واحدة معاها دبلوم هيّ عايزة إيه من واحدة واخدة دبلوم.. ولما تغلب بكرة الشوارع هانتلمي حانات..
- يعني اللي مش واخدة دبلوم بيسيبوها..
- إنت بتقول كلام مالوش واقع.. إنت وسوسن بتدوروا على عالم مالوش وجود.. يعني إنت وهي بتدوروا على الشرف والأمانة وإن كل مرحلة لها حدود وأصول ومعايير.. يعني إنت وهي عملتوا إيه ياشرفاء.. هم إنتو شرفاء ياحسن..
- بندور على حل بصحيح..

- حل إيه يا حسن إنت بتضحك على مين، هو
إنت عملت إيه واللا روح فين بالكلام عن
الناس إنت وهي.. طيب ممكن تقولي عملت
إيه من ساعة ما سكنت في بيت أمين..

- ببل ريق..

- بتبل ريق مين..

- نسوان حياتها ناشفة من سنين..

- وإنت جاي البلد دي علشان تبل ريق النسوان
يا حسن..

- وأنا هاعمل إيه النسوان هي اللي جت ما
عتقتيش..

- والله .. وإنت بقي المنقذ..

- أنا واحد بعيش الواقع اللي أدامي..

- لو كنت راجل صحيح وبتكلم عن الدنيا
الوحشة حواليك بجد وحقيقي.. وسكت..

- سكت ليه .. كنت عملت إيه..

- كنت قلت يافكيك..

- على فين ياعم مصباح .. فكيك على فين ..

- على أي حنة بعيد عن الحريم ..

- هوّ فيه حد يجيله لقمة طرية ورزق ويسيه ..
- شوف بقى ماتعملش فيها ناصح وأمين، إنت زي أي حد بتاع كلام.. كلنا اتعلمنا الكلام لأن مالفناش حاجة تانية نعملها زي الناس..
- طيب إنت عايز مني إيه..
- خلّص امتحانك ومن النهاردة خلص من نفسك ماتخليش ملكة ولا سوسن تجيلك وتخش عندك..
- طيب وبعدين..
- تروح بلدك .. تروح مصر.. بس بلاش تفتح بابك لأي واحدة عندها مشكلة إنت مش حلال العقد..
- وليه ماحولش أحل مشاكل النسوان بطريقة تانية..
- مش هاتقدر.. دا طريق كبير .. كان غيرك أشطر..
- وبعدين ..
- ولا قبلين .. خليك على أدك.. إنت تلميذ.. خليك تلميذ وبس..

- ماينفعش أنا طموح وبحب أعيش في المجتمع..
- خلاص إنت حر.. روح عيش زي ما انت عايز وبلاش تجيلي تاني..
- أوي أوي ياعم مصباح..

" أيام وليالٍ لا تنتهي "

=====

بعد أن أمضيت قرابة عامين خلف جدران هذا البيت فإن رجلاً وامرأتان قد جعلوا من مدينة وراء تلك الجدران عالماً صنعته رغباتهم وشبابهم في بلدة عريقة في التجارة والحرف المتعددة شيئاً آخر جميلاً صنعته أسواق كل منهم في إقامة مدينة تختلف كل الاختلاف في أرض كل حياتها أسواق وبيع وشراء، وكم تمت نساءً وفتيات كثيرات منذ زمن بعيد أن يقمن مدينة أخرى من أسواقهن لكن لم تكن أبداً أمنية تحققت كما تحققت عند حسن وامرأتان، وكان أكثر ما يجري في شوارعها وغرفها المسكونة من شباب أكبر سناً هم شباب المعهد الأزهرى، والذين يقطنون في بيوت قديمة تلتف حول المدينة القديمة في أزقة وحواري متفرعة من شارع الملاح وشوارع قرب المستشفى وخلف محطة السكة الحديد عند مدخل المدينة من ناحية الزراعة الموصلة إلى قرية سرس اللبان أكبر قرية في العالم، والذي شيد في طريقها مبنى هيئة اليونسكو العالمية والذي يحضن هذه القرية في حنان عند مدخلها الغربي، وكان من علامات هذه الزراعة مبنى محطة المياه التي تغذي مدينة كبيرة مثل منوف والتي يقع بالقرب منها أكبر إسطنبول للحمير والبغال والجمال والذي يكتظ بهذه الحيوانات يوم السبت وهو يوم السوق الكبير، ورغم حنان مبنى هيئة اليونسكو الذي يحضن مدخل طريق سرس اللبان في قوة وثبات، فعند محطة المياه هذه وصوتها الطاحن الذي يقترب من صوت ماكينة الطحين، فإنه

بعد قليل ما ينجم عن الإسطبل من تنهيق الحمير ومهممة البغال والخيل والمعيز وبرطعة الجمال، يصدر منه مثل أي زريبة حمير ما ينسبك تماماً أن داخل بلدة فيها أكبر سوق للمواشي في المديرية وفيها من المدارس الثانوية زراعية وصناعية وعامة ومعهد أزهرى كبير وأشهر مدرسة للبايزين في المحافظة هي مدرسة ظاظا.. كل هذا ينسبك أنك تدخل مدينة واحدة.. إن منوف عدة مدن وليست مدينة فيها شيء واحد.. وإن أول ما يضبط هذا القول بالفعل هو مطعم أبو النور للفول والأشمونى للسبك والجعبري للسردين والفسيوخ ومحلات بصله ودياب للأقمشة، فإذا دخلت مطعم الفول عند أبو النور فإن كل ما في رأسك ينسبك كل الطرق التي دخلت بها هذه المدينة، إن طبق الفول وحده ينسبك كل ما أكلته في قرينك من أسبوع مضى.. فما بالكم أيها السادة من شاب يأكل طعاماً بيتياً كل يوم من يد امرأتين كل منهما تبدع في طهيها من أجل إشباع وإرضاء ذلك الصغير، لقد نسى حسن طعام أمه ورعاية أبيه والترعة والجميزة ومراكب الصيادين، نسي مكتبة قرينته وكل الكتب التي قرأها في كرتونة سميرة إبنة الكفر، نسي حكايات أبيه وصوت آذان المغرب فوق موج البحر الأعمى من أعلى مأذنة في قرية هيت التي يعيش فيها أفقر صيادي السمك في مديرية المنوفية، ومع ذلك لا بد أن أغادر إلى مدينة أخرى تجعلني أنسى هذا الانسجام مع ذاتي وهاتين المرأتين، إنني أشعر أنني أغوص مع نفسي في لذة لا نهاية لها فهل لذلك التمرد الافتراء على النعيم، وكيف لأهل بلد كل أهلها يعانون من الفقر ودم الشهيد وفوضى

التعليم والحفاظ على بنات الدبلوم وِعِيال الصنایع والزراعة ومعاهد المعلمين، كيف لأهل بلد يدفعها حكامها إلى أعمال ليست أعمالهم، من علم العالم حولنا ألوان الدعارة ومن جعل الحقير شهيد ومن جعل الشاويش قائد ثورة ومن جعل العقيد زعيم، ومن جعل سوسن تعود إلى شارع التربة البولاقيّة ومن سمى حارتها بحارة البطل والبطل هذا كان لصاً وقواداً ومازال هذا الاسم ملصوقاً فوق أول جدران هذا الشارع، ومن زوج ملكة بأمين، ولماذا تتازعت المرأتان على غلام مثل حسن وهما من بيت واحد، ومن جعل محمود يعزف على جيتاره طول الوقت، ولماذا انصرف أمين لعمله في شبين ألا توجد في منوف ورش للنجارة، هل للغريب حلاوة وهل للصبي طلاوة وهل لأمين كرامة حين يوسّع لبيته كي تشبع زوجته مما جوعها منه، هل كان لأبو نواس أثر في أن تتجب بلاداً أخرى مثله، أهو الذي أقام مدينة الكعوب في تربة سرس اللبان، أكان لحجر عتريس الذي يبيعه في كل أسواق المديرية أثر في ازدهار ولمعان أحجار التربة تحت زغلة عشرات الكعوب صباح مساء في تربة الكعوب تحت كوبري هذه القرية الذي يفصل الطريق الموصل لسروهيل ومن الناحية الأخرى بلدة جروان تلك القرية التي تغيّر ألوان الحمير، أليست قرية سروهيل هي الأرض التي ولدت منى زوجة الصول، من قديم في زمن ما كان أهل هذه القرية يدهنون الحمير بلون آخر بعد أن يسرقوها ثم يبيعونها.. من كل هذا العالم لابد أن أرحل، إن كل ما فيه يوجعني ومن الألم ما يدعو إلى الرحيل..

في أيام بعدها نمت كثيراً وتورّمت عيناى من شدة إنكفائي على
 نفسي، وفي ليلة رُحّت أمشي على غير هدي في المدينة المترامية
 الأطراف، ورأيت ناساً من نوع آخر يختلفون عنهم في وسط البلدة،
 وكنت أتمهّل عند نواصي الشوارع الضيقة والأزقة وتلك الميادين
 التي في وسطها نبتت شجرة أو ألقيت عربة كارو مكسورة، وكما
 انبهرت في أول مجيئي بشارع القيسارية وميدان المحطة إنبهرت
 بأحياء هذه البلدة المترامية الأطراف، حيث يسكن فيها أصحاب
 الحرف والمهن الصغيرة وبائعات الفل والورد وضاربات الودع
 وشغالات البيوت وبائعي الترمس والبطاطا والدوم، فراندات في
 حجم شبابيك لا تتسع إلا لأحبال وأسلاك علّقت فيها ثياباً مغسولة
 مرقوعة، وهؤلاء فتيات تحتضنهن عباءاتهن السوداء والألوان
 المزركشة، لكن أذرعهن العارية لامعة من شدة دعك الحجر حتى
 ينزح عنها اللون الأسود، وياجمال صدورهن الخمرية المكشوفة
 عن ألبسة الصدور المحبوكة بلونها الأزرق والأحمر حتى تزغّل
 عيون الرجال والشباب، تخرج مجموعات من الفتيات تاركات
 بيوتهن الصغيرة مخترقات الشوارع والميادين إلى وسط البلدة
 وشوارعها التجارية المشهورة ليعرضن أنفسهن بأسعار تفوق
 قروش ديارهن الضيقة الفقيرة، ولم تكن هناك فتيات أو نساء في
 قلب المدينة يهتمن بتلوين أظافر أقدامهن أو أيديهن كما تفعل
 فتيات أهل هذه الأحياء التي تحزّم البلدة من كل ناحية بيوتهن
 وغرفهن المتناهية في رقة الحياة والمتناهية أيضاً في خدمة أهل
 المدينة والغرباء من أعمال التطريز وبيع الطُرح والعباءات والعطر

المعتق وأنواع كثيرة من كريمات الوجه والجلد وأدوات مراهم نتف الشعر ومعالجة حبوب الجلد ورسم الحواجب والشفاه وتغيير ملامح الوجه ناهيك من أنواع لا تُعد ولا تحصى من حنة الشعر، عندما يأتي الصباح فتلك الأحياء نائمة حتى منتصف الوقت بين الظهر والعصر، بينما كانت في قديم زمن مضى أول ناس تستيقظ ليدخلوا المدينة بحثاً عن أعمالهن وأزراقهن، ولكن أولاد وفتيات هذه الأحياء ولدوا من حاجاتهم وشدة فقرهم، وجعلوا أجسامهم وعقولهم يتولّد عنها سوق لبيع الهوى في بلدة متاجرة بكل أنواع القرش والجبن والفجل والجرجير، فلا يستطيع كل أهل هذه الأحياء ملاً بطونهم حين يتمسكون بمهن وحرف آبائهم وأمهاتهم الذين ماتوا، من الذي أتى بكل هؤلاء التجار الفطاحل في شوارع البلدة بتجاراتهم واحتكاراتهم، إن كثيراً منهم لا يستطيع إخراج مكاتبهم حفظ أموالهم.. إنهم يضعونها في أشولة البطاطس والدقيق الفارغة ويخزونها في بيوتهم وبعضهم يتعاملون مع البنوك في مدينتهم ومدن أخرى، كيف يستطيع الفقراء ومتوسطي الحال العيش وسط هذا الغنى الفاحش لتجار منوف، وكما ازدهرت تجارة القماش والملابس والأغذية ازدهرت تجارة السرددين والرنجة والجلود والفول المطمور الذي تشتهر به قرية برهيم التي تقع في شمال المدينة، وكان لتجار المواشي شأن كبير في السيطرة على أسواق الجزارة والجبن والزبد واللبن، وصناعة الحصير والسروج وحوافر البغال والحمير حتى شماريخ الفلاحين وطواقيمهم وكل ما يخص قعدة دكاكينهم من جوزة وحجر وماشة وكوبايات الشاي الصغيرة،

كيف يواجه أهل تلك الأحياء الفقيرة العيش في ظل مجموعات تجارية قوية ما تركت شيء إلا وأدخلت فيه التجارة بكل قسوة وبلا رحمة وقريباً سوف يعبثون الهواء في أرايز، كيف تواجه السواعد التي لا تملك شيئاً احتكارات هذه البلدة التي لا ترحم فقرائها أو متوسطي حالها أو هؤلاء الغرباء من تلاميذ أولاد فلاحين جااهلين بطبائع وأساليب أهل مدينة جبارة تغلق الحجر وحتى يمكن للتجار بما تحتويه أجولتهم من بكاوي مرصوصة تختلف عما في بطن الجبل من ذرات رمال وأنواع من كتل الحجر..

" وإذا تجاوزت الفتاة حي بيتها أحبكت لف عباؤها حولها وقالت لنفسها:

- أنا حرة أنا فوق جسد النهر.. أنا مثل عاصفة في البحر.. أنا مركب يسبح فوق موج صاخب ضربه أغنياء المدينة منذ قرن عندنا فساقونا إلى حرية ليست من صنعنا، فلقد صنعها الرجال مثل أي تجارة تباع وتشتري في سوق فوق جسد النهر، ولماً لم يكن في المدينة نهر اتخذوا من شارع المستشفى الفسيح الطويل شارعاً للهوى، ولما كانت الفتيات في العادة خجلى من أي امرأة مطلقة أو أرملة فإنها في كل حالاتها لا تخجل إذا قالت لمن يريدنا:

- أكو بيت .. أكو دار .. أكو شقة .. أكو فلوس
هي فتاة الحي كله . ولغة واحدة .. فيه مكان
.. فين المكان .. خلاص نركب حنطور أحسن
ياله بسرعة ياله ياله .. أخويا وأبويا .. في
لحظة عملت شريفة بالخوف .. وكله حركات
هو فيه أحلى من الحركات هو فيه أكرم من
الخنجل .. هو فيه في البلد كلها أجمل من إن
واحدة تقلع هدومها لواحد بمزاجها .. لكن كله
بالفلوس، فقالت إحداهن لرجل يملأ حجرها
بالبكاوي .. خدي خدي .. قالت له بضحككتها
الفاجرة والله لو مش بمزاجي وإنّت داخل
مزاجي يابو كرش مارضالك بفلوس الدنيا كلها
.. فيقول لها رجل من ليلة لأخرى:

- هو إنت مين .. هو إنت بحر ..

- لأ أنا نهر .. عشان البلد مافيهاش نهر .. شوف
البحر الأعمى خايف يقربّ منّا. هو البحر ده
الواصل عندنا فايت على بلدكم ..

" إن جسد النهر يغطس تحت الموج ورأس النهر موج يسبح فيه
الصيد بقاربه ويغني، ولولا غناؤه وطبلة الصيد لما دخلت سمكة
واحدة شباكه، أنا مثل جسد النهر من أجل سمكة وقرموط وصيرة
أسبح مثل القارب فوق موج البحر .. يابحر .. يابحر يخليك لبلدنا

وزي ما بتجيب للصيادين سمك وقراميط هات لنا ولاد البلاد
يسكنوا في بيوتنا علشان بدل مانطلع نصيع في الشوارع نلاقي
زيتنا ودقيتنا جوه ورا حيطان مدارية.. أغني وأرقص وأنام على
سرير حسن في عز جديد ماكنشي موجود قبل كده مع نسوان مانت
من زمان اتحرموا من عز البلد اللي إحنا فيه دلوقتي هايصين فيه
مزقططين.. خدنا الدبلوم واتوظفنا في بيوتنا ولا محتاجين وظائف
بره في مكاتب فقرانة الواحدة منا بتطفح الدم وتأخذها ملايم
ماتشترش طعمية وفول ولا حتى سردينة مخلفة من شارع
الملاحين.. والله التلاميذ بره وجوه مخليين نسوان بلادنا فل
وعشرة.. زغردي ياسوسن وارقصي.. شفت بقى يا حسن أدي انت
طلعت واتمشيت وشفيت البنات في داير الناحية وشارع المستشفى
وفي الآخر رجعت بيتك.. لقيت يا حسن زيي.. حلفتك بيايه تقولي..
مش عايز تتكلم مكسوف مني.. لما تزهق يا حسن ثاني خد إيدك
بايدي ونمشي من البلد دي خالص ونروح سوا شارع البطل أكيد
هانلاقي كل يوم شهيد وشهيد جاي من اليمن نصوت عليه ونعمل
واجب مع أهله.. هو دا أحسن عمل في البلد.. صدقني تعالى نروح
شارع البطل.. إمتى تاخذ الثانوية العامة ونمشي من بيت ملكة
كفاية كده ..

فقال لها بغرابة:

- ومحمود جوزك ..

- ماتفرقشي .. مش داري بأبي حاجة.. أنا عايزه
واحد شايفني.. بيدلّمني بيرقصني.. بكفاية كده
يا حسن تعال نروح بيتنا في شارع الترعة..

"مدينة بعيدة مش زي منوف"

=====

"كان يبدو أن سوسن اتجننت حتى جوزها مش مهم .. هي عايزة تهاجر وبس ومعها حسن .. ولما ينتهي الامتحان يغادر كل التلاميذ المدينة ويحزن أهلها على خلو البلدة من العيال، هم عيال صحيح بس كل البلد شغالة بيهم وخاصة السكن والفول والطعمية والسردين والحناطير، وكان شهيد واحد يدخل المدينة في النهار أو الليل ليدفنه أهله في مقابرهم كفيل بنشر بعض الأحزان على البلدة ولكن عندما يقول بعضهم كالعادة:

- يابخته مات شهيد هو حد مننا يطول طولته ..

وكان هذا كلام العامة وبعضهم يقول:

- حد زيه استريح وريح يعني الدنيا حلوة أوي...

وينهمك الناس في أعمالهم وتروح الحياة بأسبابها وأكلها وشربها يمين وشمال والدنيا تضرب ثاني حتى إن الناس كانت بتزعل على رحيل التلاميذ إلى بلادهم أكثر من مجئ الشهيد ليُدفن في المدينة، والنسوان تصوت وترقع شوية ندب وبعدين تغلب أحزان الحياة على أحزان الوفاة، وكان كثيرون يخافون أن يعلنوا أحزانهم على إينهم لأن هذا أمام الأمن نكران لما أطلقه عبد الرؤوف الزلباني.. وهو فيه حد يُرد كلامه.. دا هو المقدم والملهم والبطل وأسد البحر المتوسط، هو فيه حد يقف أمام تحرير هذا العالم الذي حولنا، هو

ابن بلدنا الملمه الذي إذا قال صدق وصقّف واهتف يا ابن خضرة الهاتمة أحسن والله عربية المركز تيجي تلمك على أشمون إلحق نفسك هو إنت خائن ولا عميل.. دا شهيد .. دا عميل دا خائن يبقى صح هو حد يعرف أحسن من البطل .. هوّ الحق والمفتي هوّ أبو الفقير .. يالّه ياواد يا جلال إلحق لك رغيف.. أعظم كُتب العلم هو كتاب القراءة (المطالعة) في سنة أولى ابتدائي.. اللي فيه جلال يأكل الفول.. ولا يوجد مدرس في العالم مثل الشيخ سيد زهران الذي حمّي وأثار كل تلاميذ مدرسة صبحي حينما كان يدخل الفصل ويقف التلاميذ تحية له.. فيقول بصوت عال ياولاد . عاش عبد الرؤوف عاش .. عاش .. عاش ..

ثم نقرأ في كتاب المطالعة، فيقوم أقوى التلاميذ صوتاً في الفصل وهو فوزي بن حداد الجمال.. يقول مطالعاً في الكتاب.. شر شر نط " أرنب شط .. جلال يأكل الفول، ألم يقل أحد بعد سنين طويلة أن هذا جهل وخيبة .. لا .. هذا ما أملاه علينا البطل، إنه جاء إلينا بأفضل كُتب العلم في العالم .. وبعد أقل من عشر سنين من حركة ١٩٥٢ كانت أعظم الأعمال التي قامت بها شعوب العالم هو ما قام به شعب مصر بقيادة عبد الرؤوف وهو عمل ثورة اليمن، وكانت ثورة اليمن نتيجة وترتيب وخميرة من كثرة عبادة التلاميذ والفلاحين والعمال ترديداً لما نص عليه كتاب المطالعة العظيم.. جلال يأكل الفول، إحنا أبطال التحرير، ولم يتغير كتاب المطالعة هذا إلا بعد سنين طويلة، لأننا انتظرنا طويلاً نتائج هذه الثورات وكان أبرزها شاويش ورا خفير قالوا لنا متشكرين، وجاء جلال

مرة أخرى بقدم أحمد بن بيللا ثم .. ثم .. قائد التحرير لابد أن
يغير العالم من حولنا ولم يتغير كتاب المطالعة حتى انتهت المرحلة
الابتدائية، وكان أحلى حاجة عتريس لما يجيي سوق الخميس..

- وبعدين إيه اللي حصل يا حسن..

- كان فيه كتير من التلاميذ مش راضية عن اللي
بيحصل، ولكن هو كتلميذ يقدر يعمل إيه، إذا
كان المدرس بيهتف وأبوه بيهتف وأمه والله ما
فاهمة حاجة..

- وبعدين يا حسن..

- بقى كل واحد يمسك حاجة يتحكم فيها وينتقم
من كل اللي قالوا له اهتف وقول يحيا..
مش فاهمة..

- كتير من الحرامية والنصابين انتشروا في كل
حطة.. كل واحد عايز ياخذ حقه بطريقته..
برضه مش قادرة أفهم..

- شوف الجمعيات الزراعية وبنوك التسليف
وبنوك القرية ومشارع تسمين المواشي
وأتوبيس عبد الفتاح أبو جاموش وعربية
فرحات شعيرة العربية الوحيدة التي تودي
أشمون...

- إنت بنقول إيه ... إنت توهنتي..
- شوف من غلب العيال الصغيرة وجهلهم زي
 جهل أهلهم .. كنا لما نشوف أي أتوبيس نجري
 وراه ونقول الكافوري أهه.. ونجري ورا
 الدحدوح وعبدہ أبو حتہ كوز ونهتف ورا علي
 سحلوب ونقوله يابو طربوش.. عايزه إيه من
 ناس كلها بتحشش في الدكاكين وتقلب النسوان
 في الدرة وعمك أبو إيد ناعمة أبو عمة بيصلح
 الستات الغضبابة بالتحسيس.. دا مجتمع ناصح
 ولا عبيط.. ١٩٥٢ زادت الناس عبط وتهيل..
- أيوه كده قرّبت أفهم لما قلت ١٩٥٢..
- المهم دلوقت هانروح فين .. أنا خدت الثانوية.
- روح الأول فرّح أبوك وأمك بالشهادة..
- على إيه يا سوسن، يعني جبت الديب من ديله.
- هيّ دي فرحة الناس في البلد كلها..
- الثانوية زي دبلوم التجارة إنت مالتيتش أي
 شغل في شبرا كلها..
- ياريت كده وبس..

- كل واحد عايزني أرقد له الأول وبعدين
اشتغل..
- الحمد لله إنك اتجوزت محمود ..
- وقبل ما تجوزه حصل إيه مع أوسطى الرقص
في التوفيقية..
- مش عارف..
- أحسن ما تعرفش..
- ولما اتعلمت الرقص رقصتي..
- أول ما رقصت رقصت لظابط من ١٩٥٢..
- وحب رقصك..
- حب ما حبش هو برده في الآخر عايزني
أرقد..
- وبعدين هربت منه..
- هربت منه لما جوّزني أبويا من محمود، وكنت
باحسب إن الجواز هايحل كل مشاكلي..
- طيب وبعد عشر سنين من الستر عايزة
تروحي التوفيقية ثاني..

- هادور في نفس الدائرة ثاني .. الأول هاروح
شارع البطل وأشوف البنات اللي كانوا معايا
راحوا فين..

- وبعدين..

- بس الأول تعال معايا أسكن في بيتنا وأنت
رايح مصر طبيعي علشان تدخل الجامعة..

- أنا بحب أسكن في ميدان الخلفاوي كل أهل
أمي هناك..

- عيبك إنك صغير وعنيد وبتحب أي حد من
ريحة أمك..

- مافيش حد من ريحة أبويا أقدر أحبه ..

- اعتبرني من قرايب أمك..

- مافيش حد من أهل أمي زيك ياسوسن..

- ماتعيش على حد .. بكره تبقى معيبة.. إنت
عارف بكره هاحصل إيه في البلد..

- يعني مافيش حد بيفضل على حاله..

- إحنا في ثورة مستمرة وطول ما فيه ثورة فيه
شهيد وكل يوم جاي ياما هانشوف..

- ويهون عليك محمود ويهون عليّ ملكة..

- دا موضوع لازم ننساه، هايبقى يوم ذكريات..
- المهم أنا عايزاك دلوقتي تيجي معايا مصر..
- هناك بيتنا القديم هايحبك أوي..
- هناك مين هايصرف عليك .. وأنا تلميذ باخد مصروف..
- يمكن ألاقي شغلة بالدبلوم..
- إذا كان الحال دلوقت في البلد أوحش بكثير من عشر سنين..
- مش قلت لك قبل كده هاشوف البنات زمايلي عملوا إيه..
- أكيد اتعلموا الرقص وبقت كل واحدة منهم حاجة من سنين..
- بالرقاد — ..
- لأ لا بالفن..
- مافيش واحدة بالفن وحده تبقى فنانة..
- نفسي مرة أفهمك..
- أفهمك إيه.. لازم من الرقاد .. طول ما الواحدة حلوة لازم ترقد علشان توصل..
- أمال الراجل.. يوصل إزاي...

- الراجل ماعندوش حاجة يرفعها.. وأي راجل
يوصل عن طريق واحدة ترفع ..
- وهو مين اللي قال كده ..
- إنت لسه عيّل صغير ولما تروح مصر
هانتشوف كل حاجة بنفسك..
- مش عايز أشوف حاجة، بعد اللي حصل معايا
في البلد دي عايز أعيش لوحدي حتى أبويا
وأمي مش عايز أشوفهم..
- لأ كده ماينفعش..
- آمال إيه اللي ينفع ..
- نروح مصر الأول وبعدين نفكر نعمل إيه ..

" عالم كبير قرب البيت القديم "

=====

ورحت أتهدى بخطواتي على مهل بين نواصي الحارات والأزقة
في الحي القديم المتاخم لأحياء أخرى أكثر قدماً، إلا أن بيوتاً قد
شهقت في الأطراف وعلت طوايقها، ولما أخذتني خطواتي إلى
شارع أكبر يلف الحي وأحياء مجاورة تكشف لي سحب السماء
فوجدت صفحتها أشد زُرقة، وقد ارتسمت في أفقها مثل شاطئ نهر
أو بحر صغير كالبحر الأعمر الشهير في المديرية، وشعرت
بالخوف لشعوري أنني أدخل عالماً جديداً خفق له قلبي، فعدت
أدراجي إلى الحي القديم الذي دخلت فيه مع سوسن حيث بيتها
القديم، هدأت نبضات قلبي وتبدل الخوف بدفء وحنين خاصة
وأنتي وجدت المرأة التي جئت معها تنتظرني خلف الباب بلهفة
قائلة:

- »
- كنت فين .. باحسبك تَهت .. حرام عليك ..
موتتي وموت قلبي ..
 - آه .. آه .. معقولة .. هو انت أمي .. هو أنا
صغير ..
 - عندي أنا صغير .. لما تروح مني هاروح فين
.. يبقى لي مين ..
 - إهدى .. إهدي ..

وأخذتني إلى غرفة بها سرير قديم ودولاب أقدم وكنبة مثل كنبة عمي دردير وترابيزة مفتوحة في شكل طبلية بنت عمتي مجيدة عريبي.. ورائحة عبقت أنفي بين ريحة البخور وعطر عتريس وكان زمناً مضى جمعته قوضة عمي عبد التواب أبو سوسن المولود في منوف سنة ألف وتسعمائة وسبعة، وهو من حي أبو النور ويمت بقرابة بعيدة لشيخ من الأزهر بدأ يلمع اسمه في منوف، ونفس الطعام الذي أكلته من يدها في بيت ملكة، الثقلية زيادة والسبكة أكثر حبتين وعيش عبارة عن شقق كبيرة اشترتها سوسن قبل سفرنا بيومين من عطيات صاحبة فرن الخبز في حي الفلاحين قرب اشتقاق الطريق البحري المؤدي إلى بلدتي برهيم وأبو المشط بلاد الفول المكمر بحري منوف بشوية صغيرين، وشعرت بأنني أندمج مع نفسي عندما أكلت وشبعت، ومرّ بعض الوقت فيه ارتدت إبنة عمي عبد التواب من الثياب أحلاها لوناً وأرقها شياكة، وكان جلباباً شفافاً يظهر ساقها ونصف صدرها، وقصّت شعرها الأسود وعقصته فوق ظهرها، وكان وجهها نوراً ليس مثل وجهها الذي ألفته من قبل، وعيناها نجلاوان قرأت فيهما عنواناً آخر غير الذي اعتدت عليه في بيت ملكة، وتهت وأنا على فراشها فألبستني جلباب أبيها فارتجف قلبي لأنني أرتدي جلباب ميت، فقالت لي:

- أبويا مالبسوش مرة واحدة ...

- هو أنا لاقى غيره.. دا فضل ونعمة..

- أيوه كده إحمد ربنا..
- طول عمري حامده..
- عمري ما شفت واد مفترى أدك..
- دانا غلبان كنت باركب الجاموسة واكل فطير
من المحمة..
- علشان كده كانت بتغير عليك مرتين ..
(امراتان)
- دي جت بالصدفة..
- والصدفة إني لقينك ورجعت معاك مصر
ولولاك ماكنتش أقدر آجي بيتي القديم.. بيت
أبويا اللي اتهجر من سنين..
- على فكرة عمري ما جيت مصر إلا مرة
واحدة..
- إمتى ومع مين..
- من سنة فانت مع أبويا وكنا جاينين زيارة
لخالتي لما ولدت بنتها..
- إنت هاتحكيلي حكايات..
- طيب ما تزعلش أنا عايز أنفسح..
- مش فاهمة..

- عايز أتفسح.. أمشي شوية في شارع شبرا..
- ودي فسحة..
- أحلى فسحة.. الله يرضى عليك وديني شارع
شبرا علشان أفرج على الترمي..
- هي دي الفسحة عندك دا انت تحفة يا حسن..
- تحفة تحفة بس أشوف الترمي..
- هو الترمي عامل لكم إيه يابتوع البلاد..
- زي الحنطور في منوف.. روح اسألني مني
كان الحنطور عامللي إيه معاها..
- كلامك غريب.. مش بتقول منى ماتت..
- لو رُحت عند تربتها هاتطلع وتقولك عن
الحنطور..
- هو فيه ميت بيصحى ثاني..
- معنى كلامي من حلاوة اللي حصل بعد كل
ركوبة حنطور يمكن الميتة تصحى وتحكيلك..
- ياسلام على الدنيا الواحدة مهما عاشت
واتمعت بتموت ولكن اللي كان كان ..
- وعلشان كده ياله نروح شارع شبرا..

- دلوقت.. إنت مجنون يا حسن.. إحنا بعد نص الليل..
- وإيه يعني هانشوف الترماي ونرجع على طول..
- يا حسن خليك عاقل الترماي خلّص ..
- يعني إيه خلّص..
- مافيش ترمایات ماشية دلوقت ..
- خلاص سيبيني أنا مأتجيش جنبى..
- يانهار إسود عليك دانا قلعت هدومي..
- روجي في ستين داهية مش إنت حرميتني من الترماي
- إنت فعلاً عيّل صغير.. مانت كنت في منوف شغال على طول
- كان فيه حنطور باسمع صوته لغاية الصبح..
- يا بختك ياسوسن أول ليلة في مصر نكد معاك
- على فكرة المفروض نريّح الليلة دا احنا جايين من سفر..
- بتحب صوت الفرس أو البغل أو الحمار..

- هو والحنطور واحد .. أي مهمه أو نهيق .. من
غير البغل ما يمشيش الحنطور ..
- على فكرة فيه عربجي ساكن ورا بيتنا ياريت
الحمار بتاعه ينهق ..
- كل واحدة ليها كار يموت الطبال وصوابعه
بتلعب ..
- وهو لولا كل واحد وواحدة ليه شوية مزاج أو
ليه مفتاح تفتحه منه هي الدنيا ليها معنى من
غير كار ..
- إطفئ النور يا سوسن ..
- وأظلمت الغرفة وانكفأت على صدره بوجهها تبكي وتقول وتتهنه:
- إنت أبويا .. إنت أمي .. إنت .. يا حسن خربت
بيتي ..

"أرملة شهيد في شقة زكي"

=====

كان كثير من شباب شبرا والترعة البولاقية في اليمن، منهم من ترك طفلاً أو طفلة ومنهم من ترك غلاماً، وترملت الكثيرات وهن مازلن شابات يافعات لم يهنأن بالحياة والزواج، ولما ذهبت سوسن في صباح اليوم التالي تسأل عن زميلتها وصاحبها محاسن بنت حي العسال وجدت أمها في البيت ولم تجد محاسن فقالت لها:

- فين محاسن ياماما ..

- مش إنت زميلتها، أنا متهيألي شفتك كثير

بتأخدي درس معاه، بس الكلام ده من سنين ..

الدنيا اتغيرت والوشوش كبرت يابنت ..

- أي والله ياماما .. أنا لسه جاية مصر امبارح ..

- كنت فين دا كله ..

- اتجوزت من عشر سنين .. أبويا جوّزني واحد

من البلد ..

- خلّفتي ..

- خلّفت إزاي .. إذا كان .. وسكتت .. وضربت

كفاً بالآخرى وتابعت ..

- المهم ياماما فين محاسن ..

- يابنت محاسن اتجوزت ظابط ومافيش سنة
سافر اليمن يحارب هناك..
- وسكتت أم محاسن وسالت الدموع من عينيها وراحت تتهنه..
- خلاص ياماما.. خلاص ياماما فهمت..
فهمت.. جوزها جرى له حاجة..
- مات.. مات زي اللي بيموتوا وساب لها ولد
زي القمر.. نايم جوه ماكلش سنتين..
- يالهوي.. يالهوي.. وهي فين..
- عند أختها من إمبراح..
- وسايباه لوحده معاك..
- زمانها جاية..
- هي بتبات عند أختها كثير..
- لما بتتأخر في الشغل بالليل بتروح عند أختها..
- هي بتشتغل فين..
- باين في فندق.. هاتعمل إيه لو قعدت على
المعاش.. المعاش مهما كان ماييكفيش.. وهي
حزنت أوي على جوزها وبعد الحزن عليه
كانت هاتموت، وفي الآخر لولا طلعت تشتغل
ماعرفش كان جرى لها إيه..

- يالهوري ياماما .. دا ستات كثير مات جوزها
في اليمن..
- ياريت على الجوز بس، اللي أبوها واللي
أخوها واللي عمها.. كل البلد بقت دم ودموع..
- طيب ياماما هامشي وهاجيلها في يوم ثاني..
- ماتروحيلها عند أختها أدبك عنوانها في
الخلوصي..
- هات ياماما.. أحسن وقت أروح ليها إمتى..
- بعد العشا على طول..
- هي بعد العشا بتخرج..
- أيوه..
- شغلها بالليل، عرفت منها إن شغل النهار
ما بيعملش حاجة..
- هي بتشتغل إيه في الفندق..
- هو أنا أعرف في شغل الفندق، على أيامنا
ما كنش فيه فنادق..
- .. بعد حرب الثورة في اليمن امتلأت البيوت بالأحزان وسارت في
الشوارع كثير من النساء المتوشحات بالملابس السوداء، وسكنت
كثير من الدموع على مخادع الزوج الذي كان، وبعد شهور

استعادت الأرامل بعض من عقولهن وبدأن يبحثن عن ماذا تفعل بعد أن أصبحت أرملة بلا رجل، وطفل بلا أب وامرأة بلا وال، .. ولم نأت لنخطب أو ننثر الناس أكثر مما ثاروا، ويكفيها في بلادنا خطيب واحد وثائر واحد، ويكفيها كثير من المعلمين في كل مقهى عاملين رجالة وفتوات وبلطجية، وانتشر التسكع واتسعت دائرة الهوى المباع في شوارع شبرا والترعة البولاقية وفي كل الأحياء كل حي بما يخصه، فأنا وسوسن ومحاسن وعشرات أخريات يكفيها شارع شبرا الكبير وحواريه من أول ميدان الخلفاوي حتى أول سكة قطر الصعيد، ونحن أبناء الترعة البولاقية يكفيها من أول شارع عبد الحميد الديب حتى أول طلعة كوبري رمسيس، وبعد حرب اليمن وآثارها بدأت حالات من الفوضى واللامبالاه وعادات وتقاليده جديدة على المجتمع الذي منه يخرج الثوار والوحدويون والمناضلون وأصحاب القيم، ومنه أيضاً يخرج المعلمون والقوادون والأندال ومن تحت وبين الثنايا والضلوع تتخرج النساء في الملاهي مومسات وصاحبات الليل في الحانات، .. محاسن واحدة من عشرات مثلها بل ومئات من أرامل الشهداء الأبرار اللائي منهن بدأ مجتمعاً جديداً ينشر خيوطه وتقاليده ويرخي تبعاته على ناس غير منظمين فلاحين وعمال وخطيبته بيطه يافرخة يا أم أليطة، وناس كثيرة تانية هرد بيسة بيسي وناس تدن في مالطه في الكنيسة ياناس شوفوا عيسى شوفوا مريم شوفوا الطهارة والاستقامة، وكام كنيسة في شبرا تدق أجراسها ولا من سامع ولا من منادي والناس شقت طريقها، والآدان في كل جامع وزاوية الله

أكبر ياناس.. ولا من سامع ولكن حد بينادي، كانت الملاهي أقوى
والحانات ملأى، وكل واحد وواحدة أسهل عليهم يروحوا الملاهي
يجيبوا واحدة مرات شهيد يشتغلوها وينسوها أحزانها ويخلوها كما
تنسى إن ليها طفل نايم في بيت أبوها أو أمها وأختها يبكي أبوه
اللي طهر أرض اليمن من الإمام ويبكي على أمه البارة الأرملة
اللي انفتحت على الدنيا وعاشت من جديد، وكل يوم واحد جديد في
شقة أو في بيت..

.. ومرّت أيام وحال البلد مشقوق زي كعوب العيش زمان لما
رغيف يتلعبط أمي تعمله كعوب صغيرة وترجعه ثاني للفرن
وتعدله، وتقدم عيش جنب التباو لأنفار الغيط، عمليات الترقيع
والتخبيط والتوهان والدموع والآه والندب الحزين إتعلّمته الناس في
شوارع القرى والنجوع وقبلها الناس في مصر متقدّمة من زمان لما
يموت عندهم قتيل يجيبوا واحدة ندابة تندب بربع جنيه وتقول
ويقولوا معاها ياشهيد، الناس في الترة البولاقية وشبرا من أشرط
الناس في مصر في المدارية حتى في حزنهم مستخبين علشان
العسكري بيلف حد يقول مش شهيد أو حتى يقول واحنا مالنا ومال
اليمن، دخلنا حياتنا من جديد وناس كثير اتشردت من قتل الجنود
والظباط في بلاد الغربية ولكن قلنا كثير إحنا لازم نكون فداء للوطن
ضد كل إمام وملك علشان العدل يتحقّق في كل اليمن ويتحرروا
من ظلم الإمام وبكره عبد الرؤوف يخطي على الملوك.. ملك وراه
ملك ومش مهم الشعب المصري يحزن ويندب ويموت من الجوع..

.. دخلت كلية التجارة في شارع أبو الفدا بالزمالك، وهناك تعرفت على أول زميل اسمه زكي شريف من قرية البيروم مركز فاقوس قرية يوسف إدريس، ويوم بعد يوم كبرت الشلة وكلهم من العيال البريئة من بحري وقبلي، هذا عبد الرازق بن عمده الشقر مركز الفشن، وسامي عبد الرحيم أخ عمدة تاسا وساحل سليم بالبدارى، وأحمد عبد الجليل من أسبوط، مش المهم الشلة فين ولكن مين صاحب مين ومين حب مين وكل واحد مننا راح على فين.. كل واحد راح سكتته ولما فانت أيام وأيام كنت أنا وزكي بس مع بعض على طول، وكل واحد مننا يجيب واحدة يعزم الثاني عليها.. هو إيه اللي بيحصل ده، مصر واسعة أوي.. دي بنت مين ودي مرات مين ودي أرملة ظابط حربية ولا صول مخلة، لأ أكثر من كده منهم كتير أرملة رائد وعقيد، وراح المجتمع يضرب ويبقى واسع على زكي وحسن، زكي بالكثير في بلده كان يجري ورا بنت نفر عندهم في غيط البرسيم..

.. كنت أهرب من بيت سوسن ولما تقولي كنت فين أقول في الكلية وأرجع ليها بعد منتصف الليل ولما غلبت مني ومابقتش لقياني ولا تأخذ مني حق ولا باطل قالت لي في يوم:

- مش كانت منوف أحسن.. كنت معايا بس، أنا دلوقت مش طائلة أي حاجة سبت جوزي علشانك، دلوقت لا صايبة مرات محمود ولا مطلقة ولا عاشقة لحسن، إنت عايزني أروح فين بالضبط..

- روعي الأول إطلاقي من محمود ..

- تعال معايا..

.. ذهبت معاها إلى منوف وقصدنا بيت الشيخ الصياد وهو شاب يكبرني بسنوات مشهور بصوته الجميل كقارئ للقرآن حتى يتوسط لسوسن بطلاقها من محمود الذي يعرفه حق المعرفة لما كانوا تلاميذ حتى المرحلة الثانوية..

.. استقبلنا الشيخ الصياد بترحاب وهو أصلاً من كفر سراوة مركز أشمون، وكان أهل منوف جميعاً يحبونه لجمال صوته في القراءة، وفي هدوء تم الطلاق وشكرنا الشيخ الصياد وعدنا إلى القاهرة ليلاً في نفس اليوم، ولما عدنا إلى بيت سوسن القديم انشغلت هي في الحصول على معاش أبيها بعد الطلاق، ومرت أيام فيها عرضت نفسها على حسن ليتزوجها عريفاً حتى لا ينقطع المعاش، وحسن في كل الأحوال عيّل صغير عمره ثمانية عشرة عاماً، وكان العالم في منوف خلف جدران ملكة زوجة أمين ثم لما جمع بين المرأتين في هذا البيت، كان كل العالم حوله في المدينة الصغيرة يستوعبه برأسه الشابة الصغيرة، ولكنه لمّا رحل إلى مصر في شارع البطل بالترعة البولاقية شعر بأنه لا يقدر على أن تتفرد به سوسن وحدها في بيتها القديم، لأنه وجد عالماً آخر حراً بين زملائه أولاد بحري وقبلي، وزميلاته بنات مصر، ولم يكن حسن يستطيع حتى جمع شتات نفسه لما كان يقترب بالذات من بنات شبرا، كانت كل البنات زميلاته من روض الفرج والخلوصي والترعة والخلفاوي وسانت

تريزا عالماً يخصه، تاه بين العذارى وامرأة تعاشره منذ أكثر من عام وهي تكبره بخمسة عشرة عاماً، فرق كبير لا يستطيع الجمع بين عالميه امرأة تحضنه وتعرفه وتعشقه وبنات عذارى لا تعرف أي واحدة منهن أي معنى للرجل، وبين هذين العالمين كان زكي بن الشرقية الذي يهوى دخول محلات البوظة والتعرف على نساء الليل هناك، ولم يتجاوز زكي محلات وحانات شبرا وهناك التقى بمحاسن زوجة الظابط الشهيد التي فاتحته قائلة:

- إنت منين..
- من الفلاحين..
- طب إنت صغير على الكلام ده ..
- لأ مش صغير..
- عندك مكان ..
- شقة قريبة من شارع أحمد حلمي..
- إنت لوحدهك..
- أنا واخواتي..
- كام واحد ..
- ثلاثة
- هايبقوا معاك..
- أبوه ...

- كل واحد ربع جنيه ومعاكم للصبح..

- مافيش مشكلة ياله قومي..

- طب حاسب الأول ..

وخرجنا من الحانة وسارا قليلاً في شارع الترعة متجهان يمينا نحو شارع أحمد حلمي، وفي مقابل مزلقان عايذة والذي بعده يقع حي عزبة بلال، تقع شقة زكي واخوته على أكبرهم في كلية الزراعة ونيل في معهد العباسية التجاري وأحمد شقيقهم من الأم طالب في معهد البريد، وكان عدد من الحانات قد افتتحت حديثاً في السنوات العشر الأخيرة، فازدهرت شوارع شبرا والترعة بزبائن الحانات الذين يأتونها من أحياء أخرى، وكانت حانة جاردن من أشهر الحانات الحديثة المشهورة بجلب كثير من الفتيات اللاتي يهوين الرقص والصخب جماعات وفرادى وهن شبه عاريات، ومن كثرة الصخب تنهيا لك أن سطح الحانة الخشبي سيسقط..

وكانت محاسن تعشق هذه الحانة لما فيها كثيراً من الزبائن الذين تعودوا عليها، وكان الطبال البولاقى وصاحب الرق من كيت كات البلد اشهر ضاربي الطبل إثارة حتى أنهما يجعلان الكئوس تتراقص.. في شوارع شبرا عرضاً وطولاً حزن ودموع وأرامل كما في حارات الترعة البولاقية، إن هذين الحيين العريقين لابد أن يكتفيا ذاتياً بكل أسباب الحياة من أولها إلى آخرها لابد أن تروى الأرض بماء المطر كما تروى الدماء جبال اليمن وطارت حتى دقت شوارع مصر فهلعت الأرامل إلى الحانات..

.. وفي ليلة أخرى بملهى الجاردين قالت محاسن لزكي:

- جرحوني وقالوا زوجة شهيد..
- شرف ليك يا محاسن..
- شرف ليك إنت .. إنت صغير ماتعرفش غير واحد جوزها مات..
- لكن إنت زوجة شهيد..
- مين قالك كده
- عبد الرؤوف .. إذا قال أي حاجة صدّقناه ..
- دي مصيبة أكبر .. جيل بحاله بيعيش على الكذب..
- كل زوجة شهيد زوجة قتيل قتلوه من غير ذنب وأنا اللي بقولك كده.. هوّ مين يعرف الشهيد..
- يمكن .. قومي .. اتأخرنا..
- إسمع أنا اللي شهيدة مش جوزي اللي قتلوه ..
- قومي بالله عليك.. أنا مالي ومال الكلام ده ..

"سوسن وعائدة في جاردن"

=====

كانت محلات البوظة والبيرة تنتشر ما بين شارع شبرا والترعة
البولاقية قبل عام ١٩٥٢ ولما أخذت كثير من الفتيات حاملې دبلوم
التجارة والثانوية العامة الحصول تلك الشهادة وذهبت كل منهن
تبحث عن عمل في شركة أو بنك ولم تجد، أيقنت أن العمل
بالمؤهل ليس لكل بنت ولكن للبنت التي تفتح مخها، أو تكون بنت
ناس أوي، بنت ناس إزاي ومعظمهم بنات خفراء وعساكر وظباط
مخلة في الجيش، وبعض منهن بنات موظفين أو مدرسين، كيف
يكون لبنت من بنات الشعب أن تحصل على عمل محترم وهي إينة
هذه الطبقة المكافحة، كثيرات منهن ذهبن إلى الناحية الثانية من
الكوبرى حيث يقع شارع الكلوت بلك، والذي تكثر فيه فنادق درجة
عشرين، مشرفة الفندق في شارع الكلوت بك هي كل شيء، وهي
بالنسبة لصاحب الفندق مكسب ولزبائن فلاحين وتجار من بحري
وقبلي حاجة مافيش أجمل من كده، وتحكي عائدة لسوسن كيف
تدرجت في عملها هذا إلى أن وصلت إلى حانة جاردن:

- رُحْتُ إتعلمت الرقص في شقة بعابدين.. بعدها
ودّاني لواحد صاحبه في شارع الهرم، اشتغلت
هناك في ملهى أفتح للزبائن، بعد كده اتجرات
شوية ورُحْتُ مع الزباين البيوت، وفي ليلة
غابت الدنيا عن وعي وبقيت واحدة ست، وكل

ليلة مع زبون أروح معاه أبسطه واخذ آخر
الليل اللي عايزاه ..

- بقى لك كام سنة يا عايدته ..
- أكثر من عشر سنين عرفت شقق مصر كلها..
- عملت فيهم إيه..
- ربّيت إخواتي وكلّهم ثلاث بنات وولد، البنات
جوزّتهم والولد كمان.. وعملت للأربعة
بيوت..
- وإنت عملت إيه لنفسك..
- شغالة وعملت كثير لأبويا وأمي.. ونقلتهم من
حارة وبيت مخّلّ لأحسن عمارة في الترعة
البولاقية ولنفسي باشتغل وبأكسب..
- ولسه ساكنة مع أبوك وأمك..
- قاعدة معاهم علشان أُنْدارى..
- هو أبوك مش عمي صابر بتاع العرقسوس
والسوبية..
- فاكدة بابا ياسوسن..
- هو كان حد ينام في الحنة إلا لما يشرب سوبية
من عمي صابر..

- وبعدين ..
- على فكرة أبويا مات أول ما خدنا الشقة الجديدة..
- إنتوا أصلاً منين..
- من أي حنة يهكم في إيه.. من بحري..
- كانت عربية السوبية هي كل حالكم..
- ما كل الحنة حالها على أدها .. هو أبوك كان إيه.. مش كان تو مرجي..
- أي والله ولولا البنات شافت حالها لا كنا رُحنا ولا جينا..
- وإنتِ عاملة إيه دلوقتِ .. إنتِ فين..
- لأ .. ماعملتش حاجة .. إتجوزت واطلقت..
- خلفت ..
- ابدأ..
- عايشة فين ..
- في بيتنا القديم ..
- لوحذك..
- مع حسن..

- حسن دا مين..
- طالب في كلية التجارة.. هاتجوزه قريب..
- هو مالوش أهل..
- بتشتميني يا عايدة..
- أقصد هو صغير عليك أوي..
- بس هو بيموت فيه..
- هايصرف عليك منين..
- أنا باخد معاش أبويا.. هانتجوز عُرُفي علشان المعاش ..
- والله إنت أحسن مني.. كفاية إنك محافظة على نفسك..
- والله هي مضروبة وخربانة.. هو أنت عارفة حاجة خليها مستورة..
- مافيش واحدة مننا من أيام ما كنا في المدرسة، اشتغلت شغل طبيعي ولا ليها بيت ولا فيه رجالة أصلاً بتجوز... ورجالة كثير ماتت في اليمن..
- خللي اليمن على جنب، إنت عارفه محاسن..
- محاسن ورداني..

- جوزها شهيد..
- وهي فين دلوقت..
- بتيجي هنا..
- بترقص مع اللي بيرقصوا هنا..
- لأ دي بقت أشهر واحدة بترقص في الملهى..
- بس الرقص لا يودّي ولا يجيب..
- لأ شغالة بعد الرقص..
- مومس..
- كسفتيني ياسوسن..
- اللي ماتلاقيش عيب عليها تتكسف..
- أمال فين البلد.. لما كلنا بنخلص تعليم ونطلع مانلاقيش شغل شريف ولا أي حاجة نعيش بيها..
- اسألني خير البلد بيروح فين ..
- خير البلد.. ماحنا عايشين فيه .. امال دا خير مين .. والله مانا عارفة هو دا خير مين .. إيه خير وإيه شر.. نسأل مين ..

- هي الست في بلدنا إيه.. تتصرف مع نفسها وبس.. هي دي الكرامة والحرية والعدل..
- أحلى كلمة بتتقال من أجل الحرية.. شوف حالك..
- والكرامة..
- مش هي دي فلوس برده، أمال الرجالة تودي فلوسها فين..
- يعني مافيش غير السخام ده ..
- ومين قال لك على دا سخام..
- هوّ السخام ده مش بييجيب فلوس..
- أبوه..
- هيّ دي الكرامة.. كرامة الناس اللي رموهم في البلد.. ويقولوا كرامة ..
- إحمدي ربنا بلدنا أحسن من غيرها..
- يعني اللي احنا فيه كويس..
- هوّ احنا لاقينا غيره ..

"

حانة حبظلم في حارة الأضفة "

=====

.. لما الناس بتغلب من الضنك والفقر بتسمى أولادها أسماء منيَّلة لشدة تشاؤمهم من إن مافيش فايده، هو الموضوع في البلد شوية عسكر وشرطة عايشين فوق والباقي إضرب بالجزمة، وعشان كده مابتلاقيش أحياء شعبية كاملة أو أحياء راقية صافية، كان أهم حاجة في البلد.. الرُتب، والعساكر الخدامين والعصا والبندقية التي بيهوش بيها الضابط، والمثل بيقول إضرب العسكري يخاف الشعب، حتى في حي الزمالك القديم فيه حارات وناس عايشة على الشحاته، واللي ماشي في البلد اللي بيمسك حاجة بيعمل لنفسه بس، مافيش حاجة اسمها ناس وغلاية ومحتاجين مافيش أي حاجة للبلد، وإذا كان يبقى فيه مصارين، الناس تقف عليها طوابير ويضربوا بعض بالجزم والطوالين وفي الطوابير تلاقي تدقير وزنقة ورزق وسب دين، وعساكر تنظم وتوقف وتقول عيب ياناس، وفي الآخر الناس تروح بيوتها مشرودة ومتبهدة علشان بعد كده يبدأ يوم جديد، الناس تقوم من النوم كل صبح عينيها وارمة من كتر أكل العيش حاف والكرشة والمصارين، الناس معظمها وهي بتاكل بتلبخ علشان عايزة تشبع، بصل ولفت وشوية فول من على الرصيف وطعمية محشية تلاقي فيها صراصير وأهي ماشية والناس بتشبع وخلاص، وتيجي العصا والبندقية هنا وهناك واللي يقول بم بيتلم ويخوفوه وإذا قال أي حقيقة بيدخلوه العقرب ويسيبه عليه تعابين، وبوليس الآداب كله قلة أدب وتجربة وهم أول ناس بيمزعوا في

النسوان .. أي حانة في حارة أو ملهى كبير شوية على ناصية شارع أو واد غلبان بيحط نار الحجر أو بيغسل كوبايات، أو أوسطى بيقدم كنّوس البيرة والخمرة المخلوطة، أو معلّم أكبر منه درجة، قوَاد شوارع وسمسار شقق وبيوت ودكاكين قديمة وبوابين أو حتّى عسكري في قسم بيتاجر في الحشيش، بتوع أمن النقطة من خفر وعسكر وكونستبلات بيتاجروا في الحشيش، أهو كل واحد حتّه يمشي بيها حاله وعلشان يدخل بيته وينعش عياله برده بكيس بردقان، ماهو كل واحد عايز يعيش بيدور على أي حاجة بيربش بيها حياته ويخلي بيها مراته تبتسم يمكن تحن عليه من قسوة الزمن فيها الناس الغلبة لو ما مشيتش حالها مفيش راجل يقعد في بيته ويمكن بقية الحريم تطفش وتمشي في الشوارع مع المتسكعين ويزيد البلاطين ..

.. بيقولوا المثل ان الجحوش والنيوس لازم تربوها في البلد، وإذا الجاموس جالت فيها عيال من بنات ماشية في السكك تأخذها تقرصها وتعملها حطب وولعة أرخص أهى بديل، ومنها تعيش العيال والعباد الطفحانين، ياه أد كده مشيت البلد، من جلة البهايم تعيش الناس في النجوع والكفور، واللّي مش راضي برمية الزمن إجري ياولد هات العسكري، والمسخرة إن العسكري بيتاجر في حنة حشيش .. أوعى العسكري، كان فيه واحد قريبي اسمه فوزي عسكري في قسم روض الفرج لما غلب من الفقر تاجر زي غيره من العساكر في الحشيش، ولما استبيع في مأمور القسم وطلب ماعون أكثر من نصيبه قبضوا عليه بتهم كثير، واتهموه بتجارة

الكيف في الحشيش، ولبستوه ودخلوه السجن في حكم محكمة ثلاث سنين، وكان هو العسكري الوحيد الغير شريف في أقسام شبرا وروض الفرج، في وقت كان فيه كل القسم محترفين حشيش، كان الكلام ده سنة خمسة وخمسين، إنتوا عارفين أنا مين.. أنا بنت العسكري تاجر الحشيش.. أنا إسمي صفية زميلة سوسن ومحاسن وعابدة وأكثر من عشرين بنت كانت في مدرسة الأميرة فايزة ومدرسة الخازندارة الخاصة، أنا باتكلم عن بنات الغلبة العساكر والخفراء والموظفين، إحنا النسوان اللي صارت بعد كده معمّرين الملاهي والمراقص والحانات إحنا ولاد الجزم والتعبانيين..

.. وانبهرتُ بكلام صفية ونحن نجلس ثلاثتنا في حانة حبظلم، واندهدشت سوسن من أسلوبها وكلامها المرصوص وقالت وهي تجرب أن ترشف رشفة من كوب البيرة لأول مرة في حياتها:

- اللي يسمعك مايقولش إنك بنت عسكري..
- على فكرة بنت العسكري مسنودة عن بنت الموظف..
- ولما أبوك دخل السجن عشتوا إزاي..
- أخويا عبد الحكيم مات تحت الترماي، كان بيبيع إمشاط وفلايات وفنيك..
- وأمك عملت إيه في باقي العيال..
- أخويا عجيب اشتغل عطشجي عرقسوس..

- يعني إيه..

- يعمل قدرة عرقسوس ويلفحها على ضهره
ويلف بيها الشوارع، وأحلى حاجة في الشغلانة
طرقته بصوابه على رق القدرة، ويسروح
ويجيبي على المحلات والمطاعم ونسوان
الحارات إللي متشعلقة في الشبابيك، ماهو
زمان كانت الواحدة تسلم على جارتها من فتحة
في جدران بيتها وتقول لها عوافِ إزّي العيال
ياختي ودي كانت أحلى حاجة من تحت بين
الغلبة التعبانين..

- وبعدين..

- أخويا حمدي اشتغل الأضه..

- يعني إيه..

- يومين يمسخ جزم، ويومين يلّمع إزاز
العربيات، ويومين يدخل حانة حبظلم يغسل
الكوبايات..

- وبعدين..

- أمي كانت تروح كل شهر تلم الميسانية من
قرايبي في البلد..

- يعني إيه الميسانية..

- خالي أبو سيد كان حنين عليها رغم فقره، يلم
شوية عيش وشوية بتاو وشوية مرحرح
وحتتين جينة ورطل زبدة وبصل وتوم و..
المهم السَّبْت يتملي وقفة كمان يربطوا ودانها
بالحبل...، كان بيتعب أوي عشاننا، ويركب
الحماره ومعاه زوادة أمي لغاية بلد إسمها
الخضرة علشان أمي تركب الرفاص اللي
بقرش صاغ، ولما توصل ساحل روض الفرج
نكون كنّا منتظرنها علشان نشيل ونفرح بلّلي
جايباه من البلد.. كان يوم عيد لما تيجي من
البلد.. وكان خالي يلف على بيوت العيلة علشان
يملا القفه والسَّبْت..

- بس إنتو كنتم برده ليكو ضهر..

- ضهر عسكري كان بينضرب من أي ظابط..
مش المثل بيقول اضرب العسكري يخاف
شارع بحاله.. وهي ما شية من زمان على
كده..

- وبعدين..

- طلع أبويا من السجن ومبقاش عسكري، اترفت
وواحد من بلدنا إسمه أنسي القطان شغله خفير
في شركة إيديال..

- وبعدين..

- أبويا طول عمره بن بلد من يوم ما جه مصر
لابس لبدّه وجلايية وطالونة مفتوحة من جلد
المعيز كان بيشتريها من أشهر جزمجي في
البلد كل سنة إسمه أبو حسيبة..

- وبعدين..

- أبويا كان جنّتل..

- هوّ فيه عسكري جنّتل..

- والله أبويا دا كان أكبر جنّتل في روض الفرج
.. مالوش دعوة بحد وكان بيتسم في وش كل
واحد، وكانت الحتة كلها بتحبه، وأحلى حاجة
كان سايب ولاده يروحوا مطرح ما يروحوا،
كان بيقول مافيش فايذة من الكلام.. سيبو كل
عيل يوديه الزمن زي ما يوديه..

- وكان بيقول للعيال سرّيحة الحشيش على
القهاوي.. كلّهُ تمام.. روق الحال..

- وبعدين..

- لما لقاني باشتغل طول اليوم وارجع الصبح
كان بيدعيلي، ولا عمره سألني كنت فين، كان
كل اللي عارفه إنني باشتغل في فندق زي كل

البنات في روض الفرج.. والناس في الوقت ده
كانوا بيقلولوا لكل بنت خدت دبلوم تجارة.. أيوه
يابيه أيوه يا باشا، وكانت لما تروح ولا تيجي
العيال العبيطة في الحي تجري وراها..
قرش.. قرش.. أنا شفت أيام عز، أحلى أيام
في حياتي لما أروح وآجي، أبويا من جنتلته
أداني أمان وشغلته عسكري سابق برده مدياني
وضع ثاني في الحتة..

- يعني مش فاهمة أوي ياصفية..

- إنت وحسن جرجرتوني وجبتوا الأراي
وماحدش عارف عنكم حاجة..

- الحال من بعضه ياصفية..

وبعدين قال لها حسن وهو يمسك بيد سوسن قائلاً:

- مش أحسن نروح..

- استنى ياحسن خمس دقائق.. يعني إيه رفاص
ياصفية؟

- مركب كبير من دورين زي الباخرة القديمة
كده، بيشتغل بالسولار، وله كذا سواق وكان
تبع الحكومة، وكان الناس بيعتبروه حمار
الشيل، الدور الأول للغنم والحمير والبهايم من

كل نوع، والدور الثاني للبنى آدمين، زكايب
دره وقمح وقطن ودقيق ، وقف عيش
ومرحرح وبتاو وطراشي مش وجبنة قديمة،
وكل واحد واخذ زوآدته لأهله في مصر،
وطيور وز وبط وفراخ وأقفاص فيها من كل
نوع ياباسته، كان ميزته إنه رخيص وبيشيل
كل حاجة ويؤديها مصر، وكان يعتبر فندق
غشيم متحرك، والناس تاخذ راحتها وتتأام وهي
قاعدة لأنه كان بياخذ وقت طويل لغاية ما
يوصل مصر عشر انتشار ساعة كده، وأحلى
حاجة فيه أنه ماشي على الميّه، الناس من كل
البلاد يتعرفوا على بعض ويحكوا ويقولوا
حواديت، ويأما ناس جوّزت ولادها الصبيان
والبنات من سفريّة الرفّاص، الناس كان بالها
طويل وليها نفس مالوش آخر وصابرين
ومستحملين زي الرفّاص، ولسه الرفّاص شغال
لغاية دلوقتي.. وساحل روض الفرّج من زمان
وهو المطار الأساسي لمصر كلّها، حتى بصل
وبلح وكركديه الصعيد روض الفرّج مركز
ومرسى للحاجات دي كلّها.. ناس وتجار
وشعب محتاج، روض الفرّج روح بتوع مصر
هيّ التموين والخير والزوآده، أهو لولا

الرفاص ده كانت الناس جاعت وتعبت،
الرفاص مرسى وملقف لكل الناس من كل
البلاد، ولولا قفف خالي عجيب من البلد كنا
هانروح فين، والله أمي دي بميت راجل، ولولا
هي على أبويا..

- كفاية أبوك عسكري..

- زي كل العساكر فقرانه، لكن هو عسكري
جننل، شوف بالرغم إنه فقير ومحتاج لكن
أعصابه هادية أوي، وعلشان كده ماكانش
يهمه، كان بيشرّب حشيش علني وبعدين تاجر
فيه ولما كان عسكري زميله يقوله داري نفسك
يا به فوزي، يقوله خليك جدع هو أنا هاخاف
من مين.. خُس اسأل المأمور جوّه عملت إيه
بالحشيش.. تته ولا همّه لما سجنوه، وهو في
السجن برده ولا كان همّه ولما كنا بنروح
نزوره، يهز راسه ويقول "ياسيدي.. فنضحك
ونسلم عليه ونمشي..

- آه يا صفيه تنصحيني بإيه..

- ماتجيش هنا ثاني ولو جيتي اشتغلي زينا، خدي
حسن واتجوزيه واحمدي ربنا إن معاك راجل،
أصغر منك أكبر منك مش مشكلة أهو راجل..

- بس هو لما جه مصر تاه ومش قادره أتلايم عليه..

- الحقيه واتجوزيه أحسن يتألف مع العيال اللي جايين من البلاد..

- هيّ العيال دي شغاله برده..

- كله شغال، إنت لما كنت في منوف مش كنت شغاله معاه، الفرق في البلاد الصغيرة إن الناس شغالة في البيوت وماحدش شايفها، لكن هنا في مصر علني علشان فيه ملاهي وحانات والدنيا واسعة وكل حاجة بره البيوت.. وفيه برده جوّه البيوت..

.. وقال حسن وهو يضرب رأسه بيده:

- ياخوفي من اللي جاي.. يآله ياسوسن نروح..

- أي والله يآله، ليك حق.. كتر خيرك ياصفية على تعبك معايا..

وقبّلت سوسن صفية بحرارة، وانصرفت مع حسن وهي تمسكه من ذراعه قائلة لصفية:

- لو شفتيني هنا تاني إضربيني بالجزمة..

معنى أن تتمسك امرأة في الخامسة والثلاثين بشاب صغير مثل حسن، هي أكبر منه بأكثر من خمسة عشرة عاماً، هذا يعني أن الرجال في المقابل قد سقطوا من شريحتهم، أكثرهم لا يجدون أعمالاً تناسبهم فيشتغلون في الآلاجة، ولما كانت أعمال الآلاجة هي رزق يوم بيوم فهم لا يستطيعون أن يمتلكوا شققاً أو بيوتاً من قش حتى يتزوجوا، وشريحة ليست بقليلة من الرجال قد ذهبوا إلى اليمن ولم يعودوا ومن عاد فهو شهيد وامتألت بهم المقابر المنتشرة في القاهرة بين جنابات الأحياء الفقيرة، والقرى وأهلها الطيبون، الذين إذا نادوا في المساجد عن الشهيد فتحي ستيته توفي اليوم والدفنة بعد الظهر من مسجد العرب، كانوا جميعاً يهلعون إلى الصلاة عليه والمشي في جنازته بقوة لأنه شهيد، ولم يكن الناس في هذه القرى يملكون شيئاً للإبقاء عليه أو العيش من أجله، لم يكن في حياة هؤلاء جميعاً شيئاً يعنيه، وكل واحد منهم يندفع لكي يعمل شيئاً له قيمة في حياته فيتسابق مع إخوته في حمل خشبة الشهيد، لأنهم جميعاً لم يجدوا شيئاً واحداً له قيمة ذاتية في حياتهم، لم يجدوا غير اللجوء إلى الله، ويشعرون وهم في الطريق إلى الله سيراً إلى المقابر ويحملون شهيدهم، سوى أن يهتفوا في صوت واحد يعلو لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، ويكون بشدة وبقوة حتى تنتقل الخشبة إلى أكتاف آخرين ليحملونها، ولم يكن أهل القرى يكون وهم يحملون موتاهم إلى المقابر، أنهم يكون ميتهم فقط، إنهم

يكون حالهم قبل أي شيء، ويظن الناس أنهم سيكون الميت، إن الميت يستحق البكاء ولكنهم لولا حالهم المَعْدوم لما بكوا على الميت، إن شيئاً واحداً يجمع أهل القرى، إن الفقر لزيد لأنه يجمع هؤلاء وإنه لقوي لأنهم سيكونه في مشهد واحد، وكذلك أهل المدن العارية التي تلتف حول المدينة الهالعة بحزام ضعيف مرقوع، ويعلو سماء مصر شعار واحد.. نحن فداء الوطن.. نحن فداء العرب.. إننا لم نجد شيئاً نفعله سوى أن نكون فداءً، ولم يكن العرب في حاجة إلى فداء أحد لهم، إن العرب جميعاً يعيشون في حياة طبيعية وإمامهم الإمام البدر أو الملك يغنيهم عن عبث الشاويش والعقيد، إن العرب كانوا سيفعلون بحياتهم أفضل بكثير مما فعله الغريب الذي سمى نفسه قائد العرب، ولذلك فلقد عاقبه الله عقاباً شديداً فيما بعد لما اقترفه من جرائم، هكذا توقع كل العرب، العرب وغيرهم جديرون بإدارة بلادهم وليسوا في حاجة إلى شهيد واحد، فليأكل الشعب المصري وحده التراب...

كانت محلات الهوى من فعل الذين يلهون، ومحلات البوظة والخمرة المغشوشة تغرق أحياء شبرا والترعة، ولم يكن هناك إلا عامة الشعب يدخلونها بقروش في جيوبهم، وفتيات يرقصن ويشربن ويدعرن، هنّ من أهلهم، فقراء على فقراء ياقلبي لا تحزن وهل يفعل الفقير مع الفقيرة شيئاً إلا الهلع، ومن كانت أشد فقراً استبعت وأباحت لنفسها أن ترقص في جنون لا يهمها شيء وكثيرات منهن خلعن ملابسهن فلم يعد للضياع غير الضياع، ولما

تَدْخُل ضابِطُ شُرْطَةِ الْأَدَابِ فِي الْمَحَلِّ لِعَمَلِ بَعْضِ الْإِلْتِزَامِ تَمْ
ضَرْبِهِ ضَرْباً مُبْرَاحاً مِنَ الرَّاقِصَاتِ وَأَكْمَلَ ضَرْبَهُ عِيَالِ صَايَعَةٍ
يَعْمَلُونَ فِي الْحَانَةِ، وَتَمْ تَحْرِيرَ مُحَضَّرٍ وَأَغْلَقَ بَابَ الْمَلْهَى لِيَوْمَيْنِ
حَتَّى يَتِمَّ التَّحْقِيقُ..

.. وَفِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِ قَالَتْ سَوْسَنُ لِحَسَنِ:

- أَقْلَعْ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ مَلَابِسِي كَيْ أَغْرِيكَ.. وَأَنْتِ
وَلَا هُنَا..

- أَنَا تَهْتِ .. أَعْصَابِي رَاحَتْ..

- إِنْتِ كُنْتِ فِي مَنْوَفٍ مِثِّهِ مِثِّهِ..

.. مَا كُنْتِشِ أَعْرِفُ غَيْرَكَ وَمَلَكَةً، كُنْتِ بِأَحْسَبِ إِنْ مَا فِيشِ غَيْرَكُم
فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا..

- يَعْنِي نَرْجِعْ مَنْوَفَ تَانِي عِلْشَانَ تَبْقَهُ كَوَيْسِ..

- لِأ.. مَشْ مُمْكِنُ نَرْجِعْ لُورَا، وَلَكِنْ أَصْبِرِي
عَلَيَّ شُويَةً..

- أَصْبِرْ عَلَيْكَ إِيه.. دَانَا لَوْ اشْتَعَلَتْ فِي حَانَةِ
هَائِبِقِي حَالِي أَحْسَنُ مِنْ كَدِهِ..

- هَيَّ الدُّنْيَا مَا فِيشِاشِ غَيْرِ كَدِهِ.. شُوفْتِي حَالِ
الْبَنَاتِ وَالنِّسْوَانِ فِي الْحَانَةِ..

- هَانَعْمَلْ لِهَمْ إِيهْ يَرْوَحُوا فِي دَاهِيَةٍ..

- مش برده دول كانوا زمايلك..
- إسمع مافيش حد بيعيش مع غيره، كل واحدة بتعيش حياتها..
- شوية استوعب مصر واللّي حاصل فيها..
- ليه هوّ إنت أبو البلد..
- صحيح ليك حق هوّ الأب مات وساب ولاده، شوفتي محاسن مرات الشهيد بتسيب إنها مع أمها طول الليل.. ولسه أمها بتقول محاسن بتشتغل في فندق ومش عارفة حاجة أكثر من كده..
- أحسن حاجة اللّي مايعرفشي أكثر من اللّي بتشوفه عينيه..
- إحنا كلنا لازم مانشوفش واللّي بيعمل نفسه شايف حتى ولو بالكلام بياخد على دماغه
- هيّ دي الوطنية إنك تموت من أجل تغيير حياة الآخرين..
- إحنا اتعلمنا نبقي شعب وطني ومطلوب مننا نموت لنحرّر العرب من العبودية..
- مين قال العرب في عبودية..

- عبد الرؤوف بيقول إن الخفير والشاويش
والعقيد أحسن من الملك، وإن واجب مصر في
شعار شيل الملك وهات الخفير..

- هيّ الوطنية النزول إلى تحت.. مين قال كده..

- جزم ملوك العرب أحسن بكتير من العرجية
الجعانيين..

- الناس مش فاهمة حاجة.. واللي عايز يفهم
بيروح في الحديد..

- خدي مثلاً بوليس الآداب بيزود الناس قلة أدب
وبيفتروا على بنات الليل تصدق إن كل واحدة
بتشتغل في أي حانة بتدفع إتاوة لبتوع الآداب..

- يعني مرات الشهيد وغيرها راحت الشغلانة
دي مضطرة ومع ذلك بتدفع فلوس ولمين..
أحسن حاجة يتلغي بوليس الآداب لأنهم
بيتجرموا كثير في البلد..

- كل عسكري ومخبر في البلد لازم تدّيله علشان
تستمر في أي عمل..

- حتى الصياغة بندفع عنها ضرائب اللي
مايتسمّوش..

- والحل إيه..

- مافيش حل طول ماحنا ساييين البلد ورايين
نطمع في بلاد تانية..
- هو هدف دا كله أن نملك بلاد العرب أو
نسيطر عليها..
- عمر دا ما هيحصل وهانرجع بلادنا خسرانين
الجلد والسقط..
- مانسبش الأحداث خَلينا نشوف..
- مش أحسن نخالينا في بيتنا ونعيش
- عندي طموح عايز أعرف اللي بره البيوت..
- زي مانت شايف، شفت حانة حبظلم، أهى كل
الحانات زيها..
- كام حانه في شبرا والترعة..
- أكثر من عشر حانات..
- كويس، أهى الناس اتلمت فيها أمال الناس
هاتروح فين..
- الخلاصة النهاردة زي بكرة لو احنا ناس
محترمين مانطلعش من بيوتنا..
- خلاص أنا موافق..
- يبقى نتجوز ويبقى لى جوز أستناه..

- إني كده هاتحبسني .. أنا شُبعْت من جوّه
البيوت..
- أنا عايزه استقرار وعايزه أعيش في بيتي،
ولازم يبقى لي راجل يحميني.
- مش المفروض أقول لأبويا وأمي..
- أبوك وأمك يمكن يرفضوا علشان السن..
- مش واجب دا جواز ياسوسن..
- مانت طول عمرك طايح في منوف، كنت قلت
لهم في الأول بينك وبين ملكة إيه..
- فعلاً كلامك والله صحيح.. بس دا جواز..
- هاتيحي لغاية عندي وتحط العقد.. دا إني
بتعمل حلال ربنا، على الأقل تتوب عن
النسوان، أنا خايفة عليك من بره..
- هوّ الخوف فعلاً من بره..
- إحمد ربنا أنا شاريك وعايزاك وعندي بيت،
مش أحسن من الفوضى اللي عايشها زمايلك
في مصر.. أنا بلمك يا حسن..
- طيب سيبيني أفكر ياسوسن..

"عاشق الشوارع مجنون"

=====

وراح حسن يتهدى بخطواته في مهل بين نواصي الحارات والأزقة في الحي القديم، ولم يكن لأحياء متاخمة لهذا الحي غير أحياء قديمة أخرى لا تأتي بجديد، وكان يعتقد أنه إذا دخل حياً آخر فسوف تأتي حياة جديدة تدخل تلك الأحياء القديمة وتغيرها، وكان يتوهم أنه إذا اقترب من شارع شبرا يقترب من النهر، وكان الترام "ترماي شبرا" يريّحه كثيراً وهو يدق الجرس، وفي هذا الوقت عندما كان يرى سائق الترام يقف أمام عجلة القيادة ويقود مركبته أنه يعتلي أكبر المناصب في وزارة النقل، وتذكر أن أحد أقاربه من بلد أمه يعمل سائق لترام يتجه نحو حي السيدة زينب، ولم ينسى في يوم طلب أخيه ثروت أن يأتي إلى مصر قاصداً الفسحة وكانت كل أمانيه أن يركب الترمائي، رحب به قريب أمنا وأخذ به بجانبه ليتفرج على مصر.. رايع جاي.. من شبرا للسيدة زينب والعكس، وحتى انتهت وربية عمي عطية إبراهيم فأخذ ثروت إلى زوجته وقال لها:

- شوفي ثروت اتبسط ولا لأ..

ورد ثروت بصوت عال كأنه يجعّر في ملاءة مريان..

- يانهار إسود .. أنا شفت مصر كلها.. دا مصر

حاجة جامدة أوي خلّيني آجي معاك بكره كمان
يا عم عطية..

.. وكانت مصر في هذا الوقت تعتمد في حياتها على روح الناس، وكانوا يستمدون هذه الروح من فطرتهم وطياتهم التي ليس لها حدود، وربما شربهم من نهر النيل وسقيان بهائمهم من فروعه الممتدة عبر الدلتا والصعيد هي التي جعلت من عقولهم لا يطمحون في أكثر من ركوب الترماي، ومما ساعد قائد حركة التحرر على أن يفعل بالبلاد ما يشاء أنه ورث شعباً طيباً تعود على الظلم والفقر طيلة حياته ومرور سلسلة من الفراعنة تحكمه بالذل والطغيان على مدى قرون طويلة.. وكانت المدينة لكل قروي هي قلعة التحرر النفسي عند كل فلاح، ويكفي ركوب الترماي والصلاة في مسجد السيدة زينب ثم العودة إلى شبرا ليأكل كهرمان من مطعم أبو سعدة لصاحبه بطل كمال الأجسام في نادي المظلات، ولما كان يعود إلى بلدته ويحكي لمن حوله من جيرانه وأقاربه عن مصر وشبرا والكهرمان، كان يكفي الناس هذه الحكايات فيواصلون حياتهم في الغيطان وحتى يذهب واحد آخر منهم في العام القادم إلى مصر ويعود إليهم ليحكي لهم حكايات أخرى وتكرر الحياة ، ولم يكن في هذه البلاد يحي أفراحهم غير شاعر مشهور اسمه فتحي من بلدة جروان حيث يضرب لهم على الرقابة قائلًا.. ونزلنا على بلبيس ياما جري لنا بلد تبيع العيش بالميزان ..

.. ودخل حانة في ميدان فيكتوريا في محاولة للهروب من سوسن والبحث عما هو جديد، فلم يستطيع الهرب ولم يجد الجديد، غير أنه وجد في كل حانة نفس الناس الفقراء وكثيراً من الشيوخ الكبار فتيات صغيرات ماجنات وعندما تشد الفتيات في تمايلهن وصخبهن

يقع الرجال الكبار من الضعف فتدوسهم الأقدام وتعلو ضحكات النساء الرنّانة فتهدأ له أن سقف الحانة قد يسقط فوق الرؤوس، ولم يكن هناك أعلى من صوت الطبلّة الذي يدقها ابن عثمان أبو عوف ابن شنشور. الحفيد الذي طوّر من طبلته وطبلّة عائلته، ولم يكن للطبلّة في البلد غير أن تدق للميت الذي شُبع من الدق، وهرب الحفيد إلى أقرب حانة في فكتوريا ليجمع كثيراً من القروش ويطوّر حياته ويتزوج من راقصة تذهب في آخر الليل مع أي زبون إلى داره، وكان ذلك بالنسبة له تطوراً فذاً لحياته التي ذاق كثيراً من الحزن والفقر والدموع أثناء توديع الميت إلى المقابر، وكما تنّزه ثروت في ترمائي شبرا وتمردّ حسن على قريته ومدينته هجر الطّبّال حفيد عثمان طبلّة المقابر إلى طبلّة صغيرة تأتي له بمال كثير ويكفيه أن امرأته إحدى نساء الحانة الشهيرات التي يطلبها الزبائن بالاسم في آخر كل ليلة..

.. ولا يعرف حسن كيف أنه كان يترك سوسن في البيت ويلف في الشوارع باحثاً عن أشياء كثيرة في داخله، وكانت سوسن في كل ليلة تطالبه بأن يكون لها زوجاً ولا يعرف أي شيء في المدينة غيرها، فتقول له:

- هو فيه حد زيّك في التّرفة، بتطلع بّره تدور على إيه..

- بدور على الناس واللّي طالع في دماغه اليومين دول.. وسكت..

- إيه اللي طالع في دماغك..
- تفكري كام واحدة مات جوزها في اليمن،
وكام واحدة بقت داعرة..
- شوف اللي أعرفهم من ميدان فيكتوريا حتى
نهاية حي العسّال أكثر من عشرة مات جوزها
في اليمن..
- طيب وكام واحدة بتروح..
- يعني إيه بتروح..
- بتروح في أي حنة مع أي راجل يدفع فلوس..
ثم تابع قائلاً..
- وليه إنت مابتعرفيش غير الستات دي..
- أنا باعرف غيرهم كثير، فيه منهم كثير
خلّصت جامعة ومشيت في طريق الحياة
الطبيعي سواء اتجوزت أو ماتجوزتش..
- يعني كثير من البنات في الترة وشبرا بعيد
عن الحانات ومحلات البوظة..

- شوف مهما اتملت الحانات بالمومسات فالستات
المحترمة في البيوت أكثر عشرات المرات من
بتوع الحانات..

- بس أنا وأنت ماشقناش غير الصايعين..

- ظروفهم خلتهم صايعين لكن في الحقيقة هم
مش كده.. وعلى فكرة موضوع اليمين زود
المترمالات في الشوارع والملاهي.. وبعدين
طلع منهم الداعرات..

- هي المشكلة إن جواز الواحدة شرعي بيقطع
المعاش، وبصراحة المعاش مع الواحدة أضمن
من الراجل في الزمان ده..

- هوّ ليه الراجل في كل بلد مش مضمون..

- لأن مافيش شغلة في البلد بتضمن للراجل عمل
شريف أو عمل يكفيه..

- ياه مش بيقولوا الثورة عملت وهاتعمل..

- عملت في الظاهر.. شوف الأراضي الزراعية
اتأخذت من ناس وراحت لناس، هو فيه
عسكري بيبقى رئيس مجلس إدارة شركة أو
رئيس مدينة..

- يعني إيه..

- العسكري ماعندوش إدارة مدنية، الصحيح في كل بلاد الدنيا المصانع بيرأسها مهندس والشركات التجارية بيديرها محاسب أو تجاري، كل دول اتشالوا على الرف وبقت كل البلد بيمسكها عسكر وشرطة قولي عسكر وحرامية وعلشان كده الناس بتحكي عن أن الانهيار بدأ في كل شركات القطاع العام والحكومة والجهل والمسئولية بالإدارة .. واللي خرب القطاع العام اللواءات..

- يعني اتعملت مصانع بُمب وشركات زي الأوكار لناس كل شغلتها تسرق فيها..

- يعني مافيش تغيير..

- تغيير شكلي.. واللي ماشي في البلد إن كُله تمام، ولما واحد يقول يعني إيه بقولك وبعدين.. فينادي عليك النائر.. للأمام معتدان مارش.. دب رجلك في الأرض وبص أدامك يابطل.. فالواحد يفكر إن بقي بطل بصحيح ويتنفخ على الفاضي..

- يعني صاحبنا منفوخ برضه..

- هو أكبر واحد منفوخ في البلد.. نفخ في الناس كلها.. هو نائر وعنده كاريما ووطني بس من غير أساس..

- إزاي..

- شوف آخر حاجة اتعملت في البلد..

- حرب اليمن..

- حماس وتحرير وبطل وأسد البحر المتوسط لكن..

- لكن إيه..

- شوف كام واحد بيموت في اليمن كل يوم.. كام يتيم وكام أرملة وكام واحدة بقت مومس في شبرا والترعة البولاقية بس..

- الثورة حلوة في أولها لكن كل القرارات إذا كانت ثورية فالثورة تفشل اقتصادياً وأهم حاجة إن بتوع الثورة مايفهموش في الاقتصاد.. أهم حاجة عندهم الشعارات والثورة والبطولة..

- على الفاضي يا حسرة..

- وعلشان كده كل حاجة في البلد إتربكت.. وماحدش عارف حاجة..

- التوهان وعدم الأمان هم أكثر حاجة موجودة
دلوقت..

- أهو إنت واحد تايه في البلد..

- لأ إزاي أنا عارف كل حاجة..

- تمام بس إنت فين..

- أنا أهه أذ أمك..

- طيب كويس أوي.. اتجوزني .. اتجوزني
علشان ماعرفشي أي حاجة غير بيتي وجوزي
لأن اللي بتعرف أي حاجة بعد بيتها وجوزها
بتروح في داهية في الزمن ده..

- تعرفي أحسن حاجة في البلد الجواز .. بس
مافيش جواز لأن مافيش أمان لا بيوت ولا
شغل، ومافيش فلوس، وكل اللي بيشتغلوا في
المصانع والشركات بكرة هايترجوا ويقعدوا
على القهاوي علشان مافيش إدارة مدنية في
البلد..

- طيب ياحسن إحنا حالنا أحسن من غيرنا كثير،
عندنا بيت وعندي معاش وهاكون ليك أوفى
زوجة في الدنيا، وإنت عندك الرجولة، لو كل
واحد و واحدة عرف عنده إيه وشاركوا بعض

هايعمر المجتمع وتبقى الناس أحسن من كده
كثير، على فكرة تعمير وإحياء المجتمع من
تحت هايكون بتعاون الناس وقربهم من
بعض..

- آه ياسوسن لما إنت عاملة شاطرة وناصحة
أوي كده ليه بتخوني جوزك محمود..

- آه ياحسن.. عشر سنين مع راجل عمره ما
كان معايا، يبقى هاحس بأنني ست إزاي
وهاخلف عيال منين..

- يعني معنى كده تخوني جوزك..

- هوّ اللي خاني الأول سنين، وبعدين أنا عملت
زي ما عملت ملكة أخته..

- كنت أطلبني الطلاق أحسن من كده..

- لما زهقت من الصبر كان أبويا مات، ولما
كنت أرجع مصر هاتوه فيها وأعيش لوحدي
إزاي في بلد كبيرة زي دي.. وبعدين لما شفت
ملكة بتجياك حبيبت أعمل زيها.. بتتصح غيرك
زي الشيوخ، إنت ياحسن منعاك في النيلة
زي..

- وبعدين.. معلش أصل الكلام أسهل حاجة في بلدنا وما عندناش غيره..
- لما شفتك حصلي انهيار وما قدرتش أحوش نفسي عنك..
- وبعدين..
- إنت مجنون يا حسن، عَيل ما يعرفش أي حاجة أكثر من الكلام والصياغة في الشوارع..
- أنا زي أي واحد في مصر ما عندوش غير الكلام..
- إنت بتحب تتوه بُص كويس حواليك هاتلاقيني جنبك على طول..
- يعني نَجْرَب ياسوسن..
- مش نَجْرَب يالَه نتكل على الله يمكن يكرمنا..

" حانة الشهيد "

=====

.. هوَّ عبد الرازق الحيته من قرية بعد القناطر بشوية، جه مصر وعمره أربعين سنة، واشتغل هنا وهناك أرزقي كل يوم برزقه، رجل غلبان قعد في أوده فوق السطوح ناحية ميدان فيكتوريا، كان له ولدين ولد إسمه بطاطا بيبيع ترمس ودره مشوي ودوم وفي الشتا بطاطا أدام المدارس، وولد ثاني اسمه حلمي دخل الجيش ومات في اليمن بعد سنة من حكم السلّال، وكانت في مصر كلّها نُكت مالهاش عدد على السلّال قائد ثورة اليمن، ولم يكن يملك الشعب المصري شيئاً آخر غير النكت فأكثر منها وأفاض، ومن عادة الراحلين من القرى إلى القاهرة ولا يملكون شيئاً غير سواعدهم التي تطعمهم يوم بيوم، أن يقوموا بصلاة الفجر ثم يبدؤون يومهم، يطلع السطح يوقظ ابنه بطاطا:

- قوم يا بني.. قوم خد رزقك.. الشارع بيْفج ناس.. صليّ الأول علشان ربنا يكرمك، ثم ينزل عبد الرازق الحيته ينصب نصبته للشاي في مقابل خروج الناس من مزلقان عايده، مزلقان الناس الغلابة اللّي جم من البلاد، الشاي عنده بتعريفه والجوزة بتعريفه وحتّة الجبنة القديمة والرغيف بتعريفه، الناس المكافحة تقعد على الأرض تنتش الرغيف بالجبنة وحتّة

بصلة إكرامية من عمهم عبد الرازق بعدها
الشاي الثقيل وحجر جوزة محترم.. كل ده
بتلاتة تعريفة، بعدها يقوم الشريفة لعملهم الذي
ينتشر في مزلقان عايده وقرب ميدان فيكتوريا
وميدان الشيخ رمضان، وفي آخر النهار عندما
يعود الواحد منهم إلى زوجته بعشرة صاغ
يبقى كرم من ربنا..

.. وفي هذا الوقت عندما يموت جندي أو صول أو ظابط مخلة في
اليمن، يقولون الشهيد .. أبو الشهيد .. أخو الشهيد.. أخت الشهيد،
وأهل الشهيد ياخذوا مكافأته ومعاشه وحالهم ينتعش وبدل قعدة
الشاي على الأرض، فتح عمك عبد الرازق الحيته محل في قلب
ميدان الشيخ رمضان وبقي ياخذ معاش لإبنه حلمي، وخلي بطاطا
فتح كشك للعرقسوس والسوبية، والدنيا فتحت عليهم، وبعد ما كان
عبد الرازق الحيته فقير بكوز أو بعضمة بقي فقير بدفن لأن ربنا
كرمه وكلما دخل عليه زبون في المحل زعق:

- حي .. حي

- إهدى ياعم عبد الرازق..

- وأهدى ليه .. ياريت كان عندي ابن ثاني أوديه
اليمن..

.. شريحة كبيرة من الناس الغلبة سواء كانوا في القرى أو في
أزلام المدن فرحوا وتغيرت حياتهم وانتعشت بمكافآت ومعاش

الشهيد، وانتشرت بين الناس الفقراء، هوَ حد يطول ابنه يبقى شهيد، طالما الشهيد ببجيب فلوس يبقى ليه مايكونش في كل بيت شهيد، الشهيد عند الفقراء غني وإعلاء في درجة اجتماعية تزيد الناس فخراً، الفقر مش عيب، ولا عيب نطلع من الفقر بأي شكل.. والشهيد درجة من درجات الثورة والتحرر تعطي الناس العريانيين والجعانين درجات من الفخر مع نفخات من شبع البطون، وهكذا يعيش الناس ويقفزون درجات نحو حرية التعبير وحرية الانتقال من فوق السطح إلى شقق وبيوت اللي فيها يشعروا إنهم من أهل الكرامة، كنت فين يايمن من زمان.. إفتح وادخلوا بلاد ثانية علشان الناس اللي تحت تعيش وتشبع بالعيش وتنزل من فوق السطوح.. وأصبح لكي تحصل على مزيد من حقوق الحياة والكرامة أن تُقتل في سبيل أخيك العربي لكي تعيش، وكانت حرب اليمن سياسياً شعاراً لتحرير الناس من الفقر ووسيلة لكي يعلو قائد التحرير الوطني، ولكن في النهاية فإن ميزانية البلد تتدهور بلا عائد اقتصادي يعود على البلاد بشيء، وكانت أول خراب حقيقي يضرب اقتصاد البلاد في العنق، وبالنسبة للناس الغلبة وسيلة للتخلص من درجة الفقر العتيق إلى درجة من فقر فيها نفس وشوية حياة.. والغريب بعد ذلك وليس في القدر اندهاش أن تموت زوجة عبد الرزاق الحيته، وأن يموت ابنه بطاطا تحت عجلات الأتوبيس في شارع أحمد حلمي، ومن غرائب القدر ألا يموت تحت قطار أو حتى تحت عجلات حنطور أو عربة كارو إلا أبناء الفقراء لأن الفقراء هم أبناء الشوارع، وفي تاريخ حوادث القتل والضرب

والموت في الشوارع أنه لا يوجد غني يموت في الشارع أو تحت العجلات، ولا يوجد غني يذهب إلى اليمن، ولا يوجد غني شهيد، وهكذا تم تقسيم البلد إلى سادة وعبيد عن قصد..

.. وفي ليلة من الليال بعد أن أصبح الطالب حسن متزوجاً من سوسن قرابة الثلاثة شهور قال لها:

- تصدّقي ياسوسن أنا محظوظ..

.. تضحك سوسن بصوت عال حتى أن جسدها قد اهتز لسعادتها بكلامه ونقول:

- طبعاً محظوظ.. هوّ فيه حد اتجوزّ سوسن غيرك..

- آه يازمن عيّل أدّي يتجوز واحدة أكبر منه بخمستاشر سنه..

- أفرق إيه يا حسن عن أي واحدة سنّها سبعتاشر سنه..

- أنا خايف يا سوسن..

- من إيه خايف..

- من الزمن.. لأن الزمن لفاف..

- يعني إيه..

- بكره الدواير تدور يابدور..

- إنت خايف من الموت ولأ من الفقر..
- من الاتنين .. أهى حرب اليمن شغالة ماحدش عارف هاتخلص إمتى..
- ولو خلصت فيه بلاد ثانية بعد اليمن عايزه ثورات..
- يمكن على بال ما أخلص جامعة يكون عبد الرؤوف مات ولآ جات له داهية تاخده..
- ماتقولش الكلام ده أحسن تروح فى داهية، مشي حالك.. إعمل حسابك الحيطان لها ودان..
- تصدقي أنا قابلت راجل النهاردة من بلدنا..
- وبعدين..
- إسمه عبد الرازق الحيته من قبلي بلدنا..
- الغريب.. وسكت..
- سكت ليه.. الغريب إيه..
- الغريب إنه شيخ وهافتح محل بوظة..
- يانهار إسود .. إزاي..
- علشان البوظة بتجيب فلوس..

- ودقنه..
- دقنه إيه.. دقنه دي مربّيها سبوبة.. وهي المشكلة إن الناس بتفكر إن الدقن دين..
- آه من الناس، كل واحد دماغه مضروبة يربّي دقنه وخلص.. عمر الدين ما كان دقن ولا جلابية.. وكل واحد مربّي دقنه يحلف بيها علشان الناس تشتري من عنده، بقت وسيلة للرزق..
- دي نسمّيها إيه..
- نسمّيها هوجة وارتزاق ونصب.. وعلى فكرة مافيش واحد مبسوط يربّي دقنه.. ومش كل واحدة تلبس نقاب تبقى شريفة.. وعلى فكرة فيه كتير من المنقبات من رواد الحانات..
- والحل..
- كل واحد يعيش زي ما يعجبه، بس بلاش الكذب في الدين..
- وبعدين..
- تعال بكره نروح نشوف بوظة الشيخ عبد الرازق..

- مش اتفقنا ننكن في البيت وبلاش نفرد برّه..
- هي مرّه واحده علشان تشوفي بنفسك..
- وتشوفي بتوع البلاد عاملين إيه، على فكرة
- بتوع البلاد هم اللي بوظوا الدنيا في مصر..
- قول بتوع الدقون..

" استبدل الشيخ عبد الرازق الكئوس الزجاجية بكئوس فخارية لأن الزجاج حرام، وكان ابن أبو عوف بتاع بلدنا أكبر طبّال في شبرا، ومحاسن وكل أرامل الشهداء لا يذهبون إلى حانة أخرى إلا حانة الشيخ، حتى لا يكون في أعمالهم حرام لأنهم نساء شهداء وكل شهيد قريب إلى كل شيخ، وكان الشيخ عبد الرازق يجارّ عندما تذهب إليه المومس وهي خارجة مع الزبون ليباركها .. يمسح الشيخ عبد الرازق على جبينها ثم ينزل إلى كتفها بيده ثم إلى ردفها وهنا يزق بصوت عال يرج فيه المحل قائلاً:

- حي ... حي ...

فيرد عليه حبظلم ابن العسكري...

- لأ .. لأ.. ماينفعش ياشيخ..

تمت بعون الله،،،

١٣- مائة البقر

١٤- رواية مكي النبي دنيال

١٥- رواية الجسر

١٦- رواية الخيخ

١٧- رواية حجر مفضل

١٨- رواية / ما روي الوصلية

١٩- رواية / ما روي الوصلية

٢٠- رواية / متى الوصلية

٢١- رواية / نشاء موصلة

٢٢- رواية / زينة بنت السمانه
